عازفة على أوتار القلب

رواية

حمدى عمارة

الطبعة الأولى

٢٠٢١م

مكتبة زهراء الشرق

اسم الكتاب:

عازفة على أوتار القلب

المؤلف: حمدي عمارة

رقم الإيداع: 17598 /2021

الترقيم الدولي / I.S.B.N

978-977-314-620-7

حقوق النشر محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٢١

المراسلات:

١١٦ شارع محمد فريد – القاهرة

جمهورية مصر العربية

التليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩١٣٨٥٩

فاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩١٣٣٥٤

المحمول: ٠٠٢٠١٢٢٣١٧٧٥١٠

البريد الإلكتروني:

Hagagbookshop@hotmail.com

صفحتنا على الفيس بوك:

(دار زهراء الشرق للنشر)

انستجرام:

@ZAHRAAALSHARKBOOK

تويتر:

HTTP://WWW.TWITTER.COM/ZAHRAAELSHARQ

اليوتيوب:

HTTP://WWW.YOUTUBE.COM/USER/ZAHRAAELSHARQBOOK

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

تدمك: 9789773146207

عمارة، حمدي

عازفة على أوتار القلب / حمدي عمارة/ ط ١ / القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٢١.

١٥٧ ص؛ ١٤ × ٢٠ سم.

١) القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

البداية: سبتمبر ١٩٤٨

رفع الشيخ "أمين خليفة" أذان الفجر، مُجلجلا بصوته العذب الذى شق السكون، وطرق الأسماع. نفض الحاج "عمر أبو سالم" الكَرَى عن عينيه، والذى تأبّى عليه فى بداية الليلة؛ إذ كان مهموما مشغول البال !. مسّ كتف زوجه، وقام يجرّ رجليه إلى وسط الدار حيث مضخة المياه. توضأ، ثم خرج ليلبّى داعىَ الصلاة .

شردت الزوجة برهة. أرسلت تنهيدة مصحوبة بأنين، وما لبثت أن خَفَت لتُعدّ فطورا فاخرا هذه المرة. وكانت قد أيقظت وحيدتها، بينما ترقرقت عيناها بالدموع، واستشعر قلبها اللوعة والأسى .

لحق "عبد الحميد" بأبيه إلى حيث المسجد الكبير، حين أخذت "زينب" بيد أمها فى إعداد الطعام، ولوازم السفر. وما قد تراه الأم نافعا فى الغُربة. كانتا: الأم وابنتها واجمتين، كل تحتبس دمعا، ولم تشأ إحداهما أن تخدش جلال الصمت. ولم يتبادلا كلمة، وتحاشيا حتى النظرة.!

وبالدار المجاورة، صحا العم "شحاتة" وزوجه، والتى بدورها، أيقظت ابنتها "وداد" فى خلسة من أبيها. وإن باتت الأخرى ليلة مسهّدة، ولم يذق طرْفها طعم النوم؛ فلم تزايلها صورة ابن عمها "عبد الحميد"!.

كان نبأ سفره مفاجئا، كما أنه يغادر القرية لأول مرة، وستطول أيام البعاد والوحشة، فأين نحن من الإجازة الصيفية ؟. واصلت حديثها لنفسها :

- "إنهما مخطوبان منذ نعومة أظفارهما بأمر جدهما رحمه الله، وكان على والدها وعمها أن يعقدا قرانهما، ويُرجأ الزفافُ إلى ما بعد تخرجه فى كلية الطب، أو قبل موعد التخرج بسنتين أو ثلاث: خاصة وأن سنين الدراسة بالطب طويلة كما يقولون. لم لا ؟. لقد فاتهما ذلك. ولكن ما الفائدة، وقد أشرف على الرحيل ؟."

تنهدت ..

"كان مشغولا بالمذاكرة طوال الوقت، ولم يتسنّ لها أن تكاشفه عن مكنونها، وما يصنع بها الحب وتباريح الشوق. عموما: لا وقت وعليها أن تلمّح له بمشاعرها نحوه. ولا معنى للحياء الذى يعتريها، ولتطرحه جانبا؛ فإن لم يكن خطيبها فهو ابن عمها. إنها فرصتها الوحيدة والأخيرة."

وسرعان ما لحقت بأبويها إلى دار عمها. كما يفد إلى الدار رهط كبير من الجيران والأحباب والأقارب، وعدد لا بأس به من أتراب "عبد الحميد" وزملائه؛ ليشاركوا فى توديعه .

خرج الجمع من دار الحاج "عمر" قاصدين محطة القطار. وكالعادة؛ الرجال فى المقدمة، ومن بينهم "عبد الحميد"، والنسوة فى المؤخرة ومن بينهن "وداد". الرجال فى صمتهم المعهود؛ إلا من نصح وتوصية؛ من مثل هذا المقال لذى يليق بالمقام، حين كان "عبد الحميد" فارغ القلب، مشتت الذهن، موزع الفكر. يحاول بكل عزمه أن يمسك بزمام سكينته، وأن يكبح جماح دموعه التى تكاد أن تنسكب من عينيه. تداخله الرهبة من ذلك المجهول الذى ينتظره، ويحتويه شعور بأن هذا الجمع من أهله وصحبه ؛ إنما سعوْا ليُشيّعوه إلى مستقره فى العالم الآخر، وما يلبثوا أن يزورّوا عنه ويدَعُوهُ وحدَه، ويقفلوا راجعين.!

سيرجعون جميعا حتى أمه !. ويتركونه للوحشة ولقاء مصيره المحتوم. ثم مضى ليُسرّى عن نفسه، ويأخذها بعيدا عن الخيالات الأليمة، والتوهمات الكئيبة، فراح يتأمل بيوت القرية، وحاراتها، ونخيلها العمالقة الشداد؛ التى تنتصب فى منعة وشموخ؛ كواحد من معالمها التى تنفرد به، ويميزها عن سائر مثيلها. كما عمد لاستدعاء ذكريات الطفولة والصبا، ولقطات خاطفة من الماضى الشيّق المثير. ويبدو أنه تخفف من بعض همومه وروعه؛ إذ عاد

يُطمئن نفسه بأن ما يُقدم عليه؛ ليس هجرة، ولا خروجا بلا أوبة، وإنما هى بمثابة سَفْرة، وخطوة على درب الحياة، وإن كان بالأسفار مشقة؛ فإنها طبيعة الحياة، وعزاؤنا ما نجنيه من ثمار الطموح، وما نتحصله من اثبات الوجود، وبناء لبنة فى صرح الحياة.

وها هو ذا: يخطو أولى خطاه فى سبيل أمله الذى راوده وملك عليه نفسه منذ صباه، ومن أجله لم يألُ جهدا وواصل الليل بالنهار. يربض فى ضميره الهدف الأسمى: مداواة المرضى والتخفيف من علتهم، وأسباب آلامهم؛ باعتباره عملا نبيلا، وواجبا مقدسا، ودِينا عليه نحو أهل قريته من الواقعين تحت وطأة العدم، هؤلاء الذين يشكون الفاقة، ويكابدون الفقر، وضيق ذات اليد.

بينا كانت النسوة تمارسن عادتهن الخالدة: الثرثرة، وحديث النميمة، والتشدق بأخبار الآخر، وسلخ جلده، ومضغ سيرته؛ مما جُبلن عليه من قديم الأزل؛ وكأن ستزهق أرواحهن، لو أنهن كففن عن الغيبة، وأكل لحم الموتى!.

لم تشاركهن "وداد"؛ إذ كانت تعانى من ورطتها، وفى شغلها الشاغل بوليفها الذى أوشك على الطيران والرحيل. وها هى ذى؛ تسترق نظرات ملتاعة؛ علها تلمحه وتلفت نظره؛ أو ترسل إليه رسالة حب عبر عينها؛ بينما كانت تأسف شديد الأسف على ما فات، وتجرّع نفسها كئوس الزجر واللوم؛ إذ أنها لم تتحين الفرصة رغم مثولها وتَوالها فى عديد المناسبات، لكى تتواصل مع خطيبها، ولتوثق عُرى المحبة بينهما، وليتحاورا عن المستقبل المُشرق، والسعادة التى تنتظرهما، حين يضمّهما عُشّ الزوجية، ويُزحمانه بالبنات والولدان. يا للغباء والتهاون!. كان على قيد خطوة منها. ولكن.. تأوهت.

لكم تخشى عليه من بنات البندر "المقصّعين". على حدّ علمها وسمعها. ذلك فإن قلوبهن جوفاء، ولا يعرفن الحشمة ولا الحياء، ولا يملكن سوى

المظاهر الخادعة: "من برّه الله، ومن جوّه يعلم الله". كما إنهن يَخْبِرْنَ فنون السحر واصطياد الرجال، وإيقاعهم فى حبائلهن وشباكهن. إنها على ثقة من ابن عمها، ولم ترها، ولا غيرها، أى شائنة عليه أو شائبة. إنه لا يعرف سوى المسجد، والمدرسة، وغايته الكتب التى انكبّ عليها سنينا، ولم ينقطع عنها ساعة. وإلا لما كان من الأوائل، ولما تأهّل لدراسة الطب.

كانت "وداد" فى موقف لا تحسد عليه من الحيرة، والقلق، والرهبة. ولم تكن تدرى بعينى "زينب" التى ترقبها، وتقف على أسباب علتها ودواعى معاناتها.

بلغ المودّعون رصيف المحطة. الرجال فى جانب، والنسوة فى جانب آخر: تقليد متوارث على مدى الزمان، لا يحيدون عنه أو يتمردون عليه، ولا يطوف بفكرهم غيره، ويمارسونه دون عناء. مرّت دقائق، ثم أطرق السمع صفير القطار، وكأنه إسرافيل ينفخ فى الصُّور. انخلع قلب "وداد"، وشعرت كأنما سينفلت من ضلوعها !. الكل يتأهب لتوديع "عبد الحميد". سيعانقه لجميع إلا هى. يجب أن تفعل شيئا. أن تقول شيئا. أى شىء. لم تشعر بقدميها التى سيقت نحوه. كان عليها أن تكسر القاعدة لمرّة واحدة فى عمرها. هتفت باسمه. القطار يتهادى على بُعد أمتار، ويكاد أن يستقر بالمحطة "عبد الحميد" مشغولا مع هذا، وهذا، وهذه. رفعت "وداد" عقيرتها. أخيرا سمعها. خطا نحوها. تفرست فى محيّاه. أرسلت إليه نظرة عميقة ذات مغزى !. لقد تلجّم لسانها، ولم يُسعفها إلا بكلمة يتيمة: "الجوابات". كلٌّ قالها. لم تختلف عنهم ولم تقل شيئا يخصها هى دون غيرها. ومع ذلك هدأت نفسا وارتاحت بالا. كلمة واحدة أفضل من الصمت، كما خصته بنظرة أودعت فيها كل اللوعة والشوق وصبّت فيها كل اللهفة والحب. نظرة تعدل الكلام كله؛ بل أشد قوة وبلاغة، ولا بد أنها هزت مشاعره، وسكنت فؤاده.

استقل "عبد الحميد" القطار بالدرجة الأدنى. وقف إلى النافذة وانظرات الملتاعة ترمقه. علا صفير القطار؛ وكأن عزرائيل يزعق !. تتحرك العجلات.

جعل "عبد الحميد" يلوّح بكلتا يديه، وحدقتاه تتنقل بين مودّعيه؛ حتى ابتعد عنهم، أو ابتعدوا عنه، ويختفى الناس والرصيف، وتختفى قريته الحبيبة، وتهت الدنيا فى عينيه .

رجع الأهل والرفاق وأبوه، ورجعت الأم. تهالك على مقعده والدمع السخين ينهمر من عينيه، والصور لا تدع مخيلته، وما زال بها تتدفق واحدة بعد الأخرى. توقفت لدى صورة أمه. محيّاها البهىّ النقىّ، ونظرتها المُشفقة الذاهلة، وعيناها التى تسفح الدموع الغالية، وصوتها الحنون الذى يتردد صداه فى حناياه وصحن قلبه، وأنفاسها الدافئة التى تطوف به كأنها نسمة صيف .

لكم يحب "عبد الحميد" أهله ويُشفق عليهم، ولكن ما أشد إجلاله وحبه لأمه وإشفاقه عليها !. إن لها فضلا كبيرا فى حياته، وتنشئته، ورعايته حق الرعاية، ولها كل الفضل فى تفوقه؛ فلكم تعهدته بالنصائح والوصايا، ولكم لازمته طوال سنين دراسته، وليالى مذاكرته؛ لتؤنسه، ولتقوم على خدمته وراحته، ولكم بثت فيه الهمة، وكل العزم والإصرار.

ما أشد آلام الفراق، ولكن المهمة جديرة بهذه الآلام. وانجازها يُخفف من حدّتها؛ بل يبدلها انشراحة، وفرحة، وحبورا. حانت منه التفاتة إلى الأشياء التى تتسابق إلى الوراء. أضاءت محيّاه شبح ابتسامة. لكم حيّره هذا المشهد صغيرا؛ إذ كيف يكون السباق عكس القطار ؟!. لم يهده عقله، وحينئذ سأل أباه الذى أوضح قائلا: "إن القطار ينطلق إلى الأمام، وهذه إلى الخلف. المسألة محلولة". اتسعت ابتسامته " الشقية ". إن أباه لم يضف جديدا. فسّر بعد الجهد الماء بالماء. وبالتالى تعقدت المسألة، ولم تتبدد حيرته. لقد رافق والده الرحلة نفسها بعض مرّة حين كان صبيا لم يشبّ عن الطوْق بعد، وكانت لزيارة أضرحة أولياء الله من آل البيت، والصلاة فى مسجد "الحسين"،

والسيدة "زينب"، والسيدة "نفيسة العلم". وبعد ذلك يعرجان على الشيخ "رضا شقرة" قريبهم وابن قريتهم: الذى كان يسعد بهما أيما سعادة، ويحتفى بهما أيّما احتفاء. وبعد الغداء يقضون ساعة فى حديث الذكريات. لكم أثارته مآذن القاهرة الشامخة، وأبنيتها السامقة، وشوارعها الواسعة، وميادينها الفسيحة؛ التى تزدحم بالمَرْكبات والناس. كم هى رائعة و.. ولكن ليس بها سواقى تُخرج ماء الحياة من باطن الأرض رقراقة، ولا أراض خضراء تتخللها الجداول، ولا "أبو قردان" صديق الفلاح منذ الأزل، الذى يطعم ديدان الأرض التى تضر بالزرع !، ولا نخيل باسقة و.. كأنها جنة الله فى الأرض. لكم نالت منه الساعات الماضية، وكان القدر رفيقا به؛ إذ داعب النعاس أجفانه، وما لبث أن راح فى سُبات. ومضى القطار فى رحلته التى تستغرق نحو ساعتين.

صحا "عبد الحميد" على جلبة الركاب وصياحهم. فرك عينيه بينما تلفت من حوله. لقد وصل القطار بسلامة الله. حمل همّه وحقيبته المثقلة بالملابس، والأغطية، والطعام الذى لا يخلو من دجاجة محمّرة أو دجاجتين. تذكر الشيخ "رضا" الذى سيكون فى استقباله، والذى اتُّفق على أن يقيم عنده طوال فترة الدراسة. وقد تعجب "عبد الحميد" ولم يعقب حين أخبره أبوه بذلك، ولم يعطه الفرصة ليحاوره فى ذلك الشأن؛ إذ أوضح له أن الشيخ "رضا" وزوجه قد بلغا من العمر عتيًا، ولم يُقدّر الله أن ينجبا على مدى سنين زواجهما؛ التى امتدت لأكثر من أربعين عاما. وأنهما سيتخذاه ولدا، يؤنس وحشتهما، ويُضفى على البيت دفئا وحيوية وبهاءا. وطمأنه بخصوص نفقات الدراسة والمعيشة. وفى تلك اللحظة؛ داخلته الرهبة؛ حين خطر له ألا يجد الشيخ فى انتظاره.

كان الشيخ "رضا" على الرصيف بين مستقبلى الركاب الوافدين. إنه يترقب وصول القطار الذى يقلّ ابن بلدته، ونجل رفيق صباه وعمره، وأحَبّ الناس إليه؛ منذ أكثر من ساعة !؛ حرصا وتحسّبا: عسى أن يصل قبل موعده! ومنذ

دخول القطار وهو مُشرئب العنق، وعيناه القلقتان على النوافذ والأبواب عله يلمحه. يُشرق محيا العجوز حين يُبصر به ، وما يلبث أن يزعق باسْمه؛ لتنفرج أسارير "عبد الحميد". لقد انتشله صوت الشيخ من أزمته ورهبته، وسرعان ما يشق الطريق إليه غير مصدّق. وما يلبث أن يرتمى فى أحضانه. ويضمّه الشيخ كأنما يضمّ أهل قريته جميعا، وجعل يتفرس فى وجهه؛ بينما أطلق لدموعه الحبيسة العنان. وإزاء إصرار الشيخ وأيْماناته المغلظة؛ لم يُفلح "عبد الحميد" أن يثنيه عن حمل الحقيبة الثقيلة، لتكسو محيّاه حُمرة الخجل، وليرمقه بنظرة إشفاق وعرفان.

يبلغهما "الأتوبيس" حيث يقطن الشيخ بحى "الحسين". تستقبله زوج الشيخ كأمه. لم يشعر "عبد الحميد" بالغُربة؛ إلا من بعض الحياء الذى يعترى ابن الريف فى حال كهذا، وسرعان ما ألِف البيت وأهله، وشعر كأنه فى داره وبين ذويه. وبعد تناول العشاء؛ امتد السمر بينهم فى أحاديث شتى عن القرية وأناسها الأحياء منهم والأموات. كان التعب قد نال من "عبد الحميد"؛ فقام إلى إحدى غرفتى المسكن التى خصصت له. يا لها من صدفة !. لكأنها غرفته بدارهم !. لم يطل أرقه؛ ليغالبه النعاس، ويروح فى الرقاد.

أيقظه الشيخ قبل الفجر بوقت كاف. وفى الطريق إلى مسجد الحسين القريب؛ حكى له ما كان من أمره منذ ما يقرب من خمسين عاما، وكان شابا يافعا؛ إذ غادر القرية على عينه سعيا للرزق. فلم يكن يمتلكون أرضا، وبالتالى لم يخبر شئون الزراعة إلا قليلا، علاوة على ضعف بنيته. ولكن الله عوّضه بحُسن الصوت وعذوبته. وقد أشار عليه أحد أقاربه بأن يفيد بمنحة الله التى وهبها إياه، وتوسط له ليُلحقه مؤذنا بمسجد الحسين رضى الله عنه، وساعده إمام المسجد فى الحصول على هذا المسكن القريب. وما أن استقرّ به المقام؛ ليصطحب عروسه، ولم يكن مضى على زفافهما شهرا واحدا.

توضأ "عبد الحميد"، وصلى ركعتين، ثم جلس فى ساحة المسجد يذكر الله، والنسائم الندية تطوف به، وما لبث أن انساب صوت الشيخ "رضا" بالأذان تالله ما أعظم الأذان ودعوة الورى لعبادة الله وحده !: حيّ على الصلاة، وأذان الفجر على الأخص، ونبرات الشيخ "رضا" التى تطرق السمع؛ فتوقظ النيام، وتصحّى المشاعر، ويتردد صداها فى حنايا القلب؛ فتبعث السكينة فى الوجدان، والهمة فى الأبدان. النداء نفسه الذى يرفعه الشيخ "أمين خليفة"، والذى يردده المؤذنون فى شتى بقاع الأرض؛ ليلبّى عباد الله النداء؛ فيسعوْن لإقام الصلاة: عماد الدين والركن الركين. ويُسبّحون ويَحمدون ويُكبّرون. والمحايا وضاءة، وفيها إشراقة وبهاءا، ثم ينتشرون فى الأرض؛ ليستهلوا يوما جديدا من أيام الله. تذكر أباه، ورفيقه إلى المسجد والصلوات، وصديقه فى صلاة الفجر. إنه الآن برفقة الشيخ "رضا"، فمن يرافق أباه ؟.

خرج "عبد الحميد" والشيخ، فى رهط من المصلين، وراح يتفحص الوجوه؛ التى تشعّ بالورع والإيمان. سبحان الله !. إن للمؤمنين سمتٌ، وجلالٌ ، ومخايلُ طيبة تجذب العين وتخلب اللب. ما أشبه أناس الحسين بأناس لقرية! كما لفت نظره المحال والمقاهى العتيقة؛ والذى أخبره الشيخ. أنها لا تنام، ولا تغلق أبوابها على مرّ السنين !.

تناول "عبد الحميد" إفطاره مع أبويه الجديدين؛ وقد أطلّ البِشْرُ من محيّاهما، وانفتحت شهيتهما للحياة، وكأنه طائر السعادة؛ عاد ليحلق فى الأفق، ويرفرف حولهما بعد طول غياب !. استأذن "عبد الحميد" لارتداء ملابسه؛ التى أبى والده إلا أن تكون حُلة جديدة، يبدأ بها أولى سنى دراسة الطب. لكم يحب أباه. إنه أبوه ورفيقه، وزميله فى فلاحة الأرض. اصطحبه الشيخ "رضا"، إلى حيث كليته "بقصر العينى". وفى الطريق؛ اغتنم الشيخ الفرصة، ومضى يعرّفه الشوارع، والميادين، والأبنية القديمة، والمساجد

الشهيرة؛ ذات المآذن الشاهقة الراسخة على مدى الزمان. لم تستغرق الرحلة طويلا. ترجّلا من الحافلة واجتازا الشارع، ثم توقفا بالقرب من بوابة الكلية. وإذ حانت لحظة الفراق؛ لتتعلق عينا "عبد الحميد" بالشيخ كأنما يستنجد به !. ربت الشيخ كتفه؛ بينما فرّت من عينيه عبرة. ولم يفتْه أن يشرح له طريق العودة، كما أوصاه بالانتباه لشرح المعلم. ثم قال ضاحكا :

"الخطوة الأولى صعبة يا ابن أخى. شد حيلك يا دكتور"!.

شيّعه "عبد الحميد" بنظرة ملؤها الحب والعرفان، ثم وقف يجوب المكان والمبنى بعينيه، والقلق يساوره. ثم استعان بالله، واجتاز البوابة مع زملائه من الطلبة والطالبات؛ ليخطو أولى خطاه فى رحاب الكلية. وقد زايلته الرهبة حين التقى بزملائه وزميلاته النازحين من القرى، والنجوع، وشتى الأنحاء، وقد عرف ذلك من تباين لهجاتهم. لقد آنِس إليهم وأنسوا إليه. بداية صعبة على حد قول الشيخ "رضا" ولكنها موفقة على كل حال .

هدأ "عبد الحميد" بالا؛ حيث استقرّ به المقام فى كنف الشيخ "رضا"، وتحت رعاية امرأته العجوز الطيبة. وما لبث أن ألِفَ جوّ الحسين؛ الذى لا يختلف فى كثير عن قريته. وأحبّ أناسه البسطاء الودودين، وشغف بأبنيته العتيقة، ومساجده العريقة؛ التى يفوح منها عبق التاريخ، والتى تجسّد الحضارة الإسلامية. وبين الحين والآخر؛ كان يفكر فى أمنيته، والهدف الذى جدّ سنينا من أجله، واغترب فى سبيله . إنه لا ينسى وعدا قطعه على نفسه؛ أن يغدو طبيبا حاذقا؛ فيفى بدين أهله، وحق قريته عليه. وليُسهم فى علاج المرضى، وإعلان الحرب على الأمراض المتوطنة؛ التى أزمنت، وعاثت الفساد فى الأجساد ونالت من الأهالى؛ فحصدت الكثير من الرجال، وأصابت العديد من الشباب فى عمر الزهور، وباتوا بين الحياة والموت .

"الوقت من ذهب": كلام هراء، وقول ليس مأثورا ولا حكمة فيه؛ بل مقالة جائرة؛ الأمر الذى يوجب مراجعتها، وإعادة النظر فيها؛ فليس الوقت دقائق تمضى وساعات تنقضى، وإنما هى أياما معدودة، وسنين محسوبة، ومقدّرة فى عمر كل امرئ من البشر. فأى ثمن مهما كان ذهبا أو عقيقا؛ يعدل ذلك الأجل القصير؟!. الوقت حقا كالسيف، إن لم تقطعه قطعك.

إنه منطق "عبد الحميد" الذى رسخ فى ذهنه وفكره، وملأ عليه كيانه. لقد هاجر موطنه طلبا للعلم؛ فلتكن هجرته إلى ما هاجر إليه، وليضع هدفه نُصْب عينيه؛ فينأى بنفسه عن كل ما يعطله، ويصرفها عن كل ما يضيّع لوقت سُدًى. إذ آل على نفسه ألا تفوته محاضرة؛ فتراه فى مقدمة الحضور. ودوما فى الصف الأول. لا يشغله شئ، عينه على معلمه، وذهنه منصرفا لما يخطه على السبورة، وكل ما يفوه به.

وفى غرفته تراه منكبًا على كتبه، ينهل منها نهل العطاشى الظماء، وأمه لثانية زوج الشيخ، ساهرة على خدمته وراحته، لا تكلّ ولا تملّ رغم وهنها، ورغم أمراض الشيخوخة وأوجاعها المبرحة؛ التى لا تدعها !. ولا يراها "عبد لحميد" إلا هاشة باشة، وابتسامة رضا تظلل محياها الوضئ !.

أقبل "البوسطجى" مبهور الأنفاس، متهلل الأسارير، مسنون الأسنان. يا لعجب!. ما الخبر السعيد الذى يحمله؟!. إنها أولى رسائل "عبد الحميد". صك الفرحة لأهل داره، وأقاربه، والقرية، والجميع فى تشوق ولهفة، عنده حق إذا. هرع الجيران حين لمعت زغاريد أم "عبد الحميد" الشهيرة، والتى تُطلب منها فى الأفراح والليالى الملاح. وسرعان ما اختطفت "وداد" شالها وانطلقت خلف أمها خافقة القلب إلى دار عمها؛ لتقف على ما وراء زغاريد أم خطيبها.

كان "البوسطجى" يلتهم الجبن القريش، والبيض المقلىّ؛ حين كان يصغى الجميع إلى "زينب" التى تصدت لقراءة الرسالة؛ ليس لأنها شقيقة المُرسل، ولكن لأن لا أحد من الحاضرين يعرف الألف من كوز الذرة، وهى الوحيدة التى تفك الخط، وتعرف مبادئ القراءة؛ التى اكتفت بتعلمهما فى كتاب الشيخ "سيد حنفى". القراءة "مكسّرة" ممطوطة الحروف، ومُضنية عليها، تُفهم بالكاد بعد التفسير من هذا وذاك، لكن ما باليد حيلة. الخلاصة: عرفوا أن "عبد الحميد" بخير ، ولا ينقصه سوى رؤياهم. وأصغت الآذان وتشنفت حين حانت السلامات؛ كل باسمه بدءا بوالديه؛ فأخته ، ثم عمه وزوجه. توقفت "زينب" عن عمد، وبادلت ابنة عمها نظرة، بينما غمزت بعينها، وما أن نطقت باسمها ليحمرّ وجهها، وكأنها قبعت طويلا أمام فوهة "فرن" !. طأطأت رأسها خفرا؛ بينما غمرتها السعادة، وراحت تحدث نفسها :

- "إنه لا ينسانى. لقد كتب اسمى بقلمه، ولا بد أنه رددد بلسانه وقلبه. إن صورته لا تفارقنى. يا سلام !. متى أزفُّ إلى "عبد الحميد" ؟!. أقصد "الدكتور عبد الحميد". الدكتور. الله !. ما أحلى هذه الكلمة !، وما أعذب مذاقها ووقعها"!.

وتمضى الأيام كما قدّر لها، وبعد أشهر قليلة، يلفت "عبد الحميد" انتباه أساتذته؛ الذين لم يكن يرونه إلا فى قاعة الدرس، والمعمل، ويصدفون به داخل المكتبة، التى كان يختلف إليها بين المحاضرات، وفى نهاية اليوم الدراسى. وكان لا يتردد فى سؤالهم فيما غُمّ عليه، وما عزّ عليه فهمه، ولا يجد حرجا فى مناقشتهم فى بعض ما شُق عليه من المسائل العلمية؛ أثناء المحاضرات، أو غير ذلك على السواء. وقد رأوه متفتح الذهن، وعليه مخايل النجابة، وإنه شغوف بكل جديد فى عالم الطب. وفوق ذلك؛ كان أشد حرصا على أداء الفروض والعبادات؛ متخذا شعاره ونبراسه: "وما نيل المطالب بالتمنى، ولكن تؤخذ الدنيا غلابا."

وعلى أثر ذلك: كان من الطبيعي أن يكون "عبد الحميد" محط أنظار زملائه. ويتباين ما يُعتمل في نفوسهم: بين الحسد، والإعجاب، والاستعداد للمنافسة الشريفة. إلا أنهم اجتمعوا على احترامه: فبجانب نبوغه: فقد فرض نفسه بدماثة خلقه، وحيائه، وتواضعه، وما يكنّه من حب للجميع. علاوة على استعداده الدائم أن يمد يد العون: فلم يضنّ عليهم بمعلوماته، وكراسة محاضراته. ولمّا أن كان الحب يأتي بعد الاحترام: فقد أحبه الجميع إلا القليل. وهذا في حدّ ذاته أمر وارد: فليس من آدميّ على وجه البسيطة يجتمع عليه كافة البشر.

من بين الزملاء: كانت هناك عينان تتعقب "عبد الحميد" وترقبه أينما كان، وحيثما حلّ، ولم يكن صاحبها حاسدا، ولا معجبا، ولا من المنافسين الشرفاء !، بل صنف مغاير !. عكف يرنو إليه ويتأمله بعدسة الغد، وتبدّى له "عبد الحميد" شخصية ذات شأن وشأو. ليس ظنا أو أكبره؛ بل يقينا؛ فالبعرة تدل على البعير، والأثر يُنبئ عن المسير، والتربة الخصبة تنبت ثمرا يانعا شهيا للآكلين. سيغدو طيرا يحلق في الآفاق ونجما يتألق في السماء ومسيرا يملأ الأسماع. غدا يكتمل شق القمر بدرا بازغا يضئ الدنيا.!

ما أجمله وساما على الصدر !، وتاجا فوق الرأس، وما أحلاه دبوسا ذهبيا يبرق بين خصلات الشعر !، أو عقد ياقوت حول الجيد، أو سوارا من الياسمين يفوح عبيره، ويزكي الجو ويعطره !. رؤية عميقة، ووجهة نظر ثاقبة، تنبئ عن بُعد النظر وعمق البصيرة. كما تنُمّ عن خصوبة الخيال. لصاحبة العينين المترصدتين. أ قلت صاحبة ؟!. أ هي من النصف الحلو ؟!. أجل، أنثى طاغية الحُسن والأنوثة؛ تسحر العين، وتخلب اللب، واسمها "غادة": اسم على مسمّى. تملك مفاتح الفتنة، وعديد المغريات. ولا غرو أن الأعين عليها، والكل مفتون بها ومشدود إليها؛ منذ اجتازت بوابة الصرح الملائكي الأبيض،

وأنه لا يخفى عليها؛ فقد ألفته، واعتادت عليه؛ منذ أن تعهدها خرّاط البنات؛ حتى غدا أمرا عاديا لا يثير اهتمامها، ولا يحرك فيها ساكنا. إنهم كمثلها، وعلى شاكلتها. يملكون الجاه، والمال، والإغراء و.. لن يُضيفوا جديدا، أو يكملوا نقصا. وإنها تختار ما يروق لها، وما يحلو فى عينيها.

" عبد الحميد" فى مستقبله؛ شخص آخر. مختلف. متميز. نابغة؛ وهم ليسوا كذلك، ولن يُدركوه فى مضمار السباق؛ مهما جروا ولهثوا، ولا ريب أن يتساقطوا دون اللحاق به. إنهم يفوقونه شكلا، ولكنه يفوقهم شأنا. الشأن بيت القصيد وكل ما تبتغى. لقد وقع اختيارها عليه؛ فهو دون غيره الذى يُرضى غرورها، ويساير طموحها ورغبتها، وهو المنال الذى يُرجى اقتناصه والقبض عليه. لم يتبق سوى التخطيط والتدبير. ولن يُعْسَرَ عليها، وعدّته أمرا هيّنا؛ فلن يصمد عصفورها قبالة أسلحتها الماضية، وسرعان ما ينهار، وما يلبث أن يرضخ ويسلم تسليما.

فلتتقرب إليه، وتتعامل حياله كزميلة؛ حتى تكون بمنأى عن الشبهات؛ خاصة فى مرحلة البداية؛ فلا ضير أن تناقشه فى معلومة ما، أو تستعير كراسة محاضراته. أو.. أو تلتقى به فى المكتبة. إنه. إنه يدأب على زيارتها عقب المحاضرات. هذه هى !. إن ذهنها النشط يسعفها دوما .

ولا يطول بها التفكير؛ فما تلبث أن تعفى سائقها؛ لتقود سيارتها بنفسها. رأته يسعى إلى المكتبة. تمهلت بعض الوقت. ثم تبعته إلى هناك. توقفت هنيهة لدى الباب. تلاقت عيناهما. حيّته. ردّ دون تلعثم وإن احمرّ وجهه خجلا! تناولت أحد المراجع، وجلست على مقعد بجواره تقلب صفحاته. عساها لم تقرأ سطرا واحدا، أو أنها كانت تتسلى بمشاهدة الصور !. يجب أن تتصرف بأكثر طبيعية، وتتعامل معه فى انسيابية ودون افتعال .

ما أيسر أن تتحاور معه بشأن إحدى فقرات بالمرجع. لفت نظره تمكنها من الإنجليزية، وطلاقة لسانها كأهلها !. لا شك أنها تتفوق عليه. قرأت ما وقع بخاطره. مكثا وقتا ليس بقصير. خرجا معا. ألحّت عليه بأن توصله إلى حيث يسكن. لم يمانع. يجب أن تعرف عنه كل صغيرة وكبيرة، ولكن بعد أن تزيل عنه الخجل الذى يتسم به. انبرى فى حديثه دون مواربة. عن نفسه، وماضيه، وأهله، وقريته و.. كل شىء !. أثارتها لباقته، وصراحته، وشفافيته، وشدتها بساطته، ورجولته. وإن قلقت لصرامته التى تصل لحد التزمت. شخص مختلف تماما، وعلى النقيض من كل من عرفت وصادفت. ورغم تأففها: إلا أنها أبدت إعجابها بحيَ الحسين.

مضت الأسابيع وانصرمت الأشهر، والحال كما هو عليه: "محلك سر". والعلاقة بين "غادة" و "عبد الحميد" تمضى فى تلكؤ، وتثاقل، وعلى وتيرة واحدة؛ إذ قصرت على لقاءات فى رحاب المكتبة؛ قوامها قراءة فى المراجع، ومناقشات علمية جافة، وباردة، وفارغة من الدفء والمشاعر. وكذا حوارات عقيمة؛ لا تسمن ولا تغنى من جوع، وتبعث على الملالة والسأم.

لقد وقفت "غادة" على دقائق وتفاصيل حياة "عبد الحميد" وحفظتها عن ظهر قلب، ولو أنها امتحنت فيها لنالت درجة الامتياز !. لكم استشعرت مرارة الهزيمة إزاء جموده: فعلى مدى تلك الفترة الطويلة: لم ينبهر بجمالها، ولم يؤخذ بفتنتها. وكذا لم يحفل بثرائها، والنعيم الذى يُغرقها. حتى إنه لم يداعبها بنظرة، أو يطرها بكلمة ولو على سبيل المجاملة. وبدت كلها أمور ليست فى حسبانه، ولا تلفت انتباهه، أو تدخل فى نطاق اهتمامه !.

لقد أوشك العام الدراسى على الرحيل، ولم تحرز "غادة" تقدّما، أو خطوة للأمام؛ بما يُعدَ بمثابة الإخفاق. بل إهانة على حدّ مفهومها: فهى لا تعرف الإخفاق، ولا تقرَه، ولم تجربه البتة. ولم يُدرج أصلا فى قاموس حياتها. إنها

تأمر فتطاع فى التوّ، وتطلب فيُستجاب لها فى اللحظة. وبإيماءة تحقق ما تبغى، وتنال كل ما تصبو إليه. وكذا ينسحب على اليأس ما ينسحب على الإخفاق، وأنّى للمرء أن يُخفق، أو ييأس، وفى حوزته كل أسباب النجاح؟!.

لم يُولد بعد من يتغافل عن أنوثة "غادة"، وما وُجد من يُهملها، أو يتحول عنها !. ما لهذا القروىّ الجلف: الذى لا يعبأ بجمالها، وتشعر أمامه وكأنها رجل !. ماذا يرى فى نفسه، ويقع بظنه ؟!. إن غمزة واحدة بطرْفها كفيلة بأن يتجمهر حولها جيش من اللهفى: خاطبى الود، وطالبى الهوى.

عبث أحمق، ولعبة سخيفة تثير الغثيان، يبدو أنها أخطأت النيشان، وطاش سهمها بعيدا عن الهدف. لقد أهدرت أياما من عمرها دون طائل أو جدوى. وحان الوقت لأن تُعيد حساباتها، ولتنصرف عن هذا الهزل السخيف، وألا تتمادى فى نزقها وطيشها، ولتحطم الصنم، وتهشم اللعبة. وقبلها تلقن هذا الأرعن درسا فى أصول التعامل مع الفاتنة بنت الأكابر.!

طال بها التفكير. انبعثت تنهيدة من أعماقها، ويبدو أنها هدأت وجاءها خالها الطيب !. فعادت تسترسل فى حوارها مع نفسها: إن "عبد الحميد" لم يتطاول عليها بكلمة نابية. أو يُرسل إليها نظرة مُنكِرَة. ولا تذكر أن خدش حياءها، أو جرح مشاعرها، أو داس على "طرفها" لا سمح الله. إنه شديد الخجل؛ فإذا حدقت فى عينيه؛ أشاح بوجهه، أو طأطأ رأسه كالعذراء فى خدرها، ولا يعرف من جنس النساء: سوى أمه وأخته وزوج الشيخ "رضا"!.

كلُّ عيبه أنه حيىّ؛ إن كان الحياء عيبا أو.. أو أن العيوب نسبية: وفقا للتنشئة، وظروف البيئة، ودرجة الوعى، واختلاف الرؤى والمفاهيم. ويبدو أن القيم فى القرية؛ تُرى عيوبا فى المدينة، والمبادئ إحدى سمات التخلف. لقد تغيرت المسميات: فالسرقة: "خفّة يد". والشك: "عين العقل". وفى محله. والطيبة بلاهة. والنفاق روح العصر. والعشوائية تجريب. والتجارة "شطارة"؛

بيد أن الشُطار فى اللغة: هم اللصوص !. و"التخنفس" والتعرى "موضة". والتمسك بالتقاليد تزمت. وتشبّه الرجال بالنساء والعكس: "تمدين"!. وضرب النساء رجولة وشهامة. واختطاف البنات واغتصابهن فروسية !. وأكل مال اليتيم، والتهام التراث سنّة الحياة. و"البلطجة" شجاعة و..

وكذا انقلبت المعايير؛ فالغش، والزيف، و"الهبش"، والغدر، والإهمال والتسيب، والتلاعب، والضحك على الذقون، والعيش فى الظل؛ كلها؛ 'فهلوة"، وفن، وإبداع. و.. من سمات المدنية الحديثة!. أما الصدق، والأمانة، والاستقامة، وتقوى الله، والتمسك بالموروث و.. كلها بلاهة، ورجعية، وعودة إلى القهقرى. ورأس الحكمة السائدة: "لا تكن حَمَلا فتأكلك الذئاب". فما هى إلا دعوة صريحة لأن تكون ذئبا غدارا. وأن تمكر وتروغ كما يروغ الثعلب !.

فلتُعِد "غادة" نظرها، ولتضع الأمور فى نصابها، وتزنها بميزان العقل، وتتوخى التأنى والتروّى؛ فالعجلة من الشيطان. والتهور يأتى بالخسارة، ويُخلف الندم. يجب ألا تضيع جهد الشهور سدى، وألا تضيع "عبد الحميد" بعنجهيتها، أو بقرار طائش، وتصرف فالت. الأعين كلها عليه. والنفوس تطمح إليه. وهناك بالطبع من تفكر فى اقتناصه، وتُعدّ لاختطافه، وقد تسبقها إليه. الجمود هو سيد الموقف، والحال فى ركود، وكل ما عليها إلا أن تحطم الجمود، وتحرك المياه الراكدة. وعكفت تحكم عقلها وتدبر أمرها. ثم علتها ابتسامة واثقة !.

فى تلك المرة: قالت له فى بساطة :

- إنك ما دعوتنى مرة لزيارتك..
- ماذا ؟ !
- لم تعبأ "غادة" بمفاجأته، وأضافت :
- أنت الذى شوقتنى لأمك الثانية، وأبيك الروحى .

وقع الكلام من فمه :

- "أبويا" الشيخ "رضا"و ..

كتمت "غادة" ضحكة، فعاد يردد فى استغراب :

- قلت "أبويا" الشيخ "رضا" و ..

خرجت الضحكة برغمها :

- أعنى بشأن الزيارة ؟

تأملها عبد الحميد بينما انتابته الحيرة وغرق فى عرقه؛ فماذا يقول لها؟! لقد باغتته. إنه لم يألف مثل هذا، ولا يعرف به. كما أنه لم يتوقعه، أو يطف بخاطره. كاد أن يعتذر؛ فيسوق إليها حجة، أو ما شابه ذلك، ولكنه لم يعتد هذا، وليس من شيمته و.. ولأى سبب ؟!. وماذا تقول عنه ؟؛ لهتف فى ثقة، وفى نبرة صدق :

- على الرحب والسعة؛ إلا أن المكان لا يليق بالمقام.

وردّت "غادة" فى لباقة :

- العبرة بأصحاب المكان. إننا زميلان.

وقضت "غادة" قرابة ساعة فى ضيافة الشيخ "رضا" وزوجه؛ اللذان احتفيا بها احتفاءا بالغا على قدرهما، وأغبطت نفسها؛ حين قالت زوج الشيخ: . الزيارة الأولى غير محسوبة. السلام أمانة للست هانم والدتك.

ودّعتهم "غادة"؛ قائلة فى نفسها:

- ."هذا هو"!.

ذكرنا آنفا؛ أن "غادة"؛ قد حفظت حياة "عبد الحميد" عن ظهر قلب، وبالأخص شخصيته؛ التى تهمّنا فى هذا المقام، وكانت على يقين أنه لن يرفض دعوتها إليه بردّ الزيارة؛ وإن عقل الحياءُ لسانَه. وكان ردّه السكوت؛ فالسكوت هو عين الطلب، إذ هو علامة الرضا كما يقولون.

انطلقا معا إلى حيث الحى الراقى. توجس فتانا الرهبة. وشغل نفسه برؤية لطريق. توقفت السيارة أمام مبنى فخما. يحوطه سور عال؛ تطل منه رءوس شجر "بنت القنصل" ذات الأوراق حمراء اللون. هرول رجلٌ نوبىّ. ناصعُ بياض ثوبه وأسنانة إذ افترّ ثغره عن ابتسامة ودودة. هرول ليفتح البوابة لضخمة. تهادت السيارة، ثم توقفت بالقرب من "الفراندة" ذات الأعمدة لرخامية العملاقة. ترجّلا. وقف "عبد الحميد" مشدوها يتأمل المبنى بما عليه من نقوش وزخارف. وقد أخذته الدهشة من كل حواسه، وراح يحدث نفسه بينما اختلط عليه الأمر :

- ."ليست هذه "فيلا" بالطبع. إمّا أنها سراى، أو قصر"!."سواء كان هذه، أو.. فإنه لم يحظ بدخول أحدهما، وكذا لم يدر بخلده."

قرأت "غادة" ما اعتراه، وما علاه من انبهار. تبعها. صعد بضع درجات. دعته إلى الداخل. وما أدراك ما بالداخل من الأطقم المذهّبة، والبُسُط، والثريات، والتحف، و"الفازات" واللوحات والتماثيل و.. إمّا أن "غادة" حفيدة "باشا" أو أميرة سليلة ملك. أو أنه يحلم !. أيضا قرأت "غادة" ذهوله، وعيناها تقول :

- ."إنك لم ترشينا أيها الفلاح الساذج ؟!. البقية تأتى."

قدّمت إليه والدها المقاول الكبير. مقاول !. المستحيل بعينه. يبدو أنه من قبيل التواضع؛ بل مؤكد، وإلا لما دعت "غادة" نفسها إلى غار الشيخ "رضا" ومقابلة البسطاء. شرد بخياله. يبدو أنه كان يعقد مقارنة بين ذلك الشيخ باهت اللون، مُغضّن الوجه، معرورق اليدين، رث الملبس، رقيق الحال، ولا يبتسم إلا لماما ! و.. وهذا المقاول ذو البشرة المخضبة بلون الدم، الذى يكاد ان ينبثق من وجهه؛ منبسط الأسارير، تتألق عليه مخايل العز و.. كاد أن يضحك من نفسه !. كما قدمت "غادة" الست هانم والدتها. ست هانم ؟!.

قل ملكة، أو أميرة. وإن لم تكن هذه، أو تلك ؛ فماذا تكون ؟!. لن نمضى فى الوصف، ولن نتغلغل فى استعراض مراسيم الاستقبال، وسرد تفاصيل الاستضافة، والذهول الذى أحاط به. الأهم من ذلك أنهم احتفوا به على قدر وسعهم، وكل يحتفى على قدره، ولا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها !.

خفق قلب الأم الثانية؛ إذ اندفق فيه الخوف، وبلغت روحها الحلقوم، وبدت كمن أشرف على الموت !. عجبا ؛ فما الخطب ؟!. الشمس فى وقت الزوال؛ ولم يرجع "عبد الحميد" بعد الظهر كعادته. إنها المرة الأولى منذ التحق بالكلية. كما أنه لم يخبرها بشأن تأخيره. وراحت تلفّ وتدور فى جنبات المسكن الصغير، ترهف السمع فى لهفة: علها تسمع وقع خطاه؛ التى تعرفها، أو طرقاته الرقيقة؛ التى تمس شغاف قلبها و ..

لقد تأخر "عبد الحميد". القلق، والتوجس، والتطير: مطارق تدق رأسها. وتساؤلات تتزاحم فى بالها : هل ضل طريق العودة ؟؛ أم.. أم أصابه مكروه لا قدّر الله ؟. لقد رزقها الله به؛ بعد ردح طويل من الزمن ليعوّضها عن كل خلفتها، وأودع له فى قلبها حبّهم أجمعين !. ولقد أشفق عليها الشيخ، وما زال به يحاول أن يُطمئنها، ويُذهب عنها الرّوع؛ مبررا بمحاضرة أو درسٍ إضافىّ . أو غير ذلك، ولكن ذهبت جهوده أدراج الرياح. وأيضا لم يَسلم من زعيقها المفاجئ :

- . إلى متى تضع يدك فى المياه الباردة، وتقف متفرجا هكذا ؟!.

أ تزعق هذه الحرمة ؟!. أ نسيت نفسها ؟!. لقد تجاوزت حدودها معه و.. ولكنها فى موقف صعب، وعليه أن يصبر. فقال فى لين :

- . وماذا بيدى يا ..

لم تعطه الفرصة، وانبرت تلهبه بلسانها:

- . ماذا تقول ؟!. فلتبحث عنه، أو لتذهب إلى الكلية. ماذا تنتظر يا رجل ؟ !

أ تنهره أيضا ؟!. لقد جُنت هذه المرأة. ولكنه تأمل عينها الدامعتين، عندئذ لم ينبس بكلمة: حتى لا يُثير حفيظتها، وما يلبث أن يمتثل لأمرها، وينصرف؛ بينما تردد العجوز :

- . لا أحد يعذر. ماذا يقولون فى البلد؛ إلا أننا أهملناه، وفرّطنا فيه، ونصبح معارة، وسيرتنا على كل لسان ..

كان الوقت بعد العشاء. ترجل "عبد الحميد" من السيارة وانحنى يحيّى "غادة" التى قالت له:

- . موعدنا غدا .

- . إن شاء الله .

وانتظر "عبد الحميد" حتى انطلقت "غادة" بسيارتها. كانت منشرحة الصدر، مبسوطة الأسارير، وكانت تغبط نفسها؛ فقد استطاعت بفضل لباقتها، وبتدخل أمها، وحياء "عبد الحميد"؛ أن تُنجزَ ما دبّرت، وتحقق ما تهفو نفسها إليه: وعلى حد تعبير الأب؛ إنه لن يجد لابنته الوحيدة خيرا منه زميلا سواء بالكلية، أو فى المذاكرة، وإنه خير من يأتمنه فى دخول "الفيلا "!.

يا بركة دعاء الوالدين !. لم يصدق "عبد الحميد" نفسه، وكأنه يعيش أحداث حلم سعيد !: فقد تحقق له ما فوق التصور. وما تجاوز الأمانى؛ فماذا بعد أن صادف كل ما كان يتمنى، وأصبح فى حوزته كل أسباب التفوق ؟!.

فبعد الغداء، وما حوته المائدة مما لذ وطاب من فنون المأكل والمشرب . دعته "غادة" إلى مسك الختام: المكتبة أو الكنز؛ الذى يضمّ أمهات الكتب والمراجع: فى العلوم، والفنون، والآداب، وكل موارد الثقافة والمعرفة. إلى جانب صيوان كبير يحوى المجلدات، والمراجع، والأبحاث، والمجلات؛ فى شتى فروع الطب وأسس العلاج !. والمكتبة فى عمومها؛ تليق بمفكر كبير، أو باحث ذى باع وشأو، أو عالم نابغة. وفى رحابها نسى "عبد الحميد" نفسه، كما نسى

ما انبهر به من أسباب العز، ومظاهر النعيم والثراء. فكفاه فى الحياة: أن تكون له مثل هذه المكتبة الغنّاء !. والحق: إن قلبه لا يحمل الحسد، ولا يعرفه. ولكن هذه المرة مسّه عفوا، وومضت به عيناه غصبا !. ولم يخف ذلك على "غادة" التى كانت ترقبه، ولا يفوتها شاردة، ولا واردة. وهكذا تهيأ الصيد، وما عليها إلا تلقى بالطعم، وتحسم الأمر. ثم أقبل والداها حسب الموعد. ولا ريب انهم احتفلوا بالنصر !.

تعلق بصر "عبد الحميد" بالسيارة الفارهة: حتى توارت وذابت فى الزحام. وقف كالحالم وقتا. ثم اتخذ سبيله إلى حيث المسكن، ولسان حاله يقول:

- ."يا له من يوم !. أظننى لن أنساه"!.

وراح يسترجع أحداثه. فبينا كانا بمكتبة الكلية: سألته "غادة" عن الشيخ وزوجه؛ ثم سألته ردّ الزيارة، ولم تبال بردّ فعله، مؤكدة له أن أبويها فى انتظاره.

- . انتظارى أنا ؟ !

- . وفى تشوق ولهفة لهذه الزيارة.

مفاجأة لم تكن على البال، وليست فى الحسبان و.. ولم يفتْه ما يعنيه ذلك التشوق واللهفة: إلا أن "غادة" بالغت فى الحديث عنه و. ولكى لا تدع أى فرصة للتملص، أو التردد: أردفت فى دهاء:

- . ولقد أرجأ أبى كل مواعيده.

لقد أقفلت عليه الفرص، وسدت عليه المنافذ. ولم يجد بُدّا من قبول الدعوة: فليس من سجاياه الرفض، وكذا ليس من سبب للاعتذار. ووافق على استحياء: حين دارت عنه ابتسامتها الواثقة. الظافرة !.

توالت الصور فى مخيلته: منذ ولوجه "الفيلا"، أو العالم المجهول الذى كتب عليه أن يرتاده. كان متردد الخطى، متوجس النظرات، مستريبا؛ كمن

يقول خذونى. وبودّه لو أنه ولى الأدبار. ولكنه امتثل للواقع: فإنه من صنع القدر ولا محيص. وبدا كأن يدا تدفعه. وتمضى به إلى المصير المحتوم !.

وكان لا بد أن يتوقف الشريط عند صورة الأب: ذلك الرجل الوقور فى مهابة. المتواضع فى كبرياء؛ شأن الزعماء والمصلحين. ثم صورة الأم: مرفوعة الهامة؛ ذات الشموخ والإباء؛ التى تحاكى بلقيس أو كليوباترا. و"غادة" فلذة كبديهما؛ التى تتصف بالبساطة والصفاء، وتتمتع بالعزة، والنبل، والشرف. وكيف أنه استُقبل بحفاوة بالغة. وسخاء لم يصادفه. أو يسمع عنه. وكأنهم من سليلة الطائى !. وبما يُنبئ عن الأصالة وكرم المحتد. ويؤكد نقاوة النبت وعراقة المنبت. وإنه ليسجد لله حمدا وثناءا. وليشكر الأقدار: التى حطت به فى هذه البقعة الطاهرة. وصادفته بأولئك الأشراف. وأنه ليوطد جهده وعزمه؛ ليكون عند حُسن الظن. وأن يكون جديرا بهذه الرابطة. وأولئك الناس الطيبين.

رقص قلبه؛ فأفاق من نشوته على الأثر. وفى منعرج الزقاق، لاح له البيت العتيق؛ الذى يتحدى الزمن. لا يخطئه امرؤ؛ زائر كان أو وافد؛ إذ ينفرد دون سواه بالمشربيات : آية التراث الإسلامى، والشاهد على توالى القرون.

هبّت عليه ريح باردة. وفى هذه اللحظة؛ تذكر " أبوه " الشيخ "رضا"، وأمه الثانية. ماذا ؟!. فى غمار التوتر وتواتر المواقف؛ غشيه النسيان فلم يخبرهما. وأمه على الأخص. وجيب القلب يهز كيانه. أى خطأ؛ بل أى خطيئة قارف. إنه لم يعمد ذلك حقا، ولكنه قد يُخلف بليّة؛ فمعظم النار من مستصغر الشرر. كما أن الأغلاط نسبية، وغلطة دون قصد؛ قد تجلب خطرا عظيما، أو تضيّع بريئا !. وإن لم تكن هذه، أو تلك؛ فهى تعدّ حماقة، وهو أحمق بالتالى.

زاغ البصرُ وتجمدت الأطراف. زحف كأنما يزحف فى الوحل. الدنيا "هُس"؛ إلا من خفْق خطاه !. عجبا؛ فإن الجلبة لا تزايل الزقاق طوال ساعات اليوم

! طنين الصمت يصمّ الأذن. اشتد خفقان القلب. ترنح. استند إلى الحائط المجاور جرّ رجليه. باب البيت مفتوحا. لا يُغلق قط !. انسل إلى الداخل. انتهى إلى سمعه نعيق بومة !. أغارت على أنفه رائحة غريبة. خانقة. تثاقلت أنفاسه، وغمرته الرهبة، وسرت فى جسده رعدة.. تلفت من حوله. تراءى الأفق باهتا كالحا. الشقة بالطابق الثانى. أرهف السمع. لا حِس، ولا خبر !. ما الخطب ؟! وكيف تبدّل الحال ؟!. انتابه الجزع. وطافت بباله خواطر فى لون الغرابين السّود. جاب الدرجات بعينيه ، بدت له بلا نهاية !. رفع رجله. عجز أن يرتقى إحداها. شعر بالخدر يتسلل فى أوصاله. تهالك فى مكانه، ثم أدركته غفوة لم يستطع لها دفعا ولا ردّا و... وما لبث أن برئ من وهنه، ودبّ فيه النشاط !. جاب الدرج فى وثبتين. وقف بالباب الموصد. بدا كأنه باب مغارة أو زنزانة. زمّ شفتيه. كاد أن يدفعه. طرقه بشدة طرقات متتالية. جاء إلى سمعه وقع خطى متعجلة. فُتح الباب. لم تكحل عينيه طلعة أمه، ولم يكن أباه الشيخ، بل كانت امرأة شابة؛ لم يصادفها من قبل !. هل أخطأ البيت ؟. بادرت بالتساؤل وفى عينيها بريق أمل :

- ."سى عبد الحميد ؟."!

أهى تعرفه ؟!؛ أم.. قرأ فى نظرتها المستريبة مزيجا بين اليأس والرجاء. أقبل الشيخ فى إثرها؛ يتحامل على نفسه، ويلمّ شتاتها، وقد استحال عجوزا نالت منه الأيام !. لم يُخطئ العنوان. وأقبلت امرأة، وأخرى. وبعض رفاق العجوز. مات الكلام على شفتى الشيخ. استعاض عن المقال بإشارة؛ فاندفع بدوره إلى حيث أشار. الخوف يزلزله. تماسك. دخل الغرفة. الأم جسد ساكن بلا حراك، وقد جف عودها، والمحيا ذاويا ضاويا، والنسوة من حولها واجمات، دامعات. داهمته رائحة الموت الخانقة. أصابه الهلع. كادت أن تنفلت منه صرخة. لعب لسانه فى فمه. أخيرا انساب النداء حارّا من أعماقه: أماه !.

ندّت حركة واهنة من كومة العظام الخامدة. تبودلت نظرة الفرحة الذاهلة. هتف الشيخ منتحبا :

- ."سبحان الواحد الديّان"!.

رُدت الروح إلى الجسد المسجّى. أو أن "عبد الحميد" هو روحها التى رُدّت إليها !. الصمت يعمّ الغرفة: والأحداق جامدة. رفّت أهدابُها .. الصمت المَهيب يفرش جناحيه: إلا من تلاحق الأنفاس !. انفرجت الجفون على المهل. رنت إليه ضمته بعينيها التى انحدرت منها دمعة !. انفرجت أساريرها. وافترّ ثغرها عن ابتسامة واهنة أضاءت محياها ، فبدا كالبدر. ثم انطفأ نور الحياة فى عينيها، وأسبلت الجفون !.

أفاق صاحبنا من غفوته على صوته المبحوح :

- ."ويحى. قتلتها !. قتلتها."!

نظر من حوله. هب من وعكته، وثب كالفهد. لم يطرق الباب؛ فلا وقت. اندفع إليه بكتفه. توقف حين شقت سمعه صيحة، وهرولة. يُفتح الباب؛ ليطل وجه أمه اللهفى؛ التى هتفت باسمِه بنبرة صدق، وبوقع لم يسمعه من قبل، كأنما تستدعى روحها؛ ليرتمى على صدرها الملتهب. ولتجهش بالبكاء المكبوت بينما تحسسته بأصابعها التى تفيض بالحنان. والشيخ يرقب ضاحكا، وعيناه يغالبها الدمع السخين. وجاء دوره؛ ليضمه ويعتصره، وليُطلق لدموعه ونحيبه العنان !.

ما أصعب غياب الحبيب !. وما أشد صعوبة الفراق !. وما أرقّ العجوزين وأرهف حسهما !؛ فلم يشأ أن يمسّا مشاعره بهمسة عتاب، أو نظرة لوْم. كانا أشد حرصا عليها دون اتفاق أو ترتيب !؛ فكفاهم عودته ورؤية طلعته، وإن لم يلداه !.

وا عجبا لأمر المحبين!: دينهم التفانى، وطبيعتهم الصفح والسماح. ينسوْن أنفسهم، ولا ترى أعينهم وبصائرهم إلا من يحبون !. لكم طالت ساعات هذا اليوم على العجوزين الواهنين، ولكم كابدا من آلام الحزن والأسى، ونسيا حتى ما يُقيم الصلب والأود !. لقد فاض الحنين، وطغى الحب على سائر الشهوات والغرائز، وأرجئ كل شئ لعودة الغائب أو الموت !. ارتهنت بالغائب: "الحياة، وعودة الروح."

كاد "عبد الحميد" أن يقتل أمه؛ كما ردد لحظة الفواق . كانت على شفا الموت، ولكنه سبق ملك الموت؛ الذى كان منها قاب قوسين أو أدنى !. أحاطها بقلبه، ووجدانه، وكل مشاعره. أطعمها وسقاها بيده. لم تطرف عيناها عنه، وبودّها لو طال حتى قضاء الأجل. وكذا لم يكفر عن ذنبه الذى اقترف . ولم يسألها الغفران !.

وفى الصباح، سرد عليهما ملابسات غياب البارحة، وتفاصيل رد الزيارة لزميلته "غادة"، وكيف استقبله أبواها، ومدى الحفاوة والترحيب الذى لقى، والسخاء الذى أغدق عليه. وكيف أنهما اعتبراه من أفراد الأسرة، والزميل الوفى والصديق الأمين؛ لوحيدتهما وقرة عينهما .

وإن كان يعزّ عليهما فراقه ساعة واحدة، ولكن؛ حرصا على مصلحته، وما يعود عليه بالفائدة كما أوضح لهما؛ باركا علاقته الجديدة، ورحّبا بالتردد عليهم من أجل استذكار الدروس، وتحصيل العلم، داعيين له بالتوفيق، وبلوغ المرام.

كانت أسرة "غادة " من وجهة نظر"عبد الحميد" بمثابة شريحة مصغرة للمجتمع المدنى؛ الذى قدّر أن يُساق إليه. ومن خلال تردده على "الفيلا" تجلت له بعض ملامحه، ولم يعُد مجهولا بالمرة. وليس من وجهٍ لمقارنته بمجتمع القرية؛ الذى تربّى فى رحابه، وتنفس عبيره، وتشرّب منه. كان على النقيض، سواء فى المظهر أو الجوهر. وأظهر ما فيه: النفاق، والرياء،

والتفكك، والتحرر من مختلف التقاليد والموروثات: فلا قيود، ولا ضوابط، ولا حدود. وكذا: المبالغة فى الاهتمام بالشكل دون المضمون و.. ولا يعرفون من الحياة إلا ظاهرها .

لقد بدت الحياة فى أعينهم كإمرأة متبرّجة، لا يرؤن منها إلا الزينة وأسباب الزيف: دون الخدع والأشراك، ولا همّ لهم إلا اتباع الهوى، والظفر بمتاع الدنيا.

وجُلّ هذا ينسحب على أسرة "غادة" التى شاء الله أن يكون على مقربة منها: فالأب كثير الرحلة والسفر، دائب على تحقيق المصالح المادية، واللهث وراء المال، ولا يتواجد: إلا للمقابلات الشخصية، والمآدب المصلحية، وكل ما يهمّه عن الأسرة: هو ما حققه لها من أسباب الرخاء والهناء، وما ادخره فى المصارف والبنوك المحلية والأجنبية .

و"جليلة" هانم الأم لم تكن ربّة بيت، أو سيدة منزل ؛ بل سيدة مجتمع؛ كما يصطلحون: فهى مشغولة طول الوقت؛ بالاجتماعات، والسهرات، والحفلات، وما أكثرها فى مجتمع الأثرياء !. وبالتالى لا تعرف شيئا عن ابنتها: التى يُجاب لها ما تطلبه، وما لا تطلبه، وإن كان لبن العصفور !. وهذه الإبنة المدللة، ترتع فى أسباب العز والرفاهية؛ التى تنهمر من كل فج، وترخّ كوابل من الأمطار؛ لا يتوقف عن الهطول. الثالوث: من الأب، والأم، والإبنة؛ كل فى واديه، وكل فى جزيرته المنعزلة، وكل يقضى حياته وفق مزاجه، وما يجول بخاطره ويصدف هواه. ولا يلتقون إلا فى المناسبات النادرة، وأعياد الميلاد .

مجتمع غريب يثير العجب والدهشة، لم يألفه "عبد الحميد"، ولم يأنس إليه إذ لا يتفق ونشأته، وما تربى عليه من العرف والقيم، وما اتخذه من آداب السلوك. ويواصل حديثه لنفسه:

- ."وتمضى الأيام مضىّ سلحفاة عجوز، وأنا تائه فى دوامة خواطرى، والضباب يحلق فى أفق خيالى و.. كنت أجدنى فى غير موضعى، ولكم صدقت ما يمجّه

عقلى، وما لا يوافق ميْلى وشخصى، ولا يلقى هوًى فى نفسى و.. ولا أجد صداه فى قلبى و.. ولم يُخرجنى عن طورى تلك الأمور؛ التى لستُ آلفُها، وليس لى عهد بمثلها. وما لقيت نَصَبًا فى الإعراض عنها والانصراف إلى مشاغلى ودرسى."

أسباب ثلاثة، كانت بمثابة السياج لبطل روايتنا، عَصَمَته من الزلل، وأمَّنته من العثرات، وحالت دون انجرافه إلى حياة يأباها؛ وحسبه أن يصيب منها قدر حاجته، وما تُمليه عليه الضرورة. كان "عبد الحميد" كمن لا يعرف العوم، ويكتفى برؤية البحر وتلاطم أمواجه، كابحا هوى الاستطلاع فى داخله، ومتجشما عناء الخوض؛ نائيا بنفسه عن الهلاك الذى لا محيص عنه.

على رأس هذه الأسباب: تربيته فى أحضان الريف الأصيل، وتشبّعه بأجوائه الخالصة، ثم غربته؛ فالهدف الأسمى الذى يسعى من أجله، وكأنما تنطبق عليه قولة "ديوجنيس": "يكون الأسدُ حبيسا فى قفصه، ولكن الحبْس لن يجعله عبدا لمن يُطعمه."

كانت "غادة" على عهدنا بها من الكياسة والحصافة، فلم تشأ أن تُبدى حماقة، أو تُقدم على مغامرة يعقبها الخسارة، والندم، والأسى؛ فهى تعرف أن الرجال من صنف "عبد الحميد"، لا يَحيدون شبرا عن مبادئهم، ولا يتراجعون فترا عن مواقفهم، شأنهم شأن القطار الذى ينطلق بسرعته فوق القضبان !. وإن كانت استدرجته بذكاء بعض مرة على سبيل المحاولة وجسّ النّبض؛ إذ دعته للنادى مرّة بعد أخرى، ورفض على استحياء، كما دعته إلى حفل أو.. ولم يُبد ترحيبا. ولم تتبرم "غادة" فى المقابل، ولم يكن رد فعلها سلبيا؛ بل إنها أبدت تأييدا واقتناعا؛ فهذه الخصال تؤكد اختلافه الذى فتنت به. والأهم لديها؛ بلوغ الغاية أيّا كانت الوسيلة !.

باتت الامتحانات وشيكة، والوقت عند "عبد الحميد" كالسيف البتار؛ الذى لا يتوانى عن جزّ أعناق؛ الذين يُضيّعون الوقت من أولئك الديدان

الأرضية ذوى التنبلة والخمول والإهمال !. وهو أيضا بمثابة أيام الأجل التى لا تتوقف عن العدْو.. ونعرفه شديد الصرامة حيال نفسه: فلا يسمح بأن تمضى لحظة من عمره هباءا، فهو شديد الانتباه والتركيز وقت الدرس، ولم تنقطع صلته بالأساتذة يوما، ويواظب على المختبر، ودائم التردد على المكتبة: "كنز الفقراء". وفى "الفيلا" كانت تمضى المذاكرة حثيثا وعلى أشدها.

كان "عبد الحميد" دائب النشاط؛ كالنحلة التى تقطع المسافات لتلثم لزهر، وتمتص الرحيق !. وكانت "غادة" صنوه، وفى معيّته؛ هنا، وهناك. و"على عينك يا تاجر"، وكنّ توقفن من أرَدْن منافستها: إذ أنها اكتسحتهن وفازت بالسباق. وخارت قواهن، وخمدت عزائمهن، وآثرن السلامة، ورضين بالاستسلام فمن ذا الذى تسوّل إليه نفسه: أن ينتزع منها فتاها؛ التى تعبت فى نيْله ؟!. وقد قبضت عليه، وسلم إليها قياده وزمام أمره.

أما الحاسدون وما أدراك ما هم؛ فليموتوا بغيظهم، ولينطحوا الصخر، ولتأكل نار الحسرة قلوبهم وتحرق أجسادهم، ومهما بلغ الغل فى أنفسهم؛ فلن يغيروا شكل الحياة، ولن يوقفوا المسيرة، وبرغمهم تنطلق عجلة الزمن ولا تدور إلى الوراء.

وتبدأ الامتحانات، ويؤديها "عبد الحميد" مادة بعد أخرى، وكعادته: يراجع الإجابات مع "غادة"، التى يعتبر نفسه مسئولا عنها، وكذا يطمئن على الزملاء.

قالوا وما أحكم ما قالوا: "يوم الامتحان يُكرم المرء أو يُهان"؛ فما أصعبه على الخاملين، الذين يمشون على رءوسهم، وقد أسرفوا على أنفسهم، واتخذوا سبيل اللهو، وضيعوا ساعات العمر، وهم يحلمون بالحياة ؛ بدلا من أن يحيوْها. أولئك الذين حكموا على أنفسهم بالذل والمهانة، قبل أن يحكم عليهم الزمان.

ومع عُسرة الامتحان ومرارته؛ فما أمتعه واستساغه للمجدّين عراض الآمال؛ الذين يعانقهم الشوق والطموح إلى العُلا، ولا يرضوْن لأنفسهم

الضَيْم، والهوان. وعيْش البؤس: فغاية البؤس أن تكون بائسا وراضيا. ولا غرو؛ فإن العمل عبادة، والكبَد صميم الحياة. والأصل الذى خُلق فيه الإنسان، ومبدأ خلافته الأرض وسيادته لها، والأمانة التى تحمل تبعتها و.. وباطل ما خلا ذلك من: "الإهمال، والفوضى، والعبث."

انقضت أيام الامتحان، وتأهب "عبد الحميد" للسفر. لكم تاق نفسا إلى قريته ولكم ذاب شوقا إلى أهله وذويه و.. أبويه فى المقدمة، وأمه على الأخصّ. إن محيّاها لا يفارق خياله، وصوتها العذب يتردد فى حناياه، وحضنها الدافئ. ولمسات أصابعها. ووصاياها و.. غدا يسافر. مأ أثقل الساعات !. وما أبطأ زحف الزمن !. و.. لم يطأ الكرى جفونه. الشوق أيضا يُذهب النوم !.

ما أصعب فراق الأحبة !. الشيخ "رضا" يتحاشى النظر إليه، والكلام. وصوته مخنوق !. وأمه الثانية تلاحقه عيناها الحائرتان الدامعتان، وتتبعه نظراتها التى تنطق بالذهول. معقول.!

أربعون سنة. عدّتها شهرا بعد شهر. وعدّت الشهر يوما بعد يوم، واليوم ساعة بعد ساعة و.. طال الصبر والعدّ، واختلط الحساب، وحط طائر اليأس الأسود فى القلب؛ فأزاح الأمل، وبدد الحلم. وكان للقدر كلمته، ولله فى خلقه شئون، والحقيقة أن الصبر يعقبه الفرج، واليسر يخلف العسر. تغيّر الحال؛ إذ أقبلت نسمة ردّت الروح إلى الجسد الميت؛ لتندفق فيه الحياة؛ فما يلبث أن ينطلق من مقبرة اليأس الحالكة؛ ليعانق الوجود. يا الله.!

وعاد طائر الأمل الأبيض يحلق فى الآفاق؛ ليبعث السرور والانشراح، وينضر المحيا، وتتألق البسمات على الشفاه !. غدا يرحل عصفورها. لو بيدها لحالت دون رحيله، أو لرحلت معه، ولالتصقت به أينما غدا وراح؛ فأنّى للمرء أن يرقب روحه تنفلت عنه ولا يحرك ساكنا ؟!. لن تدعه يرحل. ستضمّه إلى صدرها، وتعانقه للأبد و.. ولكن !. أواه !. ما لهذا الأسى، وما

لأيام الفرح تهيم على غير هدى وتهرول على غير ذى عهد وكأن اليوم سـ عة أو بعض ساعة !. عشرة أشهر مرت مرّ السحاب. بدت يوما أو بعض يوم !.

وها هو ذا "عبد الحميد" تتنازعه رغبة البقاء، ويشدّه الحنين إلى البلد، والأهل، والصحب !. لكم عشق الحىّ القديم، والمآذن السامقة، والبيوت العريقة، وقاهرة المُعزّ !. والنيل، والزحام، والحافلات، والشوارع، و ضواء المدينة، وأذان الفجر و.. وعبير القِدَم، والجامعة، ومعهد العلم العتيق !. ولكم أحب أناس الحى الأتقياء الأنقياء، ذوى الأصالة، والملامح الخـلصة، والسَّحنات الطيبة و.. ثم نام.

حرصت "غادة" أن تصحو مبكرا، وما لبثت أن انطلقت بسيارتها لى حىّ "الحسين". وكان "عبد الحميد" قد أعدّ حقيبته بعد أن تناول الإفطار مع الشيخين، وحاول جاهدا أن يخفف من لوعة العجوز. وطمأنتها بأنه لن يغيب طويلا، وسيعود بعد ظهور النتيجة لمواصلة الدراسة. ومع ذلك لم تتوقف عن النحيب. وعندما سمع نفير السيارة: سألهما الرحيل لتضمه الأم بينما يعلو نشيجها، ويلهج لسانها بالدعاء.

ركب "عبد الحميد" بجانب "غادة"، والتأثر بادٍ فى محيّاه، وفى عينيه بقايا دموع. وراحت "غادة" تسرّى عنه، وتخفف عنه مصابه. بلغا المحطة قبيل الموعد. لم تجد "غادة" فرصة لتبادله الحديث والوعود كما رسمت، فلم يكن لديها إلا أن تشهر سلاح الفتنة الماضى: فتسلط عليه لحظها، وتسدد إليه نظرة أودعت فيها كل السحر والهيام. قالت عيناها ما هو أبين وأبلغ من كل الكلام: بل أصابت سهامها قلبه فى الصميم: ليتململ "عبد الحميد"، وترتعش أهداب عينيه ويغضّ طرْفه على استحياء: حين تبدت فى عينها الثقة. ولاحت على ثغرها ابتسامة الظفر و.. لينزاح عن قلبها همّ دام شهورا.

كان الصفير هو الذى أفاق "عبد الحميد" من أثر النظرة التى داخته وأصابته بالدوار !. وكان إيذانا بالفراق: لينسلّ من أمام "غادة"، ويستقل

القطار الذى ما يلبث أن ينطلق. يجلس على مقعده بالدرجة الثالثة. وما زال مأخوذا بنظرة "غادة"، وواقعا تحت تأثيرها !. إنه لم يكن رأى لون عينيها الزرقاوين. كانت نظراته إليها مجرد نظرات عابرة. وكان يرى فيها أخته "زينب"، وإنها الوديعة التى أمّنه عليها والدها و.. إنه لم يجرّب الهوى . وإن سمع، أو قرأ عنه، أو شاهده على الشاشة بعض مرّة . ولم يطرق باب قلبه. لم يكن هناك ما يحول دونه، أو بالأحرى لم تكن هناك فرصة؛ إذ انصرف تماما إلى دراسته، والأمنية التى ملكت عليه فكره، ومشاعره، وكل كيانه. ولكن..

مرت أشهر الدراسة، لا يدرى كيف مرت، وكأنه يعيش أحداث حلم. عاش حياة مختلفة ومغايرة عن حياته الماضية؛ فقد سكن بيتا وحيًا غير داره وقريته، وعاشر قوما غير ذويه وأهله، وخالط رفاقا غير رفاقه. عالم آخر منفتحا؛ كثير الدروب، ومتعدد الأوجُه والأنماط؛ ليس كعالمه البسيط ذا الوجه الواحد، والدرب الوحيد. عالم "غادة" على الأخص، مختلف، وغريب عليه، توجس منه خيفة فى بداية الأمر، وكاد أن يعطيَه ظهره، ويولّى مدبرا، ولكن غلب عليه حب الاستطلاع، فخطا فى دروبه متوخيا الحيطة والحذر و.. اعتاده على مدى الأيام، وما برح أن أصبح الجزء الأهم فى حياته !. لم تكن سوى عشرة أشهر، ولكنها كانت بمثابة عمرا.

استُقبل "عبد الحميد" استقبالا رائعا. لم لا وهو أول من يدرس الطب فى القرية، وسيكون أول طبيب من أبنائها. جاءت الوفود من الأقارب، والجيران، والصحاب، ومن كل العائلات؛ ميمّمة دار الحاج "عمر"، وقد حرصت زوج العم؛ أن تكون على رأس الوافدين. تسبقها الزغاريد، وفى إثرها "وداد". الكل متشوق لرؤية "عبد الحميد" ، وكأنهم يرونه لأول مرة !. ودارت مُقلتا "وداد " تتأمل المشهد بينما تحدث نفسها :

- ."ياله من حفل !. فما بال يوم العُرس"!.

وحين رجعتا إلى الدار: انتهزت "وداد" فرصة انفرادها بأمها، وأفضت لها عما يساورها من مخاوف بشأن خطيبها، وعلى حدّ زعمها: قد تختطفه غيرها من بـات القرية، أو "تلهفه" إحدى بنات البندر: فيضيع منها فى غمضة عين، ويُضرب بكلام جدّها عرض الحائط وكأنك يا أبا زيد ما غزوت!. ضربت الأم صدرها:

- . أ خبلت يا ابنة المجنونة ؟!. والفاتحة التى قرأها الكبار ؟!.
- . كان زمان، والفاتحة مفتوحة كما يقولون ..
- . كيف ذلك ؟. أ هو كلام عيال ؟!.
- . الحرص واجب يا أم "وداد" قبل أن تقع الفأس فى الرأس ونقول: يا ليت الذى جرَى ما كان.
- . فأس ورأس ! و.. وما العمل ؟ .
- . نعلن الخطبة على الملأ، وتعرف البلد كلها أن الدكتور "عبد الحميد" خطب "وداد"، ونحط فى بطننا بطيخة صيفى .

فكرت الأم فيما قالته ابنتها. مع أنها لم تتجاوز الأربعة عشر إلا أنها تنظر لبعيد، وتزن الأمور بميزانها الصحيح، وتفكر بعقلية الكبار. هكذا ارتأت أمها؛ التى اقتنعت بكلامها بعد أن قلبته فى رأسها .

ما أن فُضّ الزائرون، وخلت دار الحاج "عمر" إلا من أهلها، قامت الأم من فورها، وأحضرت ورقة، وقصت منها عروسا !. ابتسم الزوج الذى يعرف ما تـنويه، حين تبادل "عبد الحميد" وأخته نظرة دهشة وترقب. وراحـت الأم تغرز الإبرة فى العروس؛ أو فى أعين الذين رأوْا ابنها الدكتور، ولم يُصلوا على النبى، عدّتهم جميعا كل باسمه، والعجيب أنها لم تعتق؛ حتى الصغار !. والأعجب أنها لم تنس أحدا !. وبعد أن خزقت الأعين، أضرمت النار فى العروس حتى احترقت عن آخرها، وبالطبع، لم تبال بتعالى الضحكات، ثم أخذت بعض الورق المحترق، ودعكته بين عينى ولدها !. مؤكدة أنها رُقية تقيه

شر عيون الحاسدين؛ فهكذا كانت تفعل أمها وحماتها وكل العجائز رحمة الله عليهن أجمعين.

انتظرت أم "وداد" عودة زوجها بفارغ الصبر. ألقى عليها نظرة خاطفة، وعندئذ توجّس فى نفسه الشر!. عموما لا مفر ولا مناص.

تنحنح، لعله يستعد للخطر القادم، أو ليُسلك حنجرته :!

- . خيرا .
- . ومن أين يأتى الخير، ويداك فى المياه الباردة ؟!.
- . يا ساتر!. ادخلِ فى الموضوع، وهات من الآخر .
- . "عبد الحميد ."
- . أخفضِ صوتك، الدنيا ليل. ما شأنه ؟.!
- . طبعا، ولا أنت دارى ..
- . أنت "ها تسمّعينى وتنقعينى" ؟!. قصّرِ ..
- . أ لا تعرف. عيون الحريم عليه، وبنات العائلة ليس لهن أول من آخر، وقد "تولّف" عليه واحدة من بنات البندرو ..
- . والمطلوب ؟ .
- . نكتب الكتاب فى هذه الإجازة .
- . نكتب ماذا ؟ .
- . الكتاب. أ ليسا مخطوبيْن ؟ .
- . ولو. قبل الهنا بأربع أو خمس سنين !. ماذا يقول أهل البلد ؟. أ جننت يا امرأة ؟!.
- . حاسب على كلامك. عقلى يزن بلدا، واسمع. أنا كوم و ..

وكان قد طاش صوابه فقاطعها؛ بينما يلوّح لها بسبابته:

- . أ تهددينى ؟. لن أُقدم على تصرّف أحمق؛ يُصغّرنى، وألام عليه، وأصبح معارة فى البلد. وإن كان ولا بُد. الباب يفوّت جمل ..
- . ماذا ؟!. أ تطردنى يا "شحاته" ؟!. نسيت أنا ابنة من ؟ ..!
- . "شحاتة" هكذا !. أ فقدت عقلك يا امرأة ؟. والحِجّة التى دفعت فيها دم قلبى ؟. أ نسيت أننى ..
- . العيْش معك لا يُطاق، ولن أمكث دقيقة واحدة، دار أبى أولى بى ..
- . ماذا ؟. فى هذه الساعة ؟!. وفى هذه السن يا ابنة الأصول ؟!.

لم تلتفت إلى تعليقه، وصوّبت إليه نظرة شزراء، ثم دخلت لترتدى جلباب لخروج؛ ليُعلق الرجل فى يأس :

- . صحيح. خُلقن من ضلع أعوج !.

قضى "شحاتة" ليلته مُبكتا نفسه ومُقرّعا إياها على تجاوزه حدود اللياقة حيال زوجته؛ فكان عليه أن يمسك لسانه. أو على الأقل يحول دون خروجها بأية وسيلة. لكم يخشى حماته تلك الحيزبون زالفة اللسان. وما أن ينشق الصباح؛ ليعجّل بالذهاب إلى حيث زوجته بدار أبيها. وذلك قبل أن تسكب الدموع؛ فتوغر صدر حماته بما فاه به فى حقها، خاصة وأن العجوز تورّم المواضيع، وتنفخ فى النار، وتعمل من الحبّة قبّة !. وقد حمد الله؛ أن العجوز لم تقف على ما حدث؛ إذ كانت فى نومتها التى تمناها أبدية !. ولكون الزوجة عنيدة، ورأسها أصلد من الصخر، ولا تتراجع البتة عما قررت، لذا كان على "شحاتة" أن يرضخ لطلبها، بعد أن يلحّ عليها، ويعتذر عما بدر منه، ويندم على فعله أشد الندم، ويَعِدَ بألا يعود إلى مثل هذا حتى آخر العمر. عندئذ يفترّ ثغرها عن ابتسامة النصر. وما أيسر أن تسوق لأمها أى حجة من بنات أفكارها النشطة وذهنها المتوهج !.

تردد "شحاتة" فى بداية الأمر، ولكنه سعى لزيارة أخيه على مضض. تحاورا معا فى أمور متفرقة، إلا أنه لم يفاتحه فيما سعى من أجله، لقد حاول، وفى كل مرة؛ كان يتصبّب عرقه، ويلعب لسانه فى فمه، دون أن ينبس بكلمة؛ سائلا نفسه وهو فى حيرة من أمره: "ماذا أقول له ؟."!

قالوا قديما: "اخطب لابنتك، ولا تخطب لابنك: قول مأثور، ليس فيه دَخَل ولا غُبار عليه، ولكننى لا أعرف أحدا عمل به، ولم أسمع، ولا أعرف أحدا سمع به، وبات مجرد قول، أو أنه قول مع استحالة التنفيذ . إلا أن تكون الخطبة فى تلك المقولة بمعنى الاختيار. همّ "شحاتة" أن ينطق. هكذا وشت عيناه، ولكن يحمرّ وجهه، ويُخفض رأسه. يا له من مأزق !. وسرعان ما يعجّل بمغادرة الدار: تاركا أخاه فى حالة من التعجب والريبة. وفى الدار يُبدى بذريعة لامرأته، واعدا إياها بإنجاز المهمة فى الوقت المناسب !.

وقد حاول "شحاتة" بالفعل، ولكنه عجز عن النطق، كأنما شُلّ لسانُه، أو كأنما ينتزع روحه انتزاعا !. وعندئذ قرر ألا يُقدم على ذلك، واضطر أن يكذب على زوجته؛ بأنه فاتح أخاه، الذى أبدى فرحة وترحيبا، مؤكدا أنها وصية والدهما رحمه الله. واتفقا أن يتم ذلك قبل تخرّج "عبد الحميد" بسنة أو سنتين؛ حتى لا ينشغل عن دراسته؛ خاصة وأن "وداد" ما زالت صغيرة، كما رجاه أخوه أن يتكتم الخبر. وسرعان مازفت الأم الخبر إلى ابنتها الذى نزل عليها بردا وسلاما !. وقد أغبط "شحاتة" نفسه، وارتاح فؤاده إزاء هذه الكذبة البيضاء .

مرّت بضعُ أسابيعَ. وجاء "دسوقى" غلام الحاج "طه خليفة" يطرق الباب فى لهفة. فما أن وضع سماعة الهاتف، لينطلق تاركا محل الكُسْب؛ مهما كان سوء العاقبة !. قاصدا دار الحاج "عمر". لكم التف جلبابه حول ساقيه، وانكفأ عدة مرات، ومع ذلك لم تدع الفرحة محياه !، ولم يطف بذهنه أن

يضع ذيل الجلباب بين أسنانه؛ فالخبر الذى يحمله إلى "الدكتور عبد الحميد" أنساه كل شئ !. والذى أصرّ أن يسرّه فى أذنه. يهرول "عبد الحميد" خلف الصبى. الحمد لله، لم يعد الحاج "طه"ببركة "عبد الحميد" على حدّ زعم الغلام، وعليه نجا من علقة ساخنة.!

يا لها من بُشرى سارة أثلجت صدره !. "غادة" هى المحدّثة !. معقول !. يا لها من زميلة تعرف معنى الوفاء !. زميلة ؟. لا، بل. وما أسعد ما زفته إليه من خبر !. لقد نجح بتفوق. وجاء ترتيبه الرابع على الدفعة. الرابع ! و.. ولم ليس الأول أو الثانى ؟. الرابع فى حد ذاته إنجازا و.. لم يكن يدرى أن الاجتهاد وحده لا يكفى. وأن هناك من هم خارج المنافسة من أبناء الأساتذة، وأقاربهم، ومحاسيبهم. مستحيل !. قد تكون المحسوبية فى الوظائف والترقى وما شابه ذلك. وهذا فى حد ذاته ظلم وافتراء، وفى مقدمة أسباب التخلف. ولكن أ تكون فى العلم أيضا، وفى محرابه المقدس ؟!. والتى يقوم عليها أساتذة هم الصفوة، والمفترض أن يكونوا منزهين عن الباطل ومترفعين عمّا يشين أو ينطوى على شبهة، وشيمتهم الحق والعدل و.. ولا يستثنون. حقا؛ فإن الاستثناء هو السبب المباشر للحقد، وتداعى الشعور بالانتماء، وما يتفشى من العبث، واندلاع الفوضى .

لم يكن "عبد الحميد" على دراية بمثل هذا، وكان على يقين؛ أن هناك ذمة، وطهارة، وضمير. ورغم الحيرة التى خامرته، والغموض الذى انتابه؛ فإن الرابع فى ظنه يُعدّ إنجازا. وكان لا بد له أن يعانق الغلام صاحب البشرى التى شرحت صدره، وغمرته بالسرور، ولم يكن يبغى الغلام أكثر من ذلك !.

وامتلأت الدار بوفود المهنئين، وتبارت النسوة فى إطلاق الزغاريد التى حلقت فى الأفق، ودارت أكواب الشراب. وبالطبع كانت زوج العم وابنتها فى مقدمة المباركين !. وبالليل أيضا، فعلت الأم ما فعلته بالأمس وخزقت بالإبرة؛ أعين الذين حضروا أجمعين !.

لم يطبق له جفن طيلة تلك الليلة، وكان أرقا من ذلك النوع اللذيذ: الذى ألمّ "بعبد الحميد" !. ولم يزل صوت "غادة" كشدو عندليب يوشوش أذنيه، ويسرى فى حناياه ووجدانه، ويدغدغ مشاعره، ويبعث فى قلبه النشوة. كم كانت سعيدة لتفوقه، ربما كانت أشد منه سعادة !. هكذا قال صوتها العذب الرقيق. لم تعد مجرد زميلة، أو صديقة. تذكر نظرة عينيها لحظة الوداع. لم تكن نظرة عابرة، بل رسالة مفعمة بالمعانى. إنه لا يعرف لغة العيون، ولكنه استطاع أن يقرأ الرسالة !. قرأها دون معلم، ولا ريب أن للقلب دور فاعل: إذ دق ساعتها دقات سريعة عميقة، يبدو أنها كانت رغما عنه؛ فلم يعُد بعد إلى سيرته الأولى .

كل شئ يشد "عبد الحميد" إلى العودة: حىّ الحسين التليد، وأناسيّه، وأبويه الروحيين، والمأذن السامقة، وجوّ الكلية، والليل الذى لا ينام !، والمدينة الصاخبة. وعالم "غادة": "الفيلا"، وأبويها اللذين لم يرهما إلا صدفة، والمكتبة الكنز و.. "غادة" نفسها. والآفاق الفسيحة، والتحرر، والانفتاح على الحياة. بلغ الحنين مداه !.

وفى الصباح ، أعدّ "عبد الحميد" حقيبته، وسلم على أهله، وانطلق إلى محطة المغادرة فى رفقة والده؛ الذى أبَى ألا يدعه وحده. كما ابتاع له تذكرة بالدرجة الثانية !. أقبل القطار. دبّ قلب الأب، بينما احتبست الدموع السخينة فى مآقيه، وما لبث أن عانق ولده، موصيا إياه بالالتفات لدروسه. وأن يبلغ السلام للشيخ "رضا" وزوجه. تحرك القطار، وشيّعه الأب بعينيه الدامعتين، ولسانه يلهج بدعاء أبناء الريف الشهير :

- ."ربنا يجعل لك فى كل خطوة سلامة، وفى كل طريق رفيق، ويُبعد عنك أولاد الحرام."

جلس "عبد الحميد" على مقعده الجلدى. أراح رأسه إلى المسند. لم تأخذه عفوة من النوم. ولم يحفل بأعمدة التليفونات المتسابقة، وإنما شرد بذهنه إلى ذكرياته فى المدينة الصاخبة: مواقفه، وأحداثه، وصوره. توالت الوجوه التى صادفته. أطل محيا "غادة" من عليائه: فبدا قمر بين النجوم !. ما أجمل عينيها !. إنه يذكر نظرة الوداع، لم تكن مجرد نظرة. ولكنها كانت تحمل رسالة وكلاما و.. ليته يعرف لغة العيون !. وصوتها: الذى وقع فى سمعه نغما يفيض عذوبة وسحرا. لقد زفت إليه أجمل بشرى، وكانت سعيدة بنجاحه الباهر بل كانت أشد منه سعادة. هكذا قال صوتها. يا لها من فتاة وفيّة يندر وجودها فى هذا الزمان.!

زعقت عجلات القطار إثر احتكاكها بالقضبان. أفاق "عبد الحميد" من شروده. تلفت من حوله. إنها محطة الوصول. اتسعت ابتسامته. لم يشعر بمرور الوقت. شكرا للذكريات التى أسهمت فى انتشاله من الملل !. اختطف حقيبته، وانطلق كالسهم. لم ينتظر الحافلة، وإنما استقل سيارة أجرة. لقد أنقذه أبوه بزيادة هذه المرة . لعله عربون النجاح. ترجّل قرابة البيت. أحاطه بعض أناس من أهل الحىّ. بالطبع تعرفون كم سعد العجوزين. والأم على الأخص. قضى ساعة، وما لبث أن استأذن للقيام بواجب إزاء صاحبة البشرى السعيدة .

وطار إلى حيث "غادة". يا لها من مفاجأة !. وسرعان ما أقيم حفلا بمناسبة نجاح الزميلين. أكدت "غادة" أنها أرجأته لحين عودته. كان حفلا رائعا حضره لفيف من الوجهاء والسراة !. عجبا لهؤلاء القوم. إنهم يفعلون كل مايطوف ببالهم، وما يجول بخاطرهم، ويرون كل شئ يسير وهيّن، وليس هناك ما يعوقهم أو يُعسر عليهم. ولا عجب فإنها إرادة الله .

دارت الأيام، ومضت الشهور. وانقضى العام الدراسى. والفتى الريفى كما عهدناه، صارما مع نفسه، ولا يحيد عن مبادئه، وكذا يعرف مصلحته، ويقدّر

قيمة الوقت؛ لا يسرف فيه، وينفقه بما يعود عليه بالنفع. حقيق إن "عبد الحميد" من القلة النادرة: شديدى الثقة والاعتزز بالنفس، ولا يرضون الهوان ولا يسمحون بالمذلة. ويبذلون أرواحهم من أجل الكرامة. وأولئك يؤثرون فى الآخرين، ولا يتأثرون بهم، ولا يأخذون إلا ما يساير مبادئهم، ويواكب طموحاتهم.

وهكذا كان حال "عبد الحميد"، فقد اعتاد معاشرة طبقة السراة. لم ينخرط فى حياتهم إلا بالقدر الذى يناسبه. إنه لم يتطفل عليهم، أو يتسلق إليهم، ودخل من الباب !. لم ينافقهم، أو يتقرب إليهم زلفى. الحقيقة أن "غادة" هى التى بدأت، إذ دعت نفسها لزيارته، وسألته رد الزيارة. وهم الذين وثقوا به، وعرضوا عليه الصداقة، واتخذوه . وليس غيره . أمينا على ابنتهم و.. وإنه أهلٌ لكل هذا وخليقٌ به. وطوال الأشهر الماضية، لم يأت بتصرف يَعيبه، ولا بسلوك يَشينه. وعلى كل حال : فإنهم لم يجاملوه. ويرجع الفضل فى حُسن تربيته لأهله دون سواهم.

أدّى "عبد الحميد" الامتحانات، ثم رجع إلى قريته راضيا، حامدا، شاكرا. وما لبث أن خلع زى "الأفندية"، وارتدى الجلباب، وسبق أباه إلى الغيط !. لم يترفّع عن الأخذ بيد أبيه فى زراعة الأرض وأعمال الفلاحة ويأبى الأب :

- ."خلى عنك يا دكتور"
- ."اليد البطالة نجسة يا أبه"

كان "عبد الحميد" عاشقا للأرض فى كل أعمالها من: حرث، وبذر، وريّ، وعزق، وتسميد و.. وكل ألوانها: سوداء، وخضراء، ومثمرة بشتى الألوان. لون القمح الذهبى، ولون الطماطم الأحمر، والقطن الأبيض، والذرة، والباذنجان. وكذا كل مراحلها، ومواسم الجنى والحصاد. وما أحب إليه تأمل الشمس فى شروقها وغروبها و.. تنسم عبير الصباح وروائح الزروع.

وذات صباح، حدث ما لم يكن فى حسبانه؛ فبينما كان يعد نفسه للذهاب إلى الغيط، أتاه "دسوقى". وكانت ملامحه لا تبشر بالخير. "أستر يا رب". لم يستفسره "عبد الحميد" وانطلق فى أعقابه. أمسك السماعة بيد مرتعشة :

- ."ألو. أبويا الشيخ رضا"!.
- ."إلحقنا يا عبد الحميد يا ابنى. أمك فاطمة طبّت ساكتة."
- ."لا حول ولا قوة إلا بالله"!.

"طبّت ساكتة". تعبير لا يحمل معنى آخر؛ إلا أنها ماتت بالسكتة القلبية، ولكنه مصطلح ريفىّ بمعنى: أغشِىَ عليها. يبدو أنها لم تطق بعاده. ألقى "عبد الحميد" السماعة ، وقفل راجعا إلى البيت. وما لبث أن ارتدى ملابسه؛ حين تعاونت أمه وأخته فى إعداد حقيبته، ثم أسرع ليلحق بالقطار. وكان مشغولا طول الوقت بالعجوز التى "طبّت" ساكتة، ومشفقا على الشيخ الذى أحيط به. ما زلنا فى بداية الرحلة !. تأبّى عليه النوم؛ فلم يطأ عينيه. أطل من النافذة. تنهد. ما بال القطار يمضى بطيئا متثاقلا؛ وكأن السائق فى نزهة ؟! تمنى لو طار ليُسعف المسكينة، ولكن ما باليد حيلة. استغفر الله العظيم !.

أيّا كانت الأمانى؛ فإن أمر الله نافذ، ولا رادّ لقضائه. والآجال بيده هو وحده، فليتذرع بالصبر، والصبر أولى فى كل الأحوال. ويبدو أن التفكر فى الله أنزل عليه السكينة. وأخيرا جاءت محطة الوصول. يا بركة الله !. اختطف "عبد الحميد" حقيبته، وترجّل، وشق له طريقا بين الزحام. لم ينتظر الحافلة، واستقل "تاكسى". ويبدو أن حلت بركة الحسين على الشيخين. وما أن يطرق الباب؛ لتفتح أمه "فاطمة" !. يا كرم الله !. ويا لها من مفاجأة سارة نزلت على قلبه بردا وسلاما. ويفاجأ بالشيخ الطيب، الذى يقول ببساطة بين ابتسامته:

- . تعرف يا "عبد الحيد" يا ابنى. فاقت على بصلة. كسرت بصلة، وشممتها؛ فأفاقت بقدرة قادر. و"بقت "أعفى من الحصان !. الشافى هو الله يا ولدى. . ونعم بالله يا مولانا .

ثم قالت الأم :

- . أهم حاجة رجوع "عبد الحميد.! "

وكأنها تريد أن تقول: عادت الروح بعودة "عبد الحميد"، والأهم : أن عاد البيت الصغير يرفل فى ثوب فضفاض من السعادة، ولم تفارق الفرحة محيا الأم، ولم تزايلها الحيوية، وكأنها فتاة فى ريعان الشباب !.

يقضى "عبد الحميد" ساعة، ثم يستأذنهما فى القيام بواجبه نحو زيارة "غادة ". وفى الطريق، يعرج على أول "تليفون" ويتصل بغلام الحاج "طه" ويطلب منه أن يطمئن الجميع على زوج الشيخ، وعلى الأخص أمه التى كانت أوصته بذلك .

لم تسعد "غادة" بمفاجأة "عبد الحميد" !، وإن بذلت جهدا كبيرا لكى تبدو عادية، وأن تصطنع الفرحة، وتتظاهر بالسعادة، ولكن هذا لم ينطل على ابن الريف الذى يحكم على معظم الأمور بسليقته الصافية، ومشاعره الخالصة. لم تكن بمثابة الصدمة للفتى، وإن استغرب مسلكها، ولكن برّره بأمور قد تكون خاصة، يصعب أن تبوح بها، أو تُفصح عنها، وليس هو بالشخص المتطفل الذى يسأل عن أمور تخصّ الآخرين؛ فهى ليست أخته، ولا قريبة له. إنها مجرد زميلة، وصديقة بمفهوم أهل البندر. وعلى كل، فمن الطبيعى إزاء هذا الموقف أن يكون متحفظا فى المقبل من الأيام، لو شاء الله أن تمتد تلك العلاقة. ودون تفكير، وجد نفسه يعقد مقارنة بين لقاءيه فى بيت متواضع بالحى الشعبى، وسراى بالحى الراقى. وتطل فى مخيلته. ما قرأه فى عينيها لحظة الوداع. يطرق سمعه صوتها فى الهاتف !.

بعد أن استقرت حالة الأم "فاطمة"، لم يكن فى وسع "عبد الحميد" أن يعود إلى قريته، إزاء إلحاحها وتشبثها به. وعلاوة على إرضائها، عدّها فرصة لانتظار النتيجة التى دنا موعد ظهورها. ويصعب وصف شعور الأم ، ومدى سعادتها.

وكان "عبد الحميد" يختلف إلى الكلية؛ حيث المكتبة التى لا يستغنى عنها. وكذا التردد على المعمل، والمشرحة. والتواصل مع أساتذته، والفائدة العلمية التى تعود عليه. ولا تمضى بضع أيام؛ لتظهر النتيجة، ويبرق اسمه بين الأوائل. وما يلبث أن يعود إلى البيت، ويزفّ البشرى إلى الشيخ، وزوجه. ولكن. وما أصعب ما يلى هذه الكلمة !. فما أن تسمع الأم الخبر لتشهق على أثره، ويتشبث بها "عبد الحميد" قبل أن "تطبّ" ساكتة !. يبدو أن قلبها الرقيق لم يحتمل الفرحة !. عجبا للأم "فاطمة" هذه !، وأى عجب لقلبها الذى أبدا لا يطيق الفراق. ولا يحتمل الفرحة !. حاول إسعافها. ولكن يبدو أن هذه المرة تختلف. لقد أفيقت بالفعل. ولكنها لم تفعل شيئا، إلا أن دارت حدقتاها فى الأفق، ثم التفتت إلى الشيخ وألقت إليه نظرة رضا. واستقر بصرها على "عبد الحميد"؛ الذى رأى أروع ابتسامة على أبهى محيّا و.. أسلمت الروح !.

لقد ختمت حياتها على نحو ما تبغى؛ إذ ماتت بين يدى ولدها؛ الذى عاد إليها بعد طول انتظار، وزوجها الوفىّ الذى عاشرها ردحا من الزمن، ولم تر منه إلا الفضل والخير؛ فلم يشأ أن يأتى إليها بضرّة تنكد عليها حياتها، رغم إلحاح الأهل من أجل الإنجاب، وكان بالنسبة لها: الزوج، والصديق والأخ، والأهل. ماتت الأم "فاطمة". وكم بكاها "عبد الحميد". يا لرهافة الحسّ لديها!. كانت تشعر بدنوّ الأجل. ولهذا ألحّت عليه وتشبثت به !. وا لهفه على

الأم "فاطمة" !. لم يُمهلها العمر لكى يرد إليها بعض الدين. ضنّ عليه القدر؛ إذ عجّل بالمنيّة و.. ولكنّ يوما فى رحابها يعدل عمرا.

وشيّعت جنازة الأم "فاطمة"، بل زُفّت إلى مثواها؛ إذ كان المشهد جليلا، وحاشدا من أهالى القرية، وشتى عائلاتها. وكان "عبد الحميد" يتلقى التعازى مع الشيخ، وذويها !. وقد أكبره الناس على وقفته التى حسبها "عبد الحميد" واجبا طبيعيا، لا يبلغ معشار ما عليه حيال العجوز الراحلة !.

بالله؛ ما أصعب الفراق على الأحبة !؛ فلم ينس الشيخ خليلة عمره وصنو حياته، ولم تزايل صورتها مخيلته فى يقظته ونومه، ولم تجف دموعه. وبات لا يستطيب طعاما، ولا يستسيغ شرابا. هدّه الحزن، ولحق به الهزال والوهن. وفقد إقباله على الحياة. فأىّ عيْش وأىّ مذاق لها بعد رحيل أغلى الناس ؟. وإزاء هذا؛ فقد آجمع ذووه، ورفيق صباه وشبابه الحاج "عمر" أن يتوقف الشيخ عن السفر، ويخلد بالقرية. وعندئذ تتبدى مشكلة "عبد الحميد"، فمن ذا الذى يقوم على شئونه وراحته، بعد أن فقد أباه الشيخ "رضا" . وأمه "فاطمة " ؟!.

" زينب" شقيقة "عبد الحميد". من الطبيعى أن تلتفت إليها الأعين؛ فليس غيرها من يوكل إليها المهمة، لاستكمال المسيرة بعد العجوز الراحلة. وإن شقت عليها. يا له من خبر يطير له لبّ الفتاة. كان حلما، وكانت كل أمنيتها أن تذهب إلى البندر مرة واحدة فى عمرها. ولكم كان بودّها لو يصحبها أبوها ذات مرة؛ لترى ما يُحكى عنه وكأنها الأساطير. وكم راودتها نفسها أن تسأله، ولكنها أحجمت خشية سوء العاقبة.!

وها هى السعادة تطرق بابها، وتشق الطريق صوب قلبها؛ فهم الذين يطلبونها. أبوها بنفسه، و "بعضمة" لسانه هو الذى بلغها الخبر السعيد. كان مترددا ومشفقا عليها لصغر سنها، ولجهلها بحياة أهل البندر، لكن ما باليد حيلة. ومع ذلك داخلتها الريبة، وكادت أن تستعيد ما هتف به غصبا وعلى

عينه، ولكنها لم تفعل لأمر فى نفسها !. لم تحتمل الفرحة. رفرف قلبها، وما لبثت أن طارت إلى صويحباتها كى تفشى إليهن أسباب سعادتها التى ثقلت عليها كم حسدْنها، وعلى الأخص "وداد" ابنة عمها؛ التى كانت ترى أنها أحقّ منها؛ لو أنهم أخذوا برأيها، وعقدوا قرانها على ابن عمها، وبالتالى، كان سيتم الزفاف تحت هذا الظرف. كل يغنى على ليلاه !. وبالطبع تُلقى التبعة على الزوج ويُرمَى بالتخاذل !، ولا يسلم من لسع لسان زوجته وتقريعها .

ومنذ ذلك الحين، والفتاة الصغيرة لا تهدأ عن الحركة، وتحلق هنا وهناك كالفراشة، وبدت محط الأنظار والاهتمام؛ فهى التى ستُعنَى بأمر أخيها، والمكلفة برعايته فى أهم مراحل حياته. وقضت "زينب" أيامها فى لهفة وتشوق، ونهبا للقلق؛ كأنما تنتظر يوم زفافها !. وذات ليلة يطلب منها "عبد الحميد" أن تعدّ للسفر؛ لتبيت ليلة مؤرقة، حالمة .

وفى الصباح يحوط الركب الأخوين المسافرين، وكل يوصى أحدهما بالآخر، و"زينب" تسير كالمسحورة، ولا تدرى بعينئ "وداد" ونظراتها الملتاعة التى ترمقها طوال الطريق !. ولم تفق "زينب" من غيبوبتها؛ إلا حين رأت بعينيها المدينة الصاخبة، وكل ما سمعت عنه من أبيها وشقيقها. الحقيقة فى الأعين: أجمل ألف مرة من الخيال، والحكاية، وصور الأحلام !. وعن حالها حدّث ولا حرج، ولكم يُعسر علينا وصف أحاسيسها ومدى نشوتها والفرحة التى غمرتها.

وكان على "عبد الحميد" أن يكرم ضيفه، ويحتفى بأخته؛ فيدعوها فى الليلة ذاتها إلى جولة بالحى العتيق، حيث الأضواء والزحام، والناس على مختلف الأشكال والأجناس. ولا غرو أن تنبهر "زينب"، وأن تسافر بخيالها إلى القرية، شتان، القرية مظلمة، وساكنة سكون المقابر، والأهالى وجوههم كالحة بفعل الشمس، والكدح، والعرق، البندر صخب، متألق، شديد

الحيوية، والجمال والجاذبية. وفى سحنات أناسه البهاء والنضارة. البندر كأنه الجنة !

وإمعانا فى الحفاوة، يعدّ "عبد الحميد" برنامج: "رحلة كل يوم" ؛ فيصحبها كل صباح فى جولة إلى أحد مقامات أل البيت، أويطوف بها فى الأحياء الشعبية القديمة، كانا يقضيان ساعات النهار، ويرجعان إذا ما جنّ الليل. ورغم ما كانت تناله "زينب" من التعب والنصب، لكنها لم تسأم، ولم تشكُ ألما، ولم يطغ ذلك على النشوة التى غشيتها، والمسرة التى غمرت قلبها. وكم تمنت من أعماقها لو أنها كانت من أهل البندر !.

استقر مقام "زينب" مع أخيها، ومضت الأيام كل يوم أوفر جمالا من سابقه، وشعرت بأنها حققت حلم عمرها، وأنها أوفر حظا من قريناتها. حين كانت "غادة" تقضى الإجازة مع أبويها فى عديد من المصايف خارج البلاد !. طوبى للفقراء؛ الذين تتشابه أيامهم، ويُنفقون عمرهم كدحا وبحثا عن القوت لا يتبرمون ولا يسخطون !. أما عن الأغنياء ذوى النعم، لا يلحق بهم الضجر، فلكل يوم؛ بل لكل ساعة طعما مختلفا ومذاقا شهيا. ويقضون عمرهم فى العبث، والترف، وبعثرة المال باليمين والشمال، وكأن يدا واحدة لا تكفى !. ولا يقنعون !. ولا عجب؛ فلله فى خلقه شئون !.

أقبل العام الدراسى الجديد، ولم تكن تدرى "غادة" ما يخبئه القدر. فقد التقت مع "عبد الحميد" صباح ذلك اليوم، وكان اللقاء ينطوى على تحفظ من جانبه، ومع يقين "غادة" أنه لم يكن تظاهرا، وإنها طبيعته كريفىّ، وإحدى سماته الشخصية، إلا أنه لم يُرض غرورها؛ على الأخص حيال زميلاتها !.

وكانت مفاجأتها حين سعت إلى المكتبة كالعادة ولم تجده. معقول !. إنها مرّته الأولى. فتشت عنه هنا، وهناك، وخارج الكلية. ما الذى يحدث ؟!. "قص ملح وداب. أم فصل بارد ؟!". ليست الأولى بالطبع. أما بشأن الثانية، فهى لم

تعهده من أولئك السخفاء التافهين الذين يهزأون بالغير. دبّ قلبُها. ترى أين ذهب ؟!. أو أصابته وعكة ؟. لم لا ؟. فلا ترى سببا غير هذا. كادت أن تيمم شطر مسكنه، ولكنها عدلت عن ذلك؛ فإنه يُعدّ خدشا لكرامتها. كما أنها لا تذكر الطريق إليه.!

جانب "غادة" الصواب، إذ كان السبب غريمة أخرى، أو بالأحرى غريمة من نوع آخر. إنها أخته. لقد انقلب الحال. انتقلت الأم "فاطمة" إلى العالم الآخر وودّع الشيخ المدينة، وتخلف فى مسقط رأسه، وأتت "زينب" لتحل محلهما. مفاجأة لم تطف بالخاطر ولم تكن على البال. وجاء فى كلام "عبد الحميد" أنه لن يدع أخته وحدها. أى أنه سيتوقف عن دخول "الفيلا"، وسينعكس ذلك بالسلب على ما دبرت.

حجر عثرة يعترض طريقها، وعائق يحول دون المُضىّ فى خطتها، وخطر يهدد تدبيرها لم تكن حسبت حسابه، وأنّى لها ذلك وهو فى طى المجهول ؟. هل تشم على ظهر يدها ؟!. كلّ كان بظهر الغيب. ماذا تصنع وقد جرت الأمور على غير ما تشتهى ؟. ما كان أيسر أن تكتسح غريماتها. ولكن الغريمة الجديدة تتمتع بحصانة طبيعية. ولذا تعدم الوسيلة لكى تصارعها، أو تزيحها من سكتها، أو تحيّدها على الأقل !. والأخطر من كل ذلك. أن عبد الحميد لا يرى ضرورة لإقامة علاقة بينهما، ولم يشأ أن يُبدى السبب.!

عكفت "غادة" تفكر علها تجد فرجة لأزمتها. طال بها الوقت. ولكن صداعا ألمّ برأسها. ولأول مرة يداخلها الشعور بالعجز وكأنما شلّ تفكيرها. ولم يكن لديها إلا أن ترضخ للواقع !. واكتفت بملازمته داخل الكلية، سواء بقاعة المحاضرات، أوالمعمل، أوالمشرحة، أوالمكتبة. وما غير ذلك. المهم أن يكون أمام العين، وتحت الرقابة !. ولكم كرهت "زينب"!.

رغم صغر سنها، ولكن بفضل رجاحة عقلها، أثبتت "زينب" وجودها، وأكدت ذاتها، وأبدت نجاحا منقطع النظير فى مهمتها. لقد ملأت البيت نشاطا وحيوية، وكانت بالنسبة لأخيها: الأم، والأخت، والصديقة .

وصباح يوم جمعة، يُطرق الباب !. يتبادل الأخَوَان نظرة مستريبة؛ فمن الطارق ؟!. إنهما غريبان ولا أحد يعرفهما، وكان "عبد الحميد" قد حذر أخته من الاختلاط. أشار بيده، ونهض ليفتح الباب، ويا لها من مفاجأة سعيدة! إنه أبوهما. ويا له من استقبال رائع !. عناق، وتهليل، وصياح. لقد أتى يحمل فى جعبته خبرا سارا لابنته على الأخص؛ إذ جاء من يطلب يدها. بُهتت الفتاة الصغيرة، واربدّ محياها، وانطفأ بريق عينيها، وعلتها سحابة حزن. يا فرحة ما تمّت !. شردت. لكم عشقت البندر، ولم تشبع منه بعد !.

لم يخف على "عبد الحميد" ما طرأ عليها، وقرأ ما لاح على صفحة وجهها وما دار بخلدها. العريس ابن خالتها. فلاح. يمتلك أبوه عدة أفدنة، ويعيشون من خير الأرض فى رغد: طويل، وعريض، وملء "هدومه"، وتتمناه ابنة العمدة و.. ولكنه من تلك القرية الهادئة الحالكة التى تخلد للنوم بعد العشاء وليس من البندر الصاخب المتألق؛ التى اعتادت عليه، وألفته، وشغفت به حبّا. يا الله !. إنها ما كادت تصدق، أ يأخذونها من الدار إلى النار. كما أنها ما زالت صغيرة على الزواج، والأدهى أن الاعتراض ليس من حقها، وأنّ أحدا لا يسألها رأيها وكأن الأمر لا يعنيها، وإلا تُعدّ مارقة وعار على أهلها، وتستحق الذبح !. ضحك الأب. يبدو أنه وقف على ما استشفه أخوها؛ فلا يدعها لوساوسها، وسرعان ما يخبرها بأنه شرط ألا تتم أية خطوة إلى ما بعد انتهاء السنة الدراسية. عندئذ انفرجت أسارير الفتاة، وغشيتها الفرحة، فكل ما كانت تخشاه أن يعود بها أبوها، منتزعا إياها من نهر السعادة الذى ترتشف منه ويفيض عليها. الأعور خير من الأعمى، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وما لا

يدرك كله لا يُترك كله. وما زال الوقت طويلا. تبادلوا نظرة، فابتسمة ثم ضجوا بالضحك ولم ينبس أحدهم بكلمة.!

ما أعجل أيام الفرحة !. وما أسرع عدْوها وكأنها الرهوان !. انتهى العام الدراسى، ورجع "عبد الحميد" مصطحبا أخته بعد أن أدت واجبها نحوه. كانت نعم الأخت. ونعم الصديق والأنيس. عادت "زينب" من المدينة الصاخبة، لتبدأ مراسم القران، ثم تقام ليلة عُرسها وتزف إلى ابن خالتها فى بيت "العَدَل". وباتت فترة مقامها بالبندر بمثابة ذكريات عزيزة لا تنسى. ولا تمحوها الأيام. تبتسم كل ما طافت بخيالها، ويطيب لها أن تحكى عنها.

سافر "عبد الحميد" وحـده. ودّعه والده عند محطة القطار، ثم قفل راجعا. وراح يتأمل واقعه الجديد. وبعين خياله يستقرئ طالعه فى غد الأيام. فقد خبر حياة البندر وعليه أن يعتمدعلى نفسه. ذهب النصف الحلو، وبقى النصف المجهول. المهم إحراز الهدف وإنجاز الوعد. جاءت محطة الوصول. سحب حقيبته. لم يكن أحدا فى انتظاره. تذكر أباه الشيخ "رضا" الذى لحق بالأم "فاطمة" توأمه. لم يحتمل العيش بعدها، ولم يطق حياة خلت منها !. وفاء حتى الموت !.

مشى هائما على وجهه، والأفق من حوله محفوف بالغمام. وقف بباب الشقة. جابه بعينيه. لم يطرقه. شرد. لعله تذكر الأم الراحلة. والأخت الغائبة. كاد أن يعود و.. فتحه فى فتور. لا أحد يخفّ لاستقباله و.. الوحشة تعمّ البيت كأنه مقبرة، ولا صوت إلا همس الصمت !. الشجون يفعد قلبه. ندت تنهيدة من أعماقه. راحت أيام العزوة، وعليه أن يعيش وحده، ويُعنَى بنفسه. دخل حجرته. كاد ن يخلع ملابسه، ولكنه تذكر "غادة". أو أن صورتها أطلت فى مخيلته !. فكر قليلا. وما لبث أن خرج من الحجرة، ومن المسكن. وعمد إلى حيث الحى الراقى.!

مفاجأة سارة لم تتوقعها "غادة"، وأنباء سعيدة ساقها "عبد الحميد". لقد اندحر حجر العثرة من أمامها، وتعبّد الطريق. تبددت الغمامة، وانزاحت الغُمّة، وصفا الأفق فى عينيها. لقد انتصرت دون عراك. ذهبت غريمتها إلى غير عودة. احتواها قفص الزوجية، ورجع الطير سيرته الأولى. ولكم غشيتها النشوة، لتضحك من الأعماق.

كان "عبد الحميد" يسافر عصر كل خميس إلى قريته حاملا ملابسه الذى استعملها طوال الأسبوع، ويقضى يوما بين أهله، وكان بالطبع يزور بيت عمه، ويعامل "وداد" معاملة الأخت، والتى حسبتها شغفا على حدّ فهمها، لتعاودها أحلام الغد، حين تُزفّ إليه، وتصبح زوجة "الدكتور". وعصر اليوم التالى يعود بملابسه النظيفة، وكذا ما لذ وطاب من الفطائر والشطائر.

وعلى مدى الأيام لا يحتمل "عبد الحميد" وحشة المسكن وكآبته، بعد أن فارقه أصحاب الأنس الذين ما برحوا يمثلون فى مخيلته، كما تختلط أصواتهم فى سمعه وكأنما يعيشون معه !. لكم يعزّ عليه تركه، وقد سطر فيه أجمل الذكريات و.. ولكن كيف يتسنى له أن يعاشر الأشباح ؟!. يكفيه حجرة بمنافعها.

وبعد عناء، وطول بحث: يوفق فى الحصول على حجرة فوق سطح أحد المنازل بالقرب من مسجد السيدة "زينب" !. لم يبتعد كثيرا: حىّ شعبىّ كذلك، و"زينب" أخت "الحسين". ولكم أعجب بسكناه الجديد حيث الهدوء والسكينة. وحيث المآذن المنتشرة من حوله، وعلى مرمى البصر. وفى تلك الليلة؛ لم تذق عيناه النوم، وظل ساهرا حتى لعلع أذان الفجر، الذى شق سمعه، وقطع عنه حبل الذكريات، وقام مطمئن البال، ليؤدّى الصلاة بالمسجد الكبير.

لم يصح "عبد الحميد" على شقشقة العصافير، أو صوت الباعة، وإنما على نغمات "كمان" !. ماذا ؟!. لا بد أنه يحلم. أطرق السمع. ظنها تأتى من

مذياع الجيران. ما أجمل الموسيقى، ونغمات "الكمان" على الأخص !. إنها تذكره بالناى. كلاهما يثير الشجون. استمر العزف. ليس مذياعا. معقول !. هتف غير مصدّق :

- ."كمان" فى الحىّ الشعبىّ ؟!.

دار ببصره. لمح نافذة !. إنه لم يرها البارحة. النافذة فى الناحية البحرية . فتحها . لفحته نسمة رطيبة، وعلت النغمات. شرد لحظة. أطلّ من النافذة. وقع بصره على عازفة "الكمان" بالشرفة المواجهة. دق قلبه. أسرع بترك النافذة، وكاد أن يُغلقَها. شرد. إنها لم تره و.. ولكنه رآها. الشعر أسود فاحم يلفّ وجهَ القمر !. لقد أخذ بحُسن طلعتها، وشئ غامض يشدّه ويغالبه؛ فليختلس .. كلا، بل ليُلق نظرة أخرى. يا الله !. إنه لم يصادف مثلها كأنها ملاك، أو طيف !. طالت النظرة برغمه؛ فلم يستطع أن يشيح بوجهه أو يغضّ طرْفه. إنها تميل برأسها إلى معزفها؛ كأنما تريحها على كتف حبيبها !. التكوين من "الكمان" والعازفة لوحة حيّة رائعة. ما أبدع خلق الله!. النغمات معبّرة تفيض عذوبة. تهز المشاعر. وتمس شغاف القلب. الخدر يسرى فى دمه، ولم ينج من رعدة سرت فى جسده. مؤكد أنها مرهفة الحس؛ إذ أحسّت بخفق قلبه و لفح أنفاسه !. فحانت منها التفاتة. التقت عيناهما. لم تنتفض على أثر المفاجأة، ولم تتبرم، بل أشرقت أساريرها، وشاب محياها مسحة رقيقة من الخجل، أكسبها حُسنا يجلّ عن الوصف. نكست عينيها، وأرخت أهدابها. لعمرى ما أجمل خفر العذارى. وما أسمى حياءهن !. وما أجلّ أن يرتدى المرء ثوب الخجل، ويتشح بوشاح الحياء !.

ودّع "عبد الحميد" النافذة، قبل أن تحترق وجنتا الفتاة من فرط الحرج و.. لم يغضّ النظر عن فعلته، أو يدعها تمرّ مرور الكرام. وراح يُلقى على نفسه بالملامة . فكيف له أن يتعدّى على الغير ويختلس ما ليس من حقه ؟!.

لقد ابتعد عن اللياقة، وتجرّد من الأدب. وإنه لسارق: وكل سارق دنئ. نعم و.. ولكنه كان مأخوذا مسروقا من نفسه، وقوة مجهولة تدفعه. لم يفعل ذلك عمْدًا، ولم يدبّر له و.. ولو أن العزف لم يطرق سمعه: لما اكتشف أن بالغرفة نافذة، ولما فتحها، ولما أبصر عازفة " الكمان ". إنه ليس مسئولا عن كل هذا؛ إذ تم عفويّا ودون إرادة. كانت مجرد نظرة عابرة. لم تكن مُغرضة، أو تشوبها شائبة. ولم تخدش حياء الفتاة، أو تتجهّم على أثرها، وإلا تأففت، وأرسلت نظرة شزراء، وتوقفت عن العزف، وصفقت الشرفة، أوانسحبت وتوارت دونه. إنه لم يسرق شيئا، ولم يقترف ذنبا. وإن بعض الظن إثم و.. وعلى كل حال، لم يغلق النافذة.!

لم يسكن قلب الفتى عن الخفقان، ولم تدع صورة العازفة مخيلته، وما زالت نغمات "الكمان" تنساب فى وجدانه. وراح يسأل نفسه عن الفتاة. ترى هل هى من أهل هذه الدار؟. أم أنها زائرة وما تلبث أن تعود من حيث أتت ؟. ولم يكن ما حدث إلا محض صدفة، ولن يراها ثانية. يا للحظ !، أ ولا تلد الصدفة واحدة أخرى ؟!. أم أن الصدف لا تلد، ولا تتكاثر ؟. وتظل هذه الصدفة وحيدة ويتيمة إلى الأبد !. ولكن الصدفة من فِعل القدر، بل إنها قدر ومكتوب، ولا ريب أن ترأف به الأقدار وتحنو بصدفة أخرى. وربما تكون العازفة من أهل هذه الدار. لم لا ؟. وقضى يوما بين التمنى، والرجاء، وحالة من التوتر وانعدام الوزن.!

كاد أن يطير لبّ الفتى من فرط الجذل، ولكم أغبط نفسه، إذ صحا على نغم "الكمان". يا الله !، فهى من أهل الدار كما تمنى. وعاد يتعجب من أمره. لم غمرته الفرحة على هذا النحو ؟، ولم كانت أمنيته ؟. فكر مليّا ولم يُحر جوابا ليس لشىء إلا لأنه لا يعرف الجواب. ضحك من أنفه. وهل للفرحة معنى إلا الفرحة فى حدّ ذاتها ؟.

امتدت يده تفتح النافذة، طالعه محيّا القمر. الثغر تتردد حوله بتسامة مرتعشة، وأكسبه الحياء حُسنا أغارت منه الشمس فغشيها الكسوف !. لم ترخ هدابها. العينان حوراء يُطِلُّ منهما الخوف، وفى نظرتها لغز، وحكاية مثيرة. وكلام. توترت النغمات بغتة، وظلل الوجه سحابة حزن. يا الله ، ما أروع الجمال حين يجلله الخوف والحزن !. وما كان يدرى أن فى الحزن جمالا عبقريا يأخذ اللب، ويذهب به إلى عالم سرمدىّ، ومصير مجهول.!

يا للأقدار!. جمالٌ خائفٌ وحزين !. أطرق "عبد الحميد" يفكر. أنَّى للجمال أن يخاف ويحزن ؟!. ولكن قالته عيناها، وأرجعه اللحن الذى يثير الشجن والدموع. واللحن يَصْدُرُ من القلب، والحسّ لا يُزيَّف، ولا يكذب، ولا يتجمل، ويصبّ فى القلب: من القلب إلى القلب. استشعره الفتى، وبان أثره فى عينيه، وعلى صفحة وجهه. تُرى ما وراء الخوف والحزن ؟. ومن ذلك الأبعد قاسى القلب الذى لم يترفق بهذه القبّرة الرقيقة صاحبة الفن، والجمال، والحياء ؟!. وبات مشغولا مهموما.

فاض قلب عازفة "الكمان" غبطة وسرورا !. لقد ساورها الخوف مثله، ألاّ يكون صاحب النافذة سوى ضيفا، أو زائرا يقضى ساعة، وما يلبث أن يشدّ الرحال مُدبِرا و.. وعاد يُشرف عليها بطلعته النبيلة؛ ليزول عنها الخوف والقلق. لكم ارتاحت إليه نفسا، واطمأنت إلى نظراته التى تبعث الدفء، ورفرفت على نفسها السكينة، ليندفق الدم فى عروقها، ولتتجدد رغبتها فى العيش. وكان الزمن قد ضيّع أمانيها، ووحش اليأس غرس فيها أنيابه وكاد أن يلتهمها. ولكن تبدد الغمام، وانقشعت الظلمة؛ إذ بزغ الأمل وتألق فى أفق حياتها، وبات يُحلق فوقها، ويرفرف من حولها. بدت الدنيا بثوبها الوردى. يفوح منه عبق الزهر، والطير تشدو بأحلى الأغاريد. إنه ملاك، بل إنسان.!

لم يشعر "عبد الحميد" بالغربة. فما أن ينتقل إلى الحارة ليلقاه أناسها لقاء الأهل، وسرعان ما يلتفون حوله، ويحوطونه بالرعاية، ويشملونه

بالعناية والعون فى كل شىء !. أحسّ وكأنه لم يدع أناس الحارة القديمة، ولم يبتعد عن أهل قريته !. ومن الطبيعى أن يردَّ المعروف بمثله، إن لم يزد عليه؛ فلا يبخل عليهم بخدماته: بتقديم الإسعافات الأولية، وبعض الاستشارات الطبية فى حدود ما أوتى من علم ومعرفة. وما عدا ذلك كان ينصح بعرضه على طبيب الوحدة الصحية، أو مستشفى "قصر العينى" ليكون تحت بصره وبين أيدى أساتذته. وكان يعدّ ذلك إسهاما متواضعا، وردّا لبعض فضلهم. وقد أعدّ صيدلية صغيرة، ضمّنها بعض الأدوية، ومِحْقنًا، ولفافات الشاش والقطن لتضميد الجروح، وما إلى ذلك. وكان يختلف إليه أهل الحارة، أو يستدعونه فى بعض الحالات فى وضح النهار أو فى غسق الليل على السواء. لم يسأم مرّة، وأبدا لم تزايل البشاشة محياه !. وقد حال ذلك دون سفره إلى قريته، مما دعا والده لأن يخفّ إليه كل فترة، مثقلا بما يعوزه، وما تعدّه أمه من الفطير وذوات الأجنحة. وكذا حاملا دعواتها وسلامات الأهل. ويقضى معه يوما أو أكثر، كما يعدّها فرصة لزيارة آل البيت الأكرمين.

شبّ "عبد الحميد" على اعتياد المساجد، وتعلق بها قلبه منذ صغره، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الشيخ "سيد حنفى" شيخ الكُتاب وإمام المسجد: الذى دأب على حثه وتشجيعه ؛ مبينا فضل الصلاة فى جماعة. وكذلك والده: الذى كان يصطحبه إلى المسجد كل صلاة. إنه لا ينسى فضل الشيخ "سيد" معلمه الأول، ويحرص على زيارته كلما رجع إلى القرية .

أدّى "عبد الحميد" صلاة الفجر بمسجد السيدة "زينب"، ورجع إلى الحارة مع أصدقاء الفجر كما يُطلق عليهم. كان يخالجه شعور بالنشوة، وتغمره السكينة. لم يدخل غرفته، وإنما راح يتنسّم عبير الفجر؛ بينما يقلب طرفه على قاهرة المعز، حيث أشباح الأبنية العتيقة المترامية على مدّ البصر، والمآذن الراسخة التى تصارع الزمن. وترفع الأذان على مدى الدهور والقرون. تذكر قريته الصغيرة، والنخيل العمالقة التى تحوطها كأنها الحرس الأشداء،

والمسجد الكبير. كان الفضاء مستغرقا فى الصمت، والليل يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأستار الظلام تنزاح واحدة بعد أخرى على وهن، وحبا الصبح الوردىّ على المهل، وهفّ النسيم عابقا بالشذا يداعب الصمت المهيب، وانبرى الطير هاتفا بأولى تغاريده أو تسابيحه و.. تسلل نغم "الكمان" عذبا رقراقا. يحمل فى ثناياه الأمل، والتفاؤل، والإقبال على الحياة !. ألقى السمع: بينما خفق قلبه، ورقصت على ثغره ابتسامة عذبة، وما لبث أن ولج غرفته، وفتح النافذة. تعانقت عيناهما. لم تسبل جفونها وإن تورّد خدّاها. قرأ فى عينيها نظرة حالمة؛ امتزج فيها الحب، والخوف.. واليأس.!

أحبّ "عبد الحميد" حىّ "السيدة" كما أحبّ حىّ "الحُسَيْنِ". وكذا أحب الحارة، وأناسها الطيبين، ومسكنه الغرفة، والنافذة على الأخص. تلك الفرجة التى تطل على الجنة حيث حوريته. وما أحَبَّ إليه، أن يُصبح ويُمسى على أجمل من رأى وأطرب ما سمع. وحسْبُهُ من الحياة أن يغفو ويصحو على طلعتها، وأن يناجيها، و يتوه فى لحظها، ويكتنفه شعورٌ بتوقف الزمن !. فليس يعنيه أن يذكر الماضى، ولا يشغله أن يفكر فى الغد، ولا فيما بعد، ولا يحسب حساب أى شىء. حتى ولا يدرى إن كان يحلم. وكذا لا تداعبه الأمانى. أو يطوف بخاطره الأمل. كأنه فى عالم آخر، أو كأنه روح بلا جسد .!

وها هى "غادة" يساورها القلق؛ إذ شعرت بتغير حال "عبد الحميد". وكان قد انزاح عنها الكدر، ومنّت نفسها بوَصْل ما كانا عليه؛ بعد أن صفا الجو، وخلت الساحة من "زينب"؛ إذ تراه شاردا على غير طبيعته، وكأنه ليس معها! وكثيرا ما كان يعتذر عن عدم اصطحابها إلى "الفيلا" ، مُبرّرا بضرورة تواجده فى مسكنه لحاجة أهل الحى. أولئك الذين لا يستغنون عنه ، وبالطبع لم يفصح عن سره الدفين وانشغاله بوجه القمر. واحتياجه هو أيضا لأن يكون قريبا من الشرفة التى تطل عليها.!

حُجة أثارت مارد الكبرياء فى نفسها، فكيف لهذا الجلف أن يفضّل أولئك الرعاع عليها ؟: فليموتوا، أو ليذهبوا إلى الجحيم !. وكيف سوّلت إليه نفسه، أن يتذرع بمثل هذه الحجة التافهة ؟. إنها تصدقه القول، وعلى يقين أن الكذب لا يعرف طريقا إلى لسانه، إلا أنه لا يساير تدبيرها، ولا يصبّ فى مصلحتها؛ فالطير لم يقع بعد، وما زال يحلق بعيدا عن الشبَاك. وتعلم فى الوقت نفسه، أنه صلبٌ شديدُ المِراس، ومن المُحال زحزحته عن قراره. مع أنه فلاح من بحرى، وليس "صعيديا" من قبلى !.

أزمة على وجه التأكيد تعترض طريق "غادة". ولكنها لم تفقدها التوازن، ولم تهتز على أثرها، فهى واثقة من نفسها لحد الغرور، وتستهين بكل شىء، وإنه بمقدورها أن تكتسح ما يعترضها، وليس من مُحال فى ظنها. ولم يطف بخاطرها : أن واحدة من بنات جنسها . مجرد عازفة من الطَّغام؛ استطاعت أن تنتزعه منها، دون أن تنزل حلبة الصراع، وإنها ملكت عليه قلبه، وعقله، وكل كيانه ومشاعره !.

ذاع صيتُ "عبد الحميد" فى الحارة، ومعظم الحى، وكان حديثهم: فعلاوة على دأبه فيما يقدمه إليهم من خدمات فى مجاله، على قدر علمه ووسعه: فقد رأوا فيه دماثة الخلق، وحسن المعشر، والشهامة، والسلوك القويم. وفى خضمّ ذلك، وحتى لا يكون على حساب دراسته؛ فقد نسّق بينهما، وخصص وقتا للأهالى. وبالطبع طارت أخباره إلى عازفة "الكمان" التى طارت به إعجابا، وتاهت به حبا وهياما. والحق، أنه كان شغفا طاهرا، منزّها عن الهوى. لم يكن لبغية تراودها، أو لأمنية تداعبها. وإنما أحيت فيه الحنان وصفاء النفس، وعشقت فيه الروح والإنسان.

كنّ بنات الحى ونسوتها، يختلفن مع العازفة، فكل تراه عريسا مناسبا لها، أو لابنتها. لم لا، وهنّ يرؤنه بسيطا متواضعا. لقد اتفقن دونما اتفاق، فكل تحلم به، وتتمناه لها وحدها !. وهن فى سباق، فكلٌ تدبر، وكل تفتعل

لمواقف، وتتحين الفرص، أو تختلقها؛ حين كان هو نفسه فى معزل عما يحاك بأمره وبمنأى عما يجرى بشأنه !. كان مشغولا بدراسته، وبما آله على نفسه حيال الناس، ذلك الذى يلتهم ساعات يومه. وحسبه من الصبح فيئات يطلّ على ملاكه؛ فيتبلغ بنظرة تغذى روحه، وبعض رشفة من ماء الحياة.!

لم يشأ أن يسأل "عبد الحميد" نفسه ذات مرة عن مصير هذه العلاقة. أو بالأحرى، لم يؤرقها بتساؤل لا يعرف له ردًا، وبأمر قدرىّ لا يدرى له سببا إن لغد فى ظهر الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله. إنه من أولئك الذين ينظرون بواقعية للأمور، ويعيشون فى حدود يومهم، والغد لديهم طريق يسعوْن لتعبيده نحو أمل مشرق، ورسالة يسيرون على نهجها ويحيون على هداها. ولا ينشغلون إلا بحاضرهم، وكذا خطاهم الحثيثة الواثقة إلى المنشود.

ودّع "عبد الحميد" قريته الصغيرة الوادعة؛ إلى حيث المدينة الكبيرة الصاخبة؛ ليعود إلى قريته حاملا إجازة الطب، بغية تحقيق رسالته فى الحياة، ووفاءا لدين فى عنقه حيال أهله. خرج من سكينة الريف وبساطته إلى ضجيج المدينة والتوائها. تجربة مهيبة ومثيرة كان عليه أن يخوضها، أو أنه انساق فى طريق القدر؛ فلكيّ قدره المكتوب. كان الأفق من حوله ضبابيا ويبعث على القلق و.. ولا مناص من المضى قدُما. اتكأ على الشيخين فى أول عهده، لم يحسب أن يرحلا عنه ويتركاه دون إنذار، أو كان ذلك بعيدا عن فكره، واعتمد على شقيقته إلى حين. ثم أصبح بلا سند ولا عماد. وكان مقدّرا أن يضيق صدره وينتقل إلى حى غير الحى، وأناس آخرين، وغرفة بلا ذكريات ولم يكن فى تصوره أن يصدف عالم "غادة" الفسيح المنفتح على مصاريعه، أو يمضى إلى محراب عازفة "الكمان". أو ينفسح الطريق، وتتفرّع منه أزقة ودروبا. لقد ترامت رؤية "عبد الحميد" وتراحبت، وبدا أكثر فهما وأشد إقبالا على الدنيا من ذى قبل. تعددت الرؤى، وذخرت فى القلب المعانى، وتجددت

المشاعر. وبدت الحياة أشد روعة وبهاءا !. وأن شيئا جليلا يُداخله، ويغلب عليه. وعاد يفتح أنفه؛ ليملأ صدره بأنسام الحياة .

واحدة من أولئك الوالهات الواهمات، كانت تترصده، بل إنها ترقبه من شرفة أخرى. تُصدر أصواتا، وتُبدى إيماءات. وكان صاحبنا فى عالمه وملكوته الآخر إذ كان يُلقى سمعه وحسّه إلى رسالة تبعثها أنغام "الكمان" تتخلل حواسه، ويقرأ سطورها فى عينى مالكة القلب والمشاعر. إنه لا يعرف اسمها !، وإن كان رسمها وشما محفورا على صفحة قلبه. لم يشغله ذلك، أو يطف بخياله؛ فكفاه أن يعرفها هى. وأن يسبح فى عينيها، ويغرق فى لجُّتها. إنها الوحيدة على ظهر الأرض التى خفق لها قلبه، ولم يهدأ عن الخفقان مذ وقع بصره عليها. كاد أن يُلقى نظرة إلى الغد من الأيام، وفيما بعد، ولكن طرحه عن ذهنه، وأقصاه عن فكره، وليعش فى لحظات الحس الوجدانى، والسمو الروحى .

طالت وقفة صاحبة العينين دون جدوى، فالغزال هائما شاردا عنها، ويبدو أنها وقفت على أمر اربدّ له محياها؛ فما لبثت أن تركت الشرفة، ليفاجأ صاحبنا بمن يقتحم المكان ويدوس المحراب؛ لتتوقف العازفة، وتتجمد المشاعر. وتمضى لحظات من الصمت الكئيب، والنظرات المستريبة. لقد اجتمع الملاك والشيطان فى لقطة واحدة. من هذه ؟!. يبدو أنها شقيقتها. معقول ؟! الملامح تنطق بهذا وتؤكده، تطابق وتَشابُه فى كل شىء لا تخطئه النظرة الأولى. عساهما توأمان .

لقد ضبطتها متلبسة. هكذا تقول عيناها ونظرتها الساخرة الواثقة. وماذا بعد ؟. مأزق حرج، بل ورطة وخطب مستطير!. ولكنه لم يقترف ذنبا، ولا هى؛ فأى خطب ؟!. أى ذنب للحس ونبض القلب، ونداء خفىّ يأتى من الأعماق؟!

أى يد للإنسان فى ذلك، وأى صوت يعلو على صوت القدر ؟!. اندفق زفير حار من صدره، وما لبث أن ودَع النافذة.

لم يكن بيد "غادة" إلا أن تستسلم، وتدع الأمور تسير فى أعنّتها، وكما قدّر لها. وبنظرة بعيدة وعميقة، رأت أن تأخذ فتاها على علاته. المهم كله أنه تحت بصرها، وألا يعرف غيرها. وإنها على ثقة أنه إذا لم يكن مشغولا بها فهو ليس مشغولا بأخرى، ولا يعنيه منهن شيئا. وكان لا بد أن تحكم عقلها، وتتريث، وتتروّى فى الأمور \؛ فلم تشأ أن تمضى فى تدبير الحيل؛ الذى يتنافى مع مكانتها، وثرائها، وجمالها، ويُعد سقوطا مزريا من الطبقة العالية التى تنتمى إليها. وكذا لا معنى لأن تتخذ سياسة الضغط، ولىّ الذراع، وإثارة الزوابع. فكلها تعدّ مركبات نقص، وتفاهات، وسلبيات، وخمول فكرىّ. وكذا بمثابة المعول الذى يحطم الصنم التى تعبت سنينا فى إقامته. وإنها على ثقة أيضا من تحقيق مأربها، وما تصبو إليه. ولكن فى الوقت المناسب.

صباح غريب، إذ صحا "عبد الحميد" من نومه متأخرا على غير العادة. أصاخ السمع. لا أنغام تطرق سمعه !. ارتجّ قلبه. فتح النافذة. ولا فِلقة القمر، والشرفة موصدة !. غامت عيناه، وأظلم الأفق رغم شمس النهار. سمع رغيا، وزعيقا، وصراخا. ليست هى بطبيعة الحال. وران الصمت. ثم عزف "الكمان" لحنا يفيض ألما، وينزف أسى، ويتشاكى فيه النغم. أخال عينيها تسحّ الدمع السخين. أحس بقلبه يذوى بين جنبيه، وثقل يجثم على صدره ويكاد يزهق روحه. ولى فرارا من الغرفة والمسكن.

وسار "عبد الحميد" على غير هدى، يجوب الشوارع، ويصطدم بالمارة، والذهن شارد، وفى القلب وُجد ولوعة، وفى الأعماق أنين مكبوت، والدموع تتأبّى عليه. ما بال العازفة المسكينة ؟!. ما حكايتها ؟، ولم كان الزعيق والصراخ ؟، ولم كل هذا الأسى الذى فاضت به أنغام "الكمان" ؟!. ما البلاء الذى يحدق بالملاك ؟، وما السر المودع فى القلب، وينبئ عنه اللحظ ؟. يا

لهذا الغموض !، ويا للأسى !. غامت الدنيا أياما واشتد سواد الليالى، فالشمس لا تطلع، والقمر لا يبزغ. لم تطبْ ساعات النهار، والفراش يفعمه الشوك. فماذا بعد أن توصدت فرجة الروح وشرفة الحياة ؟!. ما باليد حيلة؛ فماذا يفعل الأشلّ مهما كان البصر حديدا، والعزم أكيدا، والنفس تواقة إلى ركوب الصعب والهول ؟. وما أصعب أن يسكت "الكمان"!.

أياما وليالى. يتطلع إلى الشرفة الموصدة. لا يدرى إن كان هو السجين أم هى!. وذات ليلة، ويا لها من ليلة !. كان الوقت قبل الفجر بنحو ساعة، وكان "عبد الحميد" غارقا فى سباته بعد يوم مُضْنٍ كسابق الأيام. حين طرق الباب طرقات متتالية، صحا على أثرها. أنصت قليلا عله الكابوس الذى لا يذره ولا يدعه. توالت الطرقات ملهوفة. فما لبث أن هبّ من فراشه، وفتح الباب على عجل. إنها هى !. نعم هى ذات النظرة الساخرة الواثقة. تتبدى على ثغرها ابتسامة شاحبة؛ لم تخبئ الثقة والعناد الذى يُطل من عينيها. خرج صوته غير مألوف. عرف أن أباها يتلوّى ألما جرّاء مغص شديد. هبّت ريحٌ باردة. وسرعان ما تناول السماعة، والمحقن، و"أمبولا"، وبعض الأقراص. ثم اختطف معطفا، وهرول خلفها. كانت رعشة فى أهدابة، ورعدة سرت فى قلبه، ورجفة أمسكت بأطرافه: لم تكن بفعل الريح !. يا لهذا القدر، ويا لفعاله التى تبعث على الذهول !. إن هذه التى تعدو أمامه هى سبب اللوعة التى أحاطته أياما، ووراء الشرفة الموصدة. وهى التى أسكتت "الكمان". ولا بد أنها هى التى كانت ترغى، وتزعق، وتصرخ. وهى القاسية التى آلمت العازفة، ولاريب أنها سبب عذابها والأسى الذى يتراءى فى عينيها؛ إن لم تكن مصدره ! غموض إثر غموض، ولغز يعقبه لغز أشد تعقيدا.

ولجت الباب الكبير. بعد لحظات يمتطى صهوة الحقيقة، وينكشف اللغز، وتنزاح غشاوة الغموض. سيُصبح وجها لوجه أمام ملاكه !. لقد تاق نفسا إلى

أن يدنو منها، أو يسمع صوتها. ولجت من الباب المفتوح. تبعها. كانت الأم فى الردهة. رغم الموقف. لم تخشع نظرة التحدى فى عينيها. جاب المكان بنظرة. لم ير العازفة !. أين هى ؟. لم يمض فى حديثه إلى نفسه؛ إذ رآهما تسبقاه إلى حيث يرقد الأب. وما أن وقع عليه بصره لهتف :

- . عم حامد !.

تبادلت الأم وابنتها ابتسامة؛ حين بشّ الرجل رغم معاناته. لم يكن أحدهما غريبا عن الآخر. إنهما يلتقيان بالمسجد، وخاصة فى صلاة الفجر، والجمعة. وكثيرا ما يتحاورا عقب الصلاة وهما فى طريق العودة. وبعد حوار قصير؛ قام "عبد الحميد" بدوره. مكث بعض الوقت. وراح يحدث نفسه :

- . "إنها لم تأت !. هل عمدت إلى ذلك ؟، أم عقل الحياء قدميها ؟!. أو. أو أنها نائمة"؟!.

طال الوقت، أو أنه شعور المنتظر !. ليس من اللائق أن يمكث وقتا آخر؛ فلا مبرر، وليس من معنى؛ خاصة وأن المريض زال عنه الكدر والألم، وعاد إليه صفوه. يجب أن يغادر فى التو واللحظة. وألحّت عليه الأم وابنتها، ولم يدعه الرجل الطيب إلا حين وعد بزيارته.

- . وعد الحرّ دينٌ عليه يا "دكتور عبد الحميد."

واستأذن "عبد الحميد". ولم يكن يدرى ما يخبئه القدر؛ فما أن يخرج من الحجرة؛ ليفاجأ بعازفة "الكمان" !. نعم هى بشحمها ولحمها، مفاجأة من العيار الثقيل؛ مدوّية، ومذهلة. مادت الأرض تحت قدميه، دارت رأسُه. كاد أن يسقط؛ لولا أن تحامل على نفسه. ترنح حتى باب الشقة. واتخذ طريقا ضبابيا نحو الخارج.

لم يذهب إلى المسكن، وإنما هام على وجهه تحت جنح الليل. لا يؤنسه سوى خفق خطاه، وبعض الأضواء الخافتة، المرتعشة. ولمّا يزل تحت وطأة

الذهول. لقد رأى الحقيقة رأى العين. رآها ماثلة ومجسدة !. العازفة قابعة على كرسى تحركه بكلتا يديها !. تزلزلت قدماه وتوقفت حدقتاه، حين كانت أختها تنقل بصرها بينهما، وتُطلّ من عينيها تلك النظرة الساخرة الواثقة. وابتسامة شامتة !. تبادلت وأمها نظرة ذات مغزى. انزاحت ستائر الغموض، وانحلّ اللغز، وتبدّت الحقيقة ناصعة البياض. رُويت الحكاية فى مشهد مسرحى؛ استغرق بعض دقيقة من الوقت. لم يعُد هناك سرٌّ يلوح فى العين، وتخبئه الأعماق .

- . "كم أنت قاسية ومريرة أيتها الحقيقة. كم أنت حاسمة قاطعة كحدّ السيف البتار. ليتك ظللت مقبورة فى السريرة، وليتنى مت قبل هذا"!.

رَبّاه !، لم هى دونا عن بنات جنسها ؟. ولم صادفته هو دون غيره ؟. ولم هى وحدها: التى هفت إليها نفسه، وخفق لها قلبه، وملكت وجدانه وروحه، وأمست كل شىء. كل شىء !. ماذا جنى الجمال ليلحق به الوُجد ويغشاه الأسى؟! وأى حكمة فى تشويه الجمال، أو أنه ابتلاء ؟. مجرد تساؤل لا يداخله سخط، ولن يأتى الرد وإن طال الأمد. رحماك إلهى وغفرانك!.

عجبا للنفس البشرية، وما أصعب أن تسبر أغوارها؛ إذ لا يهدأ المرء بحثا عن الحقيقة متجشما التعب والمشقة، وإذ به يحنق إذا تبدت له !. يغضب حين تخفى عليه، ويشتد غضبه حين تتجلى أمامه !. هكذا حال الناس، وحال "عبد الحميد" الذى يُرثى له؛ فهو فى حيرة؛ ليس يدرى: أ يرفق بنفسه، أم يرفق بالعازفة؟. إنها مرهفة الحسّ، وليس من ريب أن جَرح مشاعرها جُرحا: قد لا يندمل على مرّ الزمن. ولكن، يشفع له أنه لم يعمد ذلك، وأنه بوغت. ولم يكن الذهول الذى ارتسم على محياه سوى رد فعل .

مهما كان السبب؛ فما ذنبها ؟. ما الذى جنت لكى يتجاوز عليها هو أو غيره؟ أو يجرحوا مشاعرها ؟!. والبلاء الذى أحدق بها ليس إلا أنه ثمرة خطأ، أو إهمال. أو أنه ابتلاء لامتحان القلوب والنفوس .

إنها لم تخدعه، ولم تخدع نفسها، ولم تعده بشيء حتى بعينها لكى تخدعه. وكذا لم تَعِدْ نفسها أو تُمنّيها. كان حبا بلا وعود، وهوى يسمو على الغرض. ويعلو فوق الطموح. إنها لم تقرره. وإنما جاء مباغتا. وإن أسكن نفسها، وآمن روعها، ونزل على قلبها بردا وسلاما، وكان لها بمثابة عودة الروح.

لم تكن هناك فرصة تتحينها، لكى تكشف عن بليّتها وأسباب أسرها. بل إن ذلك لم يخامرها، أو يطف بخاطرها. فعن أى الفرص تبحث ؟، والوصل كان من أجل الوصل، ولا يراودها شَغله بها، ورد الفعل لديه. كانت كل أمانيها أن تكحل عينيها برؤياه.

وهى كمثله، ليست مسئولة بأى حال عن صدمته التى لا بد أنها زلزلت كيانه: إذ كانت بفعل القدر. وإن كانت ترفق به، فإن الذهول الذى ألمّ به، وما يخلفه من أوجاع؛ أمر يخصه هو. المهم كله، ألا يقضى عليها ويغلق النافذة، البقية الباقية، وشرفة الأمل التى تطل منها على الحياة.!

جاء الموقف الجلل فى مصلحة "ليلى" شقيقة العازفة، بل كان فوق لتصور، وأبعد من التوقع. لكم حاولت جذبه بأساليب تعدّها خرقاء. غافلت فيها أنوثتها وأتت بها على استحياء؛ إذ أنها لا تتواءم، وما أدعوه: "غرور لجمال وهالة الكبرياء التى تتوّجه". ومع ذلك عبثت بها الظنون، وضاعت لجهود سدى؛ إذ كان مشغول الفؤاد مع غيرها. وأيا كان هذا الغير، فهو مرفوض وإن كان أختها أو حتى أمها !. ولا غرو؛ إذ جُبِل الحب أنانيّا فى البشر. وأنّ فى دنيا الهوى، يتآلف نسيج المشاعر؛ فلا يقبل القسمة على إثنين !.

إنها لم تدبّر له سعيا أو دعوة، وإنما جاء تصريف القدر وفق ما تبغى وتهوى. وهى كأختها بريئة من صدمته. وإن كانت تطلبها !؛ فما يلبث أن يفيق من ذهوله والدُّوار الذى أصابه. ثم يصحح المسار، ويعدّل المسير ليجدها فى انتظاره !.

لكم أغبطت "ليلى" نفسها، إذ افتضح أمر أختها، وانكشف سترها، ووقف "عبد الحميد" على ما كانت تواريه. وبالتالى لن تستطيع أن تمضى فى خداعه. ولا بد أنه لفظها من حياته !. لقد تعبّد الطريق، ولم يعد هناك عائق يعوقها، أو حجر يُعثر خطاها. ولا يبقى إلا أن تهيأ لفارس الأحلام؛ فتنشر العطر، وتنثر الزهر. لقد وعد أباها بالعَوْد. ولا بد أن يأتى.!

لم يَعُد فى الأمر لغز أو غموض. بانت الحقيقة، ووقف "عبد الحميد" على البلاء الذى كان يحدق بالملاك، والسر الذى كان ينبئ به لحظها، ونبع الأسى الذى كانت تفيض به أنغام "الكمان". يا لمرارة الحقيقة ولسع الواقع !. بان ما كان بظهر الغيب. والمصير ما زال فى طىّ المجهول. فلم يحسب حسابه، أو يفكر فيه .

ترى هل قدّر له أن يمضى، أم كتب عليه الفرار ؟. أ يمضى إلى الحب، أم يفرّ إليه ؟. يا للسخريه !، وكأنه يفسر الماء بعد الجهد بالماء، فأنى للمرء أن يمضى أو يفر من الأقدار ؟!. وكيف ؟، ولم ؟ .

لا جرم أن يشتد وجيب قلب امرئ، وينفتح على مصاريعه لشائبة أو قعيدة!. ولكن: هل يرهن حياته بها ؟!. شتان بين هذا وذاك، فالحب ينبع من الروح ويسرى فى المشاعر، والحياة رهن الفكر والعقل والخِيَرة. تساؤلات عقيمة، أمطرت عليه كوابل من الحجارة. وليس من ردّ لديه ولا إجابة فأنى له الرد؟! وبم يجيب ؟!. ومع ذلك، فكلنا يمضى على الدرب الذى قدّر له، ويتخذ المسير نحو مصيره .

وهذا "عبد الحميد"؛ يُحاط به، إذ يصدع رأسه، وتنتابته الحيرة، وتساوره الوساوس، ويغشاه الضباب، ويفقد اتزانه. وبات انهياره وشيكا وعلى قيد خطوة. ولكن؛ يؤذنُ لصلاة الفجر، فتنزل عليه السكينة، ويفيق من وطأة الهزة. يا لرحمة الله !. لقد انتشلته الدعوة الأزلية من بين فكى محنته التى

كادت تودى به. التقط أنفاسه، وسرعان ما انزاح عنه السوء. وعاد ليلبّى النداء. وفى سجوده، فوّض كل أمره إلى الله. وما لبث أن أغذّ السير إلى حيث مخدعه. ثم نام .!

لم يأرق أو يتقلب على فراشه، وزيد بأن صحا على أنغام "الكمان". معقول! لعله يحلم !. كان يظن أنه سكت للأبد. أطرق منصتا بكل سمعه وحواسه. غشيه السحر، وانسابت الأنغام فى مشاعره تفيض عذوبة، وتبث فى نفسه السكون. واللحن وإن كان شجيا، إلا أن نغمة ورديه تنبعث من بين ثناياه. يبدو أن أزيح عن العازفة عبئا ثقيلا، وأذهِبَ عنها الهم والحزن. شعر كأن طيفا يمسّه بأنامله مسّا رقيقا، ويأخذه أخذا خفيفا. ليفتح النافذة. نعم فتحها، وأطل على محياها. نعم محياها الذى ودّعته سحابة الغم، وبدا ناضرا بهيجا. وقد زايل الغموض لحظها، وحلت فيهما نظرة خالصة تفيض وُجدا وهياما وسحرا.

ما لهذه العازفة ؟!. أى فتاة هذه ؟، بل أى ملاك ؟!. لقد ذبح مشاعرها حين ذهلت لها عيناه ليلة الأمس. كان قاسيا غليظ القلب برغمه، وكان يظن أنه قتلها دونما إرادته. وتضرع إلى الله سائلا غفرانه ذنبا لم تجنه يداه، أو أنه اقترفه جبرا وقهرا. وها هو يراها، وقد ازيّن رأسها بإكليل العزة، وأضاءت جبينها هالة النور. وعادت تتورّد وجنتاها بلون الحياء، وتتألق على ثغرها ابتسامة: تغار منها الشمس، ويخسف لها القمر !.

وكان على "عبد الحميد"، أن يعود مريضه كما وعد، وكماتوقعت "ليلى". هذه المرة، لم يكن مشدودا، ولا تساوره الرهبة. بل كان بقلبه لهفة مشوبة بالفرحة. ارتدى قميصا ورديا، ولم ينس حقيبة أدواته. طرق الباب. فتحت "ليلى"، وابتسامتها و ثقة كما عهدها، ولكن اختفت منها السخرية !. أيضا كانت الأم فى انتظاره مبسوطة الأسارير. وكذا العازفة القعيدة. المشاعر

متباينة: بين زائفة وصادقة. الأم و"ليلى" فى جانب، والعازفة فى الجانب الآخر. قادته "ليلى" إلى حيث أبيها. الذى بدا مُعافا، منشرح الصدر متهلل الأسارير. وقام ليضمه كما يضم ابنه، وبادله "عبد الحميد" الشعور نفسه. وبادر بالكشف عليه ليزيده اطمئنانا. ثم جلسا يتجاذبان الحديث. ويبدو أن الرجل كان يتحين مثل هذه الفرصة. عبّر عمّا يكنه نحو ضيفه من الحب والاحترام منذ وقع عليه بصره، وأنه يعتبره ابنا له، إذ لم يرزق من الولد غير ابنته "ليلى."

- ."ليلى ! و.. والعازفة ؟ ."!

يبدو أن أحيط بالرجل، ولم يعد يقوى على الاحتمال. كما أنه استراح للفتى، ولن يصدف أأمن منه، فراح يفرج عن نفسه، ويفرغ ما كبته من مشاعر وأحاسيس، وما خبّأه فى صدره من أسرار. لم يعلق صاحبنا، ولم يستوقف الرجل، وتركه يخرج كل ما حوته جعبته.

لم يُصدم "عبد الحميد"، ولم تكن مفاجأته أشد خطرا من وقوفه على الحقيقة، ومهما كانت مرارة الواقع: فحسبه أن يعرفه، ويقف على أسبابه. هذا كل ما يهمه بصفته واقعا، وينظر للأمور على علاتها، ويواجهها كما هى عليه، ولا يفتقد إلى الشجاعة للتصدى لها.

أولا وقبل كل شىء، عرف أن اسمها "ملك". اسم يعانق السّمت والخِلقة، ويوائم الفطرة والطبع، ويوافق هية الفن: منحة الله إليها. ملك ماضى يملك ، وهى التى ملكت عليه قلبه وروحه. وعرف أنها ابنة أخيه ألذى مات عنها وتركها إليه وديعة وأمانة، خاصة بعد أن تخلت عنها أمها، وتركتها لترضى بأن تكون الزوجة الثانية لآخر. لم يتقاعس الرجل عن أداء واجبه حيال ابنة أخيه القعيدة المسكينة: فليس لها يد فى موت أبيها، وغدر أمها، وابتلاء القدر الذى منيت به. رضيت الصغيرة، ولم تسخط إزاء كل هذه المحن، وكان

الإبداع عطاء الله لديها والاندماج فيه؛ بمثابة المنجد، وكان لها خير عِوض، وخير عون على المقاومة والنسيان، إذ كان يأخذها إلى عالم سرمدى، بعيدا عن جفاء المادة وتكاليف الحياة.

وعلى مدى السنين كان يواجه زوجته، منذ تحولت عن "ملك"، وانتُزعت من قلبها الرحمة، بعد سنتين أو ثلاث من ولادة "ليلى" !. ورغم تعلق الصغيرة بها، إلا أنها فرّقت بينهما، وباتت تقسو عليها دون سبب، وبالطبع لا يقف الرجل مكتوف اليدين، لتنشب سلسلة من الشجار، فلا يمضى يوما بلا أزمات، ولا تخلو ساعة من الزعيق والصراخ، ولم تكتف بذلك، ومضت تنفث فى نفس الصغيرة سموم الغل، لتشبّ على كراهيتها لابنة عمها، ولتنضم إلى أمها فى جبهة الصراع إزاء أباها وابنة أخيه، خاصة وأن الثانية تفوقها حُسنا فى الطبع والسمت، علاوة على ما تحظى به من اهتمام الآخرين؛ مهما كان ترفقا وإشفاقا.

وكان الأب المسكين يواجه كل ذلك، وهو بين أمرين كلاهما مرّ. فبالطبع لا ولن يطوف بباله أن يُفرّط لحظة فى ابنة أخيه ولو ضحّى بعمره، ولا ولن يضيّع ابنته. وإن رضى بجحيم أمها فهو فى حد ذاته تنازل آخر. كان يقاتل لرجل الهمام فى أكثر من جبهة، وكان كطود راسخ أشمّ، لا يكل ، ولا يتزعزع ولا يتراخى !. وكل على مرأى من العازفة القعيدة، وعلى عينها. وعلى طول أيام لصعب والعُسرة، تفرغ آلامها وأحزانها فنا وإبداعا. وكان ينحصر شعورها بالأمان فى نظرات عمها التى تُنبئ بالشهامة والصلابة، وفى ابتسامة التحدى لتى كانت تلوح فى عينيه، وفى ضمّة حنونة على صدره، أو الهمس ببعض لكلام فى خلسة بعيدا عن الأعين والأسماع. وكثيرا ما كانت تبكى من أجله، ولم يكن بيدها إلا أن تُشفق عليه، وتدعو الله أن يُعينه، وأن يمنحه الصبر على البلاء.

عرف "عبد الحميد" حكاية "ملك"، ووقف على حقيقة الأمور. إن الرجل وابنة أخيه فى موقف عسير. وراح يسأل نفسه عن دوره إن هو أوكل لنفسه دورا. أى تساؤل هذا ؟: بل أىّ هراء هذا الذى يدور بعقله ؟!. إن له دورا أكيدا، بل واجبا وفرضا. يجب ألا يقف موقف المتفرج، وأن يتدخل بكل عزم. ولكن كيف ؟، وما نوع التدخل ؟. عكف يفكر. لم يعثر على ردّ و. أضيفت إلى مهمات "عبد الحميد" ومشاغله: مهمة أخرى أشد وطأة، وأكثر إلحاحا، فبجانب درسه ومذاكرته: كبرى المهام، وكذا ما يقوم به من خدمات لأهالى الحى. بزغت هذه المهمة، بل فرضت نفسها عليه. لم يتبرم "عبد الحميد" أو يضق ذرعا، فهو ليس من أولئك الذين يهربون من مسئولياتهم، أو الذين يفرّون من المواجهة مهما بلغت صعوبتها. كل ما فى الأمر، أنه لا يعرف كيفية ونوع وقفته حيال مالكة قلبه. عازفة "الكمان."

العجيب، أن "عبد الحميد" لم يدر بخاطره، ما وراء حبه للعازفة، والخطوة التالية. كان منصرف الذهن عما يأتى بعد، ولا يَشغله. فكما أسلفنا؛ وإن كان لا يغفل الغد، ويحسب حسابه، إلا أنه يعيش رهن حاضره، وفى حدود يومه. وقد حصر اهتمامه فى مهمته الجديدة. وتمخض فكره عن ضرورة التردد على منزل العازفة، وألا يقطع حبل الوصل بينهم، خاصة وأنه يلقى الترحيب من الجميع، وخاصة رب البيت، وإن كان لكل رؤيته وطموحه، إلا أن "عبد الحميد" كانت رؤيته معروفة، ووجهته محددة. وكل طموحه: أن يكون قريبا من محبوبته، ويوطد علاقته بأهل المنزل، ليتسنى له التدخل فى الوقت المناسب.

وذات يوم، انتهز "عبد الحميد"، دعوة العم "حامد" له عقب صلاة العصر، فيقبل الدعوة، ويلازمه إلى البيت. فرح الجميع لتلك الزيارة. وقد ظنت "ليلى" أنه لم يطق بعادها، وأنه لم يجئ إلا من أجلها، ولا بد أنه جدّ فى البحث عن

ذريعة، أو ابتكار وسيلة، وأنه استدرج أباها فى دعوته واصطحابه، وقد أيّدتها الأم حين ألمحت لها بذلك، لتغبطها على ذكائها، ولتمنّى كلّ نفسها بدنوّ الأمل واقتراب البعيد. أمّا مشاعر الرجل وابنة أخيه، فلن نخوض فيها، أو حتى نشير إليها. وقد تعاملت الأم وابنتها مع الفتى على هذا الأساس، حين كان عُنصرى الجبهة الأخرى، فى منأى عن كل ما يجرى.

لم تعد "وداد" صغيرة، إذ طابت، واستوى عودُها، وطغت أسباب أنوثتها، لتحلو فى أعين الفتيان، وتسابق طلاب القرب ليَطرقوا باب أبيها وولّيها الحاج "شحاتة". آه !. جاءك الموت يا تارك الصلاة. وعذرائيل قد شمّر عن ساعدية. "فركة" كعب، ويتخرج "عبد الحميد". بقيت سنتان. ما بال الأيام التى تهرول وكأنها فى سباق. دعك يا "شحاتة" من هذه الطنطنة والعبارات البراقة. وانظر ماذا تفعل. لقد كذبت على زوجتك كذبة بيضاء، وعلى مدى الأيام اسودّ البياض، وثبت أن الكذب كله أسود. نعم، كل الكذب أسود. لقد وعد بعقد قران الخطيبين قبل تخرّج "عبد الحميد" بسنة أو سنتين. وانقضت السنون، وحلّ موعد الوفاء. ناهيك عن طارقينَ بابه من الأقربين، وغيرهم. مع أن لفتيات لا حصر لهن. أ خلت القرية إلا من ابنته ؟!. ماذا تنتظر يا أبا "وداد" ؟. هيا اذهب وفاتح أخاك. لقد وقع فى المحظور، وكتب عليه الحرج. وكل مافى الأمر أنه أرجئ بضع سنين. لقد ظن أن يعفيه أخوه من الحرج، ويُنقذ ماء وجهه، ويكون أول الطالبين ليد ابنته. وهذا هو الطبيعى والمتبع، وما تجرى عليه التقاليد منذ الأزل. لم يسمع مرة أنّ أحدا سعى ليخطب قريبا أو بعيدا لابنته، وإن قرأ الأجداد الفاتحة. الفاتحة مفتوحة كما يقولون، وإلا عقد أولئك الأجداد القران !.

"عبد الحميد" يدرس الطب. أى: سيغدو طبيبا. وابنته "وداد" لا تعرف الألف من كوز الذرة. كما أنه أمضى سنينا فى المدينة، وما أكثر فتياتها

وأجملهن !. قد يقترن بطبيبة من زميلاته أو محامية مثلا و.. وهذا ما يُقرّه العقل والمنطق. وقد يكون اتخذ خطوة فعلية، وخطب إحداهن ؟. لم لا ؟. هل فرض عليه كلام جدّه ؟. وأين كان "عبد الحميد" ساعة التوصية أو اتخاذ القرار ؟. كان يحبو، أو كان يلهو مع أقرانه !. وكيف يُفرض الزواج بناء على توصية من الجد أو غيره، ويُغفل صاحب الشأن ؟. أو أنهم يعتبرونه غير موجود !. أى عبث هذا ؟!. كاد أن يضحك ضحكة مريرة، أو أنه ضحك من أنفه تلفت من حوله. وما فائدة الكلام ؟. إنه مُجبرٌ لا بطل !. وليذهب إلى أخيه صاغرا، وقبل أن يصطدم بامرأته، ذات اللسان السليط، الذى يلسع أذنيه وكرامته. لا مفر و.. يتأهب "شحاتة :"

- . إلى أين يا حاج ؟ .

تنحنح "شحاتة" بينما أمال رأسه إلى الوراء، وعقد ما بين حاجبيه :

- . أ هذا سؤال ؟. إلى أخى "عمر" لكى. لكى نحدد موعد عقد القران .

- . صحيح !.

وما تلبث أن تهدر بطوفان من الزغاريد؛ زغرودة إثر أخرى، وكأنها لن تنتهى !. كمن ينتهز الفرصة، أو كمن يزيح كابوسا جثم على صدره. أو يُلقى عبئا ثقيلا عن كاهله !. ما لهذه المرأة ؟. أ كانت تحبس كل هذه الزغاريد؟!. المهم ألا يمكث برهة، وما لبث أن عجّل "شحاتة" بالخروج قبل أن يزدحم الدهليز بالنسوة. خاصة وأنه رأى بعضهن يتسابقن نحو داره. شعر بأنه تسرّع فى قوله. ولكن وقعت من فمه الكلمات. وماذا يقول وقد رأى فى عينيها نذير عاصفة لن تهدأ، ولا بد أن تخلف السوء والشر. لقد أوقع نفسه بيده !. لعن الله الكذب أبيضه وأسوده، وكل ألوانه وصنوفه. ماذا يفعل ؟. وماذا يقول لأخيه ؟. أيا كان الرد لديه؛ فلا مفرّ من لقائه، ومفاتحته فى الأمر وليكن ما يكون. لن تقبض روحه. كما يمكن تسوية الأمر مع أخيه. الحقيقة أن المشكلة

تتعلق بابن أخيه. لا لشيء. إلا أن الأمر يعنيه هو. وهو وحده صاحب الشأن والقرار. واهتدى "شحاتة" إلى عرض الأمر مجردا على أخيه، ليس لكونه والد "عبد الحميد"، ولكن بصفته عم "وداد" الكبير، وعميد العائلة، وصاحب الرأى والمشورة.

انشرح صدر "شحاتة"، فقد عفاه أخوه من الحرج، إذ فاتحه فيما سعى من أجله، خاصة وأنه يعلم ما يجرى بشأن الطامحين فى مصاهرة أخيه. ويرى ألا تخرج "وداد" من العائلة، وأن الوقت أزف، وحان الوفاء بوصية أبيهما رحمه الله. ولا بد أن يسافر لولده للتفاهم وإتمام الأمر. سلمتَ من كل شر يا حاج "عمر"، ولا فض فوك، وسلمتْ فراستك وشهامتك. هكذا تكون الأخوّة. وهكذا تكون الرجولة. لقد اعتبرها مشكلته هو. وعدّ "وداد" ابنته. وطار "شحاتة" إلى داره يزفّ الخبر إلى زوجته، لتتعالى وتتوالى زغاريد أم العروس وغيرها من القريبات، وذوات الزغاريد الشهيرة. ولك أن تتخيل حال "وداد" وفيْض السعادة، الذى نزل عليها حتى كاد أن يُغرِقَها !.

توالت زيارات "عبد الحميد"، ليَرْسَخَ فى يقين "ليلى" بما ذهبت إليه، أن دأبه على السعى والتقرّب؛ ليس إلا من أجلها، لتمضى فى التدبير مع أمها والتخطيط لاستدراج "عبد الحميد"، وتشجيعه لفتح الموضوع. وقد رأت الأم بأن تبدأ بمخاطبة الأب، فهو خير من يُنجز المهمة.

خلال تردد "عبد الحميد" إلى منزل صديقه الحاج "حامد"، لم يكن يرى العازفة إلا بمحض الصدفة، وحسبهما تلك اللحظات الخاطفة من خلال الشرفة!.

وا عجبى لأمر المحبين الذى تفغر له الأعين. ويبعث على الإثارة والعجب: يرتضون بشظف العيش. ويهنأون بكِسَرِ الخبز. ويتبلغون بالفتات ورائحة الطعام !.

لا يتمهل الحاج "عمر" ، وسرعان ما يحزم أمره، ويغادر القرية متخذا سبيله إلى حى السيدة "زينب". لكم فرح "عبد الحميد" الذى عانق والده، وكأنما يعانق أسرته وأهل قريته. ولم يحتمل الأب فيض السعادة، فلا يتوانى عن مفاتحة ابنه فيما أتى من أجله .

- . ماذا ؟!. "وداد" ابنة عمى ؟.!
- . وصية جدك .
- . وصية جدّى ؟ و.. ولكن .
- . لا تشغل بالك بشأن الامتحانات. سنعقد القران و ..
- . نعقد القران ؟!.
- . يوم الخميس القادم. والزفاف بعد الشهادة بإذن واحد أحد .

يا له من مأزق !. بل إنها ورطة تصل لحدّ الكارثة: فماذا يقول لأبيه؟ وما دخْل جدّه بموضوع ليس من شأنه هو، ولا يخصه فى شىء ؟!. لقد مات الرجل منذ زمن بعيد، ويبدو أن بركاته خالدة لا تفنى، ولا يلحق بها العدم. فهذا أبوه قد جاء لتنفيذ وصية الجد، أو بالأحرى: الدَيْن الذى حان وقت سداده والوفاء به. لم يسأله رأيه فالجد ارتأى كل شىء، ولا رادّ لما قاه به !

إنه لا يعرف عن "وداد" سوى أنها ابنة عمه. لم يطف بخاطره أن تكون عروسه، ولا حتى غيرها. ولا تطوف بباله فكرة الزواج !، فكيف يطالبونه بتنفيذ وصية جدّه ؟. وكيف لجدّه أن يحدد مصيره، أو يتخذ قرارا يتعلق بمستقبله ؟!. على عكس المثل: "يفعلونها الكبار ويقع فيها الصغار". منتهى الجهل، وكذا منتهى التخلف. الأهم: كيف يُفلت من هذه المحنة ؟. ماذا يقول لأبيه ؟. إنه ليس أبكما، ولا بد أن يقول شيئا. وأخيرا وقعت الكلمة من فمه: . مستحيل.

لم يفهم الأب مغزى هذه الكلمة. فما هو المستحيل الذى يقصد ؟. الموعد؟. أم ماذا يعنى ؟. ولم تطل حيرة الأب، ليجرى الكلام على لسان ابنه :

- . إلا "وداد" يا أبى .

- . ماذا ؟!.

كانت هذه العبارة بمثابة قذيفة، طاش لها صواب الأب، فجعل يتفرس فى ملامح ولده، وكأنه لا يعرفه !. ليطأطئ "عبد الحميد" رأسه و.. ران الصمت. واللحظات تزحف متثاقلة، وكأنها لا تمضى !. كان قاسيا على أبيه برغمه، ولكنها كانت قسوة من النوع الحميد، أو بمثابة نحر البهيمة قبل أن تَنفق. وأضاف؛ حتى لا يدع الأب نهبا لوساوس الشك:

- أبدا، ليس عصيانا. لو طلبت عينىَ روحى فداك. إننى أراها أختى لا تفرق عنها شيئا. وكيف يقترن الأخ بأخته ؟!. لا تظلمنى وإياها. كل ما أرجوه أن تضع نفسك مكانى. وتقدّر موقفى. وتأكد أنها لن تهنأ معى، وهناك من هو أجدر بها منّى، وإننى ..

خنقت العبراتُ صوتَ "عبد الحميد"؛ فسكت عن الكلام. والأب الذاهل يضرب كفّا بكف. ماذ يجرى؟. لقد عجّل بالسفر، وكان بودّه لو طار. ليزفّ إليه البُشرى، وكان على يقين أن تسرّ بها نفسه، ويرقص لها قلبه. ما كان يخال أن يربدّ وجهه، وتدرّ عيناه الدمع. ما الخطب ؟!. كأنها أضغاث أحلام مزعجة، أو كابوس مجنون يُطبق على صدره. يا للأقدار !. أ كلٌّ هذا كان خافيا فى ثنايا الغيب، ومخبأ فى طى المجهول ؟!.

- "ما أغلى دموعك يا ولدى !. ما رأيتها فى مأقيك صغيرا، أو تقطر من عينيك كحبات اللؤلؤ، وتنساب على خدّيك. وهأنذا أراها فى عينيك رجلا. ما أغلى دموع الرجال !. لكم ينشقّ قلبى فرقا وكمدا. ليتنى ما جئت، أو شلت رجلى، أو ليكف الأجداد عن دس أنوفهم فيما يتعلق بالمصائر والغد المجهول ."

وراح الأب التعيس يندب حظه، ويسترجع كلام ولده بحرارته، ونبرته الصادقة. إنه ينبع من القلب. وما لبث أن ضمه إلى صدره، وراحا فى عناق وبكاء :

- "عفوا أبى وجدّ ولدى. ما عصيتُك فى حياتك، ولكنى سأعصاك فى مماتك. معذرة فإن الأمر ليس بيدى. ولكنه بيد غيرى، حتى وإن كان الغير ولدى، فلستُ أمتلك غير إرادتى وحدى. كل نفس بما كسبت رهينة، وإننى المسئول وحدى عن صنعى وما كسبت يداى. ولستُ مسئولا عن غيرى. لن أغضب الله من أجل إرضائك، فلا تزر وازرة وزر أخرى كما قال إله الكون. ستفرّ منّى، ولن ترضى بحمل آثامى وأوزارى. لن تُعذبَ عنّى، أو تخفف نار السعير أن تشوىَ جلدى، وتُساقط لحمى. كدت أضيّع ولدى فماذا لو تلجّم لسانه واستسلم لأمرى؟ وعلى حساب من تكون سعادة أخى وزوجه وابنته. وسعادتنا المزيفة ؟!. من الضحية ؟، ومن يدفع تلك الفاتورة الباهظة ؟. ولمصلحة من ؟!. أى ظلم وافتراء هذا ؟!. ولو قدّر أن يكون ولدى على غير حاله: لتناسوا وصية الجد، ولانمحت من ذاكرتهم !. لن أكون وراء تعاسة ولدى. لن أضغط عليه، ولن أكرهه على غير ما يبغى و.. ولتذهب وصية أبى وجدّه و.. وليذهبوا جميعا إلى.".

لم ينبس الأب بكلمة، ولم يكن الإبن فى حاجة إلى الكلام، إذ أنبأته عينا أبيه، وما أبلغ لغة الأعين. قرأ أسطرا تذخر بالمعانى. يتألق من بينها معنى الرضا منتهى أمله ومبتغاه !. انبسطت أساريرهما. تبادلا ابتسامة ما أصفاها وأروعها !. ورافق "عبد الحميد" أباه إلى محطة القطار، تجاذبا معا أحاديثا من الماضى، ومن هنا وهناك، وقد عمد الأب ألا يتطرق إلى الزواج، وما شابه ذلك. وجاء القطار لتتوقف الأحاديث، ويفترقا.

كان من الطبيعى أن تنتصر أم "وداد"لرأيها، فى جولة الجدال الذى نشب بينها وبين زوجها. إنها دوما تنتصر عليه. حواء المنتصرة منذ عهد آدم، وحتى

يُنفَخ فى الصُّور: قلما ينتصر الزوج على زوجته، أو الرجل على المرأة على وجه العموم، وكأنما كتبت عليه !: فإن لم ينهزم طواعية واختيارا، فسينهزم رغما واضطرارا. والرجل العاقل يقع اختياره على الأولى. وهكذا ينذ الفتنة قبل اشتعال نارها، واشتداد أوارها، ويوفر على نفسه مغبّة سوء العاقبة الحتمىّ، والذى لا مفرّ منه ولا مناص .

انتصر رأى أم "وداد" كما قدمنا. وقد هبّت عاصفة الجدال حين أبلغها "شحاتة" بمبادرة أخيه بإحياء وصية المرحوم، وإعفائه من الحرج فى فتح الموضوع، والذى عدّه "شحاتة" جميلا وفضلا لن ينساه لأخيه، إذ رأت الزوجة إعلان الخبر، وبدء الاحتفال بالطبل وتغنى الفتيات من صويحبات "وداد" بأهازيج الفرح، والذى يستمر حتى ليلة "الحنّة". ثم ليلة الزفاف. تقليد متوارث فى القرية والريف عموما، وكان قد رأى "شحاتة" الإرجاء إلى حين عودة أخيه بعد أن يحدد مع ولده موعد عقد القران. ومع سداد رأى الرجل لكن: ما باليد حيلة، وكان لا بد أن يرضخ لامرأته باختياره فى الظاهر، وعلى عينه فى مكنونه وضميره.

ركب الحاج "عمر" القطار متخذا طريق العودة .

- ."ما بال القطار يمضى سراعا على غير العادة"!.

شعر بقصر المسافة، وهو نفسه الذى سئم امتدادها، وتثاقل القطار فى طريق الذهاب. المسألة نسبية، وترتهن بالأسباب والنتائج. نزل إلى الرصيف. كان الجو رماديا: إذ أقبل المساء. زحف بخطى مترددة. ماذا يقول لأخيه ؟!. لم يخطر بباله أن يرجع بخُفَّىْ حُنيْن. واصل سيره. دنا من دورهم. دبّ قلبه حين أتى إلى سمعه دقات الطبلة. وغناء الفتيات و.. وزغرودة تطلق كل حين و.. إنها تأتى من دار أخيه !. يا لها من ورطة !. استحثّ الخُطى. تلفت من حوله. باب الدار مفتوحا. انسلّ إلى الداخل.

فى دار "شحاتة"، توقف الطبْل، والغناء، والزغاريد. وهبّت العروس واقفة، وانطلقت كأنما تفرّ هربا !. والفتيات يتبادلن النظرات بأعين زائغة. وسرعان ما انقلب البهاءُ حزنا، والفرحُ غمّا. وعمّ الوجومُ الدار!. لم يسأل أحدهم الحاج "عمر". ومع ذلك فالخطاب واضح. والعنوان أن بعضهم رأى الحاج "عمر" يدخل داره، ولم يعرج على دار أخيه. الكل يعلم بخبر رحلته لمقابلة العريس. ويبدو أن جاء الرد على غير ما يبغى. لا أحد يختلف على هذا. ولكن، ما ذنب الأب حين يرفض الإبن ؟. وفى الوقت نفسه، كيف لا يُطيع الإبن أباه، ولا يُبالى بوصية جدّه ؟. وإذا اتفق على تأجيل أو ما شابه ذلك لأعلنها الرجل صريحة، ولما تحاشى مقابلة الأهالى. لقد رفض الإبن يقينا. تسرّب كل إلى داره، وهم بين ساخط، ومن له رأى مختلف يودِعُه فى نفسه، ولا يستطيع أن يجهر به، أو يُفصح عنه !.

لقد عاش "عبد الحميد" سنوات بالبندر، ولا بد أنه التقى بهذه، وهذه، وتلك. والكثير الكثير من الجميلات والفاتنات و.. وقد يكون أعجبته إحدى زميلاته، أوغيرها. لم لا ؟. إنه لا يعرف بوصية جده. ولو عرف، فإنها ليست مكتوبة فى اللوح المحفوظ، ولم يأثم أو يحاسبه الله إن تغاضى عنها. وبعد، ألم يأن للأجداد أن يكفوا عن وصاياهم الخرقاء، وللآباء أن يسدّوا عنها أسماعهم ؟. لكم بكت "وداد"، ولكم صبّت الأم جام ثورتها على الأب المسكين. ولو أنها لم تركب رأسها لما تفاقم الأمر، ولما وصل بهم الحال إلى هذه الدرجة من الأسى. لو تأتيه الجرأة فى هذه اللحظة لانهال عليها ضربا وركلا، حتى لو بلغ الأمر لطلاقها، والخلاص من حماقاتها التى تطالعهم بها كل حين !. لقد تسببت فى تلك الفضيحة التى حاقت بهم. إنه على يقين أنها "زنّت" فى أذن ابنتها، و"الزن" فى الأذن أمرّ من السحر. إنها ليست تنفيذا لوصية، أو تخريف كهذا، ولكن لأن ابن أخيه سيُصبح طبيبا. هذه هى الحقيقة، وإنه

متأكد من ذلك، ويُقسمُ عليه !. ماذا يصنع مع هذه المرأة الحمقاء ؟. وماذا يفعل من أجل ابنته التى تكاد أن تقتل نفسها ألما وكمدا ؟. ومن أجل نفسه، وقد التاع قلبه وأشرف على الاحتراق ؟.

وعاد "عبد الحميد" يسأل نفسه: هل كذب على أبيه ؟. أم لم يذكر له الحقيقة ؟. الرد بلا، بشأن الشق الأول. وبنعم فى الثانى. أى أنه صادق وكاذب فى الوقت نفسه. ولكن يشفع له، أن والده لم يسأله. وإن سأله: هل كان يعترف بالحقيقة ؟. لقد طرح على نفسه السؤال مرارا و.. ولكنه لم يُحر ردّا. لا لشىء، إلا لأنه لا يستطيع بالفعل. وليدع كل أمر لحينه، فإنه لا يدرى ما تخبئه الأقدار، وليعش لحظته، وفى حدود ساعته ويومه .

الأمر بيد الله وحده، وهو النصيب أولا وأخيرا. ومع ذلك دبّت الفُرقة بين الدارين، والتى أشعلتها أم "وداد". إذ ضاع تعب السنين وجاءت الأمور على عكس ما دبّرت. لقد انتظرت "عبد الحميد" سنين عديدة، ومن أجله رفضت خطاب ابنتها من كبرى عائلات القرية، والقرى المجاورة، وعدّت التراجع تآمرا من تدبير الأم، وغدرا من ناحية ابنها الذى لا بد أنه لاف على واحدة من بنات البندر "المقصعات". ومن ناحية "وداد". فقد صدق حدسها، ولم تشأ أن تحذو حذو أمها وترمى ابن عمها بالخيانة، إذ أنه لم يعدُها بشىء. كما أنها لم تذهب فيما ذهبت إليه أمها بشأن فتيات البندر .

وحيال ذلك، لم يقف الأهل موقف المتفرج. فلكم سعوا لرأب الصدع، ولمّ الشمل، وإعادة المياه إلى مجاريها، ولكن ذهبت جهودهم سدى. ويبدو أن جاء الأمر على هوى أم "عبد الحميد"، فطابت نفسا، وارتاحت بالا. فهى ترى أن "مريم" ابنة أخيها هى الأنسب والأخق بابنها الطبيب. فهى على حدّ زعمها تفوق "وداد" جمالا وحسَبا ومالا. وعلما أيضا، إذ أنها حاصلة على "الدبلوم" وإن أسرّته فى نفسها ولم تُفصح به، لكن لم يخف على الأب، الذى استشعره

وقرأه فى عينيها !. ولما نمى إلى علم "عبد الحميد" حزن حزنا شديدا. وما يلبث أن يرجع إلى قريته. ولكم بذل وسعى بمؤازرة الكبار. وإزاء تعنت المرأتين وعنادهما، لم يُفلحوا، وباءت جهودهم بالفشل. وحين قفل "عبد الحميد" عائدا، تنفست أمه الصعداء، وسرعان ما سعت إلى دار أخيها !.

نظم "عبد الحميد" وقته بين الكلية، والمذاكرة، وما يبذله لأهل الحى على قدره. وزيارة صديقه "حامد"، أو بالأحرى عازفة "الكمان". وقد خصّص ليلة الجمعة؛ فيصطحبه الرجل عقب صلاة العشاء. ويشعر "عبد الحميد" كأنه ذاهب إلى الجنة. ويقضى حوالى الساعة. تمضى كلحظات !. وكانت "ليلى" تنفق الساعات أمام المرآة، تغالى فى زينتها، وترتدى من الثياب ما يُبهر، ويُظهر مفاتنها. ولا تستحيى أن تتحاور وأمها بشأن "عبد الحميد"، على مرأى "ملك" ومسمعها، دون أن يحفلا بمشاعرها وكأنها تمثالا، أو قطعة من الأثاث!. والموسيقية القعيدة، ترقب ما يجرى وتسمع ما يقال، وما تلبث أن تنأى بدرّاجتها خشية أن تضبط فتُتهم بالتجسس، ولا تسلم من الإهانة والتوبيخ طوال اليوم. وكذا ليس من حقها حتى أن تغار لأنوثتها، وكأنها بلا أحاسيس، أو كأنها نصف إنسان !.

البُعد عنهما غنيمة، اتقاءا لشرّهما، وفى الوقت نفسه؛ لتدرأ عن أبيها الغم والأسى من أجلها. وعلى كل، تهون مرارة العيْش وعُسرة الحياة؛ لتنعم فى المقابل بقرب توأم الروح، وحبيب القلب. كانت تنام وتصحوعلى رؤياه، وتحسب الساعات من الصباح حتى المساء. وتعدّ الأيام حتى موعد المجئ. ما أثقل الساعات وأبطأ الأيام !. وما أسرع لحظات اللقاء !.

كانت "ليلى" هى التى تقوم على خدمة أبيها وضيفة، ويبدو أن هناك اتفاق، إذ تدخل الأم، وما تلبث أن تشغل الأب بحديث ما، حين تجالس ابنتها الضيف. وتجاذبه الحديث، ولم يكن ما يجرى خافيا على "عبد الحميد"، وإن

تظاهر بالغفلة، ولكنه كان مُكرها على مسايرتها، مرددا فى نفسه: " مجبرٌ أخاك لا بطل"!.

جاء من طلب يد "وداد". قريب من ناحية أمها، وهذه المرة يرحّب الجميع، وترضى العروس بنصيبها، وسرعان ما يتمّ التجهيز، ويُحدد موعد الزفاف، وكانت فرصة ليقوم أهل الخير بالصلح بين الحاج "عمر" وأخيه. أما من ناحية الزوجتين فقد حدث ما لم يكن فى الحسبان، ولن ينمحى من ذاكرة الأهالى على مرّ الأيام !. ترى أى حدث هذا ؟!.

كانت أم "عبد الحميد" قد عبّرت بحسن نيّة لإحدى ضيوفها عن فرحتها حين رفض "عبد الحميد" ابنة عمه، وعزمها على خطبة ابنة أخيها. كما استرسلت فى الحديث عن كرم أخيها وملاحة ابنته "مريم". شأنها شأن أى امرأة من الريف أو الحضر على السواء. خبرٌ مثيرٌ للغاية !. وبدورها لم تتوان تلك المرأة عن نقله لغريمتها مع المبالغة والإضافة؛ لتُزيد الطين بللا. ولتودعه أم "وداد" فى نفسها إلى أن تحين فرصة الانتقام؛ فلن تدعها تُفلت من يدها. وحين يقوم الكبار بالصلح بين الأخوين، يقوم النسوة بذات الأمر بين زوجهما. وتتظاهر أم "وداد" بالصُلح، وإن ارتاب "شحاتة"، وتوجس خيفة فى نفسه، وسؤال حائر يجرى على لسان حاله: "ترى فيم تفكر هذه المرأة. وماذا تنوى ؟."!

وأقبلت الفرصة تهرول ليلة زفاف "وداد". فكانت الأم قد دعت غريمتها، وكالعادة، كانت تتردد على الدار تشارك أهلها الفرحة على مدار الأيام قبل الليلة الموعودة و.. لم تكن تدرى ما يخبئه القدر. وفد المعازيم من الرجال والنساء من القرية وخارجها. الرجال فى "الوسعاية" أمام دور آل "أبو سالم". والنساء والفتيات داخل دار "شحاتة" تطبّل إحداهن. والجميع من يغنين، أو يرقصن، أو يصفقن. ومن يدور بالشراب. والزغاريد تتوالى فى منافسة حامية.!

جابت أم "وداد" المكان بعينها. توقفت عند غريمتها. وكانت قد أجلستها فى الصدارة. برقت عيناها؛ بينما انفرجت شفتاها عن ابتسامة ماكرة.. فحّت

كالأفعى !، ثم علا صوتها فسكت الجميع، حين لاحقتها نظرات التساؤل والتوجس. ما الأمر ؟. تبادلن نظرات مستريبة. وما لبثت أن نادت أو صرخت على أم "عبد الحميد". وفى لهجة شامتة وغليلة. طلبت منها أن تغادر الدار، وإلا رمت بها إلى الخارج. ما الذى يحدث ؟!. كل هذا الغل ؟!. أو أنها جُنّت ! كل أمسكت عليها لسانها. أو عقدها الذهول. لم تشأ إحداهن أن تلوم، أو تعترض تفاديا لبذاءة لسانها. لا مفرّ، ولم يكن فى مستطاع أم "عبد الحميد" إلا أن تمتثل وتصدع بما أمرت. دار بصرها الذاهل. نهضت. تعثرت خطاها. لحقن بها. تلقفتها الأيدى قبل أن تنكفئ. ثم خرجت والكل آسف عليها. واعتصرت بعضهن دمعة و.. ساد الصمت .

يا لكيد النساء ! . حكايات لا حصر لها على امتداد التاريخ واتساعه. وفى كل الدنيا منذ خلقت حواء من ضلع آدم الأعوج، وعلى مدى القرون. وستظل فى اختلافها وتزايدها حتى اليوم الآخر. الحدث غريب وجلل فى الوقت نفسه. وتخضع غرابته ومقدار الهول فيه، إلى حيثية الأشخاص، وأصولهم. ومكانتهم. وفى حالة أم "عبد الحميد"؛ فعن الأب والخال، حدّث ولا حرج. والزوج: الحاج "عمر" فخر عائلة "أبو سالم" كبرى عائلات المركز، وكذا من الشخصيات ذوى الشأن، وزد عليه انها أم أول طبيب بالقرية. هذا وحده تاجا على رأسها. لقد أهين كل أولئك فى شخصها. ومع ذلك أيّدها القلة ممن يعرف بأمر وصية الجد. أو التمس لها بعض العذر، وإن أنكروا عليها الفَعلة وعدّوها غلوّا وبشاعة فى الانتقام .

وكان لا بد أن تتفسخ العلاقة بين الأخوين؛ خاصة من ناحية الحاج "عمر" الذى طالته الإهانة، وهو الكبير الذى رعى أخاه. وكان له بمثابة الأب. وانتظر رد فعله ومحاسبته زوجته إزاء حُمقها، ومسلكها الأخرق الذى لم يسمع به أحد. أو أنه أتاه ليطيّب خاطره، ولكن طال انتظاره، وبدا أنه لن يأتى!. وكم

أضناه دموع ترقرقت فى مآق زوجته ولم تنحدر على وجنتيها، ولكم أشقاه نظرات الأسى والعتاب المُر، الذى كانت ترسله عيناها .

ومن ناحية "شحاته" فقد أسقط فى يده، وبدا كمن يتنفس تحت الماء، وأشرف على الغرق. كان يستقبل المغازيم فى "الوسعاية" أمام داره؛ إذ سمع طرقا من صياح زوجته، انطلق على أثره، توقف حين شاهد امرأة أخيه، وهى تمرق من داره وكأنها تفرّ من الجحيم. كان من المفترض أن يكون أسعد الناس فى ليلة من ليالى عرس ابنته. وشاءت الأقدار أن تتبدل السعادة غما والفرحة كدرا. لقد أصابه الذهول، وغمّ عليه، وغشيه الصمت. وإذا كان الأهالى فى حالة من الغثيان، إلا أنهم أشفقوا عليه من هول الموقف. ولكن إلى حين. وباتوا فى حالة من الترقب و.. أمضى ليلة مؤرقة. لقد نفذ السهم ولا رادّ للمنكر الذى أقدمت عليه زوجته. ماذا يفعل ؟. هل يضربها حتى يسيل دمها وتفقد الوعى ؟. إن يده لم تمتد عليها منذ عرفها. أم يطلقها بعد عشرة دامت أزيد من عشرين عاما ؟. إن لم تكن زوجته؛ فهى ابنة خاله، وأم أولاده فى الوقت نفسه. كما. كما أنها مـيحة المحيا و.. وقد أحبها منذ كانت طفلة و.. ولا يستغنى عنها و.. وماذا يقول لأخيه ؟!. لو كان مجرد أخ لهان عليه الموقف. ولكنه الأخ والأب والسند و.. ويحبه أكثر من نفسه، ولا يغالى، ويقسم على ذلك. أى حجة يتذرع بها ؟!، وأى مبرر لسكوته المريب ؟. وكيف يواجه الصحب والأهل والناس ؟. هل يعكف فى الدار حتى الموت ؟. أخيرا وجدها !. طالعه حل المُعضلة و.. ولكنه يعتمد على امرأته، وهذه نقطة الضعف التى تُغلّب الفشل. ولكن لا بديل عن المحاولة .

كانت زوجة "شحاتة" هادئة النفس مرتاحة البال، تحلق بأجنحتها كالفراشة، وتنعم بلحظات الزهو والتيه، إذ نالت من غريمتها وأظفرت بها، وجرّعتها كأس الذل. حين احتست هى كأس النصر. وفى جوّ النشوة ذاك.

جاءها زوجُها على استحياء يسألها فى تردد: أن تخفّ إلى دار أخيه، وتعتذر لامرأته عمّا بدر منها. ماذا ؟!. وكأن الرجل نطق كفرا: إذ تنقلب سحنتها، وتكشر عن أنيابها، وتبدو كنمرة أصابها السعار، ولا تتمهل لتسلط عليه لسانها بما يندفق منه من صفاقة وقلة حياء؛ غير آبهة بما يُخلفه من جراح، وآلام نفسية، وذهول أفقده رشده وعقد لسانه وأخرسه. ليفرّ منها فرار الجُرذ من الهر، والغزال من وحش الفلا !. ولم ينم الرجل. وبدا مشتت الذهن. وقضى ليلته مسهّدا؛ لا يدرى كيف يلقى أخاه، وأبناء عائلته، وأهالى القرية ؟. فالخبر قد سرى حثيثا، وجاب القرية عن آخرها، وعرف به القاصى والدانى، والأحبة والخصوم. لقد التبس عليه الأمر ولا يدرى ماذا يفعل ؟!. ليس إلا أن يركن إلى البيت، يأكل ويشرب ليسدّ الرّمق، ولا يطيب له طعام، ولا شراب، وتوقف عن الكلام؛ كمن أشرف على الموت !.

قالوا وفى مقالهم عبرة: "إن هانت عليك نفسك كانت على الناس أهونا". وهذى ثمار الحنظل، يزدردها كل من يميل إلى امرأته كل الميل، ويلتهمها كل من يفرط فى حق من حقوقه، أويتنازل عن دوره، ويترك الحبل على الغارب لأى امرئ عدا أباه وأمه. نعم، أبوه هو المستثنى، وأمه. ولندع "شحاتة" فى محنته، عسى أن يتبدل الحال فى المقبل من الأيام.

هرولت الأيام، وتوالت السنون، وأوشكت امتحانات السنة النهائية. لم يتبق سوى القليل. شهران او يزيد قليلا. ويعانق "عبد الحميد" إجازة التخرج: ثمرة تعبه وسهره سنين عمره. إنه يذكر يوم التحاقه بكتّاب الشيخ "سيد حنفى". كان طفلا فى الثالثة من عمره، ويذكر قبلها ما كان يردده خلف أباه من: فاتحة القرآن الكريم، وقصار السور. وكذا العدّ من واحد إلى مائة، ومسائل جمع الأعداد وطرحها. شهران ويقبض على أمله، وبعدئذ يستطيع أن

ينبرى فيما صبا إليه وآله على نفسه من علاج أبناء قريته، وإعلان الحرب على الأمراض المتوطنة، التى ما برحت تنخر أكباد الشبيبة، وتحصدهم حصدا .

انتظرت "غادة" هذه الفرصة فى صبر تحسد عليه، وإن كان العصفور فى يدها، فهو من ذلك الصنف الذى لا يُخشى عليه، فأنى يُخاف على ربضَ ولوع بالكتب وشغوف بالعلم، وأين هو من الهوى ؟. كما انه نُصِبَ عينيها، وتلتصق به طوال ساعات الدرس، سواء فى قاعة المحاضرات، أو المعمل، أو المكتبة؛ حتى أخذ فى الاعتبار أنهما مخطوبان، أو على أهبة ذلك. ولعلى أعيد القول: بأن بِعاده لم يكن يولها. أو يسبب لها اللوعة، ولم تتلهف عليه مرة، أوتأرق من أجله ليلة، أو حتى تراه فى أحلامها، فهو لديها بمثابة البريق الذى يُبهر العين ويخلب اللب.

تدعوه بإشارة؛ وما أيسر أن يَقبل "عبد الحميد" دعوتها، وكأنه على موعد، أو أنه ينتظرها بفارغ الصبر !. وتصطحبه إلى "الفيلا". كل شئ بدا عاديا: إلا تلك الحفاوة البالغة فى استقبال أبويها. استراب لحظة، ثم أرجعه شوقا إليه، إذ طالت فترة غيابه. وبالطبع توقف عن خدمة أهل الحى، الذين التمسوا له العذر. لحاجته لكل لحظة. اللهم إلا فى الحالات الضرورية والمُلحّة وكانت غازفته مستئناة من كل هذا. فما زال به يُصبِحُ على بهاء محياها، وقبل الفجر حين كانت تنتظر عودته !. وكذا ألحانها التى تمسّ شغاف قلبه، وتسرى فى دمه. و يكفيه غذاء الروح زادا يتبلغ به ويُقيم أوده وصلبه. وكان يلتقط بعض وقت لزيارتهم كل حين، وقد حرص على ذلك لأمر فى نفسه.!

وأقبل شبح الامتحان الرهيب يزلزل القلب. إنها سنة الختام، وحصاد السنين. لقد بذل "عبد الحميد" كل ما بوسعه، واجتهد حق اجتهاده، ولكن التوفيق بيد الله. ومرت الأيام، ومع تثاقلها مرت بسلام. وبدا منشرح الصدر،

راضى النفس واجتاز كافة الامتحانات التحريرية والشفهية، والتجارب العملية فى المختبر، والمشرحة، وغيرها و.. تنفس الصعداء.

ولم يكن يدرى بما يخبئه القدر. وعقب الامتحان الأخير دعته "غادة" لمأدبة غداء بناء على طلب أبويها، وكما قدِمنا لم يستطع "عبد الحميد" أن يعتذر، وتصطحبه "غادة"، وبعد الغداء يُقام حفل بمناسبة إتمام الدراسة. وإن كان لا يعتاد هذا ولم يصادفه، لكن لا غرابة عند أولئك القوم. وكل على قدر وسعه. ولا عجب ولا ريبة حتى هذه اللحظة. وكل يبدو عاديا ومناسبا.

لم يرفض "عبد الحميد" أيضا دعوة الأب. والذى أومأ بمفاجأة سعيدة فى انتظاره. أى مفاجأة ؟، سعيدة أو غير ذلك. إن تقدير السعادة نسبيا. فما تراه أنت سعيدا يبعث على المسرة. قد يراه آخر سيئا وتعيسا. ويراه ثالث سخيفا ومستفزا ويبعث على الغثيان. وكيف لامرئ أن يحدد للآخرين ما يُسعد أو يُتعس؟. أى تعدّ صارخ هذا ؟!. وأنى لبشر أن يُوصّف ما يستشعره بشر مثله؟!. هراء !. دب قلب "عبد الحميد" وداخلته الرهبة و.. ولم يدر لذلك سببا، فقط إنه لا يحب المفاجآت. لقد قرر الأب أن يقود السيارة بنفسه. تبدل دبيب القلب وجيبا. وتقطعت أنفاسه كأنما كان يعدو. وتصبب العرق من جبينه مدرارا : حسبته "غادة" خجلا. حسابات أهل الغرور خاطئة دوما.

توقفت السيارة أمام "فيلا". أطلق نفيرا متقطعا، وسرعان ما يأتى بوّابٌ نوبيٌّ ليفتح البوابة، وتندفع السيارة إلى الداخل، ثم تتوقف. يترجل الرجل، كما تترجل ابنته، ويحذو "عبد الحميد" حذوهما. ما الحكاية ؟!.

- . تفضل يا "دكتور."

هتف بها الأب حين وقف أمام الدرج. وصاحبنا فى حالة اللاوعى، وطنين الذباب فى أذنيه. يتفضل "عبد الحميد" امتثالا لدعوة الأب. ويصعدون إلى "الفراندة" ، التى تضم طاقم "فوتيه"، وسجادة، وثريا. و "فازات" و.. يفتح

الرجل الباب. ويدلفون إلى بهو فسيح. يضم أكثر من طاقم. وأكثر من سجادة. وثريا ضخمة. و"فازات" من المرمر منتشرة فى كل مكان. كلها فاخرة ثم يدخلون حجرة الكشف، وحجرة أخرى كمثلها روعة وفخامة !. "عيادة" !. عيادة من ؟!. سؤال أحمق بالطبع. فلمن تكون إلا لإبنته ؟!. إذا فرضنا صحة هذا، وهو صحيح بالفعل، فما هى المفاجأة ؟. قد تأتى فى نهاية المطاف. فلينتظر. بل إنه سينتظر دون إرادته. اختلطت الأمور فى ذهن الفتى، وتبدّل الطنين فى أذنيه صفيرا، وبدا لهما منهرا لدرجة الذهول. انتشت "غادة" وتبادلت مع أبيها ابتسامة، ونظرة ذات مغزى. عادوا إلى "الفراندة". أحاط الرجل كتفه. ثم أشار إلى سيارة تبدو جديدة. إنه يعرف ما يشير إليه، لكنه لا يعرف مغزى الإشارة. تجسدت المفاجأة، إذ ناوله مفتاحا، وعلى شفتيه ابتسامة واثقة، قائلا ببساطة :

- . سيارتك ..

- . سيارتى ؟!.

ثم يناوله ثلة مفاتيح، ويضيف :

- . و "عيادتك" يا "دكتور."

- . "عيادتى" ؟.!

وتكتمل المفاجأة حين يشير الأب نحو ابنته، ويضيف:

- . وعروسك .

- . عروسى ؟!!

تُطلق "غادة" ضحكة. المفترض أن تطأطئ رأسها حياءا، وأن تتلوّن وجنتها ومحياها بلون خجل العذارى الأحمر القانى. ألا تعرف أين أنت ؟. القرية شىء، والمدينة الكبيرة شىء آخر. جلس الرجل ومازالت الابتسامة عالقة بشفتيه، وجلس الشاب، وكذا العذراء التى لا تعرف الخجل. وأضاف الرجل :

- وانظر متى يأتى أبواك للاتفاق على كل شيء ؟. لن أحمّل أهلك مليما واحدا بشأن " الشبكة " والأثاث و..

ولم يسمع "عبد الحميد" كلمة أخرى. حيث شوّش النقيق على الكلام. انكشف المستور، وبان كل شيء. إن الرجل يقدّم عرضا مذهلا لشرائه. وبدا كأنه نخاسا فى سوق النخاسة !. ويبدو أن العرض ممتدا فما زالت شفتاه تنطبقان وتنفرجان، وخلفهما لسان لا يتوقف. لم كل هذا ؟!. وأين هو من أولاد الأكابر والهوانم؛ الذين يحومون حولها فى كل مكان وأوان ؟!. كان يكفيها إيماءة و.. وفى تلك اللحظة زاره طيف "ملك". أقبل القمر وبدّد سواد الليل. أتى البطل المنقذ لينتشله من بين مخالب الوحش قبل أن يفتك به، ويُصبح فى خبر كان. ويبدو أنها بثت فى قلبه حمية العزة، ونفثت فى صدره نار الثورة، فما لبث أن هب واقفا، وقذف بالمفاتيح على مدّ ذراعه؛ بين ذهول الأب وابنته وسرعان ما نزل الدرج، وغادر "الفيلا". وانطلق يعدو فى الطريق كمن يتعقبه عذرائيل.!

فرّ العصفور من الفخ، ولاذ هربا. لقد سيق إلى القفص الذهبى. وكاد أن يُغلقَ دونه، أشرف على التردّى فى الجُبّ السحيق، ولكن بعث الله بالنجدة فى اللحظة الفارقة. يا بركة دعاء الوالدين، وطيف "ملك.!"

زاغت عينا "غادة"، وكاد أن يُغشى عليها من هول الصدمة، ومضت عليها لحظات من التيه حسبتها دهرا، ولم تشعر بعينيها التى تقطر الدموع. انبعثت تنهيدة حارة من الأعماق. أنّت وتأوهت. لقد علّمت عصفورها الطيران ليحلق حولها ويطير إليها، فطار منها وحلق بعيدا عنها. غدر الوليف، وراغ روغان الثعلب، وضاع الحلم. أوشكت أن تقطف الوردة، وحال دونها الشوك. لسعتها إبر النحل قبل أن تجنى الشهد. يا للحسرة !. لم يخرّ السقف من فوقها، بل انهار البنيان وضاع تعب السنين. أ كان قصرا من الرمال ؟. أم

كانت تغزل الوهم وتنسج السراب ؟. لقد استهواها المذاق الحرّيف، و استعذبت شراب الليمون. ولم تكن تدرى أن لهما لسع ومرارة. استبعدت أن يكون فى الأمر فتاة. بل إنه المستحيل بعينه: فهو لا يعرف غيرها بعد أمه، وأخته، وامرأة الشيخ "رضا". كانت على وشك أن تلف عقد الفل حول جيدها. كانت على قيد خطوة. ولكن هدّ شمشون المعبد ولم يحفل بما قدّمت يداه. عجبا لهذا الساذج المأفون !. كيف يطأ كل هذه النعم ؟. كيف يغدر بابنة الأكابر، ذات الحُسن والجاه والثراء ؟!. من يصدّق ؟. وهكذا دون إشارة أو مقدمات. ما السبب ؟: أهى إحدى مقومات الشخصية المختلفة أو بالأحرى الشاذة ؟. أو أنه فقد وعيه؟ أو أنه ضرب من الجنون ؟!. برقت عيناها :

- "كلا. لن أدعه يُفلت بفعلته. سأعلمه كيف يحترم أسياده، هذا الوغد، فاقد الحسّ والرُشد ، أعمى البصيرة. لكم أهاننى و.. وما ذنب أبى ؟. سأتعقبه أينما ذهب، وحيثما يكون. سأقلب عليه الأرض، وأثأر لأبى، وكرامتى، وكبريائى، وأنوثتى ."

والأب مشوّش الذهن، فاغر الفم والعينين، وفى حالة يُرثى لها من الخلط واللبس وانعدام الوزن. يرقب ابنته، والذهول يُطلّ من عينيه، والأسى يظلل صفحة وجهه. يكاد قلبه ينفطر حزنا وكمدا. لا يدرى: أ يسرّى عنها مُصابها، أم يلومها، أم يزعق فيها، وينهال عليها ضربا ؟!. لقد ضلت الطريق، ولم تُحسن الاختيار. وكأنه أراد أن يقول: "من تناسى أصله وانحرف عن مساره؛ أهينت كرامته وانعدم مقداره". كيف لمن اعتاد أكل"المِشّ" أن يستسيغ مذاق "السِمّان " ؟. وكيف لمن افترش الحصير؛ أن يرقد على ريش النعام، ويلتحف بالحرير؟. وأنى لمن يركب الحمير أن يعتلى ظهور الجياد وصهوة الفرسان ؟!.

ما لأولئك الرعاع والأكابر ؟. ما لهم وحياة السرايا والقصور ؟. وليس لهم إلا عيش الزرائب والقبور. أصرّت ضروسه، واندفق الدم فى رأسه. كان يجب أن يلقنه درسا. أى درس !، بل كان عليه أن يدق عنقه، وأعناق عائلته، وأهل

قريته أجمعين. ولكن كان الأمر سريعا وخاطفا ومباغتا. وشلت المفاجأة فكره وعقدت لسانه و.. جرى هذا الكلام على لسان حال الأب. ولا بد أنه سيتشدق به إليها، سيزعق به ويصرخ، ولكن فى مكان غير هذا .

خطا "عبد الحميد" نحو البوابة بخطى واثقة. تشيّعه عينا الأب وابنته تبادلا نظرة كالمغشى عليه من الموت. انطلق الفتى مفتوح الصدر مرفوع الرأس. قدماه تمسّان الأرض كغزال . ويكاد أن يحلق فى الفضاء. وبودّه لو يعانق الناس جميعا. ودّع سوق العبيد، وراح يتنفس بملء رئتيه .

أنقذته العناية الإلهية، وتخلص من القيد الذهبى قبل أن يلفّ معصمه. سقط حبل المشنقة قبل أن يحوط عنقه. لقد تعرى الأكابر. وبانت سوءتهم، وفاحت رائحتهم. سقط القناع، وتبدّت الحقيقة، وانكشف الملعوب. ما أرخص الأرواح، وما أظلم من عُدموا الإنسانية، ومن انتزعت قلوبهم، وماتت ضمائرهم. أنى يُبتاع البشر ؟!. لقد خلق الله الناس أحرارا. أ نسوا أنهم ونحن جميعا عباد الله ؟. وأن لا فضل لعربىّ على عجمىّ إلا بالتقوى ؟. ليس بالحسن والجمال، ولا بالوجاهة والجاه، ولا بالمال والثراء. نسوا الله فأنساهم أنفسهم. اتسعت ابتسامة الفتى حين لاح له طيف مالكة قلبه "ملك". وعرج على أول مسجد ليصلى ركعتئ شكر .

وما أن وطأت قدميه أرض "الحسين" ليلفه السكون، وراح يستعرض الأبنية العتيقة والمسجد الحسينى: جدرانه، ومئذنته، وقبته. كأنما يفاضل بينها وبين العمارات الحديثة الشاهقة. المقارنة ظالمة ؛ بل طاغية. ما أعظم التراث !، وما أشرف الأجداد، أولئك الذين أتقنوا ما صنعته أيديهم. وقف على عتبة غرفته. جابها بنظرة "بانورامية". كأنما يراها لأول مرة!. إنها أرحب من "الفيلا" و"العيادة" المزعومة، أو السجن الذى ولى منه مُدبرا. جلس على حافة الفراش. شرد يجترّ شريط الذكريات. المواقف متعددة، والصور لا

حصر لها. منذ أن ودّع قريته. واستقل القطار وحده مسافرا من أجل العلم. حتى هذه اللحظة. بعد أن أمضى سنوات الدراسة. وبعد أن أفلت من بين مخالب الوحش. واستعرض مواقفا بعينها. والأماكن التى وطئتها قدماه: المدينة الكبيرة الصاخبة. ومعقل ملائكة الرحمة و "فيلا غادة" التى ظنها قصرا أو سراى. وصور الأشخاص. التى توالت صورة بعد أخرى : الشيخ "رضا". وأمه الثانية. والأساتذة. و "غادة". إنه لا ينسى فضلها عليه. وفى الوقت نفسه يصفح عنها ولا يجد فى نفسه وقلبه غلا. ولا بغضا لها ولا لغيرها على السواء. ولا عجب أن تساوره مشاعر الريبة. والرهبة. والخوف: كما ساورته من قبل. توقف الشريط عند هذه الصورة. انشرح صدره ورفرف قلبه. وغشيته الفرحة. توتر وتهدجت أنفاسه كعاشق فى أول لقاء !. أطلت فى عينيه. احمرّ وجهه. أخفض رأسه. واسترق نظرة إلى صورة "ملك". توقف الشريط. حين انسابت أنغام "الكمان ". توقفت صور الماضى. وما لبث أن امتدت يده لتفتح فرجة الحب والحياة.

قام "عبد الحميد" يُعدّ حقيبة السفر. ليشدّ الرحال إلى قريته الحبيبة. لكم فاض حنينه لأبويه وأصدقائه وأهله جميعا. اغتسل وشرع فى ارتداء ملابسه. سيدع الغرفة: فلم يعد بحاجة إليها. وعليه أن يسلم مفتاحها لصاحب العقار و.. سيترك حى "الحسين" وناسه لطيبين. الذين عاشرهم بضع سنين. وأحبهم كأهله وذويه. وكذا سيودّع المدينة العتيقة الصاخبة الرائعة. والعم "حامد" صديق الفجر والمسجد. و"ملك". أجل. سيرحل. ويودّع أهل الحارة و.. سيكون وداعا حارا. فهو وداع بلا عودة. ولا ريب أن يخفق قلبه. وتسكب عيناه الدموع. سيُطيل نظرة الوداع فى عينى "ملك". لوداع ! أ. أ لن يراها ثانية؟ كيف ؟! و. وماشأنك بها ؟. أ لك عليها دين. أو وعد ؟. كيف وهى التى شغف بها قلبه. ولا يطيق فراقها. والعيش دونها. أو

بعيدا عنها ؟!. لكأنه يعيش من أجلها !. إنه لم يقرر ذلك. بل أحس به. والمشاعر لا تكذب. لقد ملكت عليه قلبه ووجدانه ومشاعره، وأحبها حبا يعظم عن الوصف، ولم يكابده أحد من قبل. إنها قَدَرَه، ويبدو أنه نزح من قريته، وانتقل إلى حى "الحسين" من أجلها. غادر الغرفة دون الحقيبة.!

طيلة أيام الامتحان، وعازفة "الكمان" لا يرتاح لها بال، ولا يقرّ لها قرار ولا يطيب لها مطعما ولا مشربا. تراها واجمة شاردة، وكل يوم يمضى عليها أشد أسى من سابقه، فهى تعلم أن "عبد الحميد" أنجز مهمته، ولم يعد له شىء هنا. ولا بد أنه سيعود إلى قريته اليوم، أو الغد. ستصحو من الحلم، وتفيق على شبح الفراق. كان حلما جميلا و.. وقصيرا. ليته امتد حتى نهاية العمر. مرت السنون سراعا كأنها الرهوان. ما أقصرلحظات السعادة !. حتى الأمانى ليست من حقها، ولتحلم إلى الأبد. عادت تتأمل حالتها: المقعد محبسها ورجلها. ستظل إعاقتها مبعث اليأس فى نفسها، وحائلا دون تحقيق حلمها. قدَر عليها أن تحب لا لنفسها ولكن للحب ذاته. إنه لم ينبس بتباريح الغرام، ولم يترنم بأهازيج الهوى، ولكن أفضت عيناه بما هو أبلغ وأفصح من الكلام. ولكن كيف يرهن غد أيامه بمسخ، أو نصف إنسان ؟. إنها لا تعيش رهن الوهم والخيال، وأنها على يقين أنه ليس لها، وأن الأيام الخوالى؛ ماهى إلا فاصل من الراحة منحها القدر إياها. ولكم تتمنى له الهناءة مع غيرها. الأهم، والذى فى غمرة الحب لم تحسب حسابه، أنه لا بد أن يرحل، وأنها ستعود إلى أيام الأسى والشجون. ولعل ذكريات الماضى تخفف من لوعتها، وتُعينها على ابتلاء القدر، وقسوة الأيام.

أدارت عجلتها نحو الصالة، ولا تدرى لماذا فعلت !. طرق الباب. إنها طرقاته، فهى لا تخطئ وقع أصابعه الرقيقة. لم يسمع أحد. ليتها تفتح له ! أعاد الطرق. خشيت أن يمضى. كادت أن تنادى على ابنة عمها. ولكن يبدو

أنها سمعت. فتحت الباب. إنه هو. ما أرهف حسها !. لم تعرفه "ليلى"، حيث سألت عن الطارق. افتعل ابتسامة لابنة عمها، وأرسل إليها نظرة خاطفة حافلة بالمعانى، وحب يكفيها زادا حتى الموت !. لستُ أبالغ، ولا أطلق عبارات رنانة واسألوا أهل الهوى.

التقى "عبد الحميد" وصديق الفجر. أغلق الباب دونهما. تبادلت الأم وابنتها نظرة، وابتسامة، وضحكة من الأعماق. لم تشأ إحداهما أن تقطع عليهما الخلوة جعلت "ليلى" تروح وتغدو دونما سبب. والأم تكاد أن تنفجر من فرط الفرحة والزغرودة ترقص على لسانها !. كل هذا كان يجرى تحت سمع وبصر العازفة المسكينة. وكانت نفسها تحدثها بأن "عبد الحميد" ما أتى من أجل "ليلى"، وإنما لزيارة أبيها، أو ليودّعه قبل سفره و.. ولكن لم أغلق الباب ؟. وما فحوى الرسالة التى أرسلتها عيناه عبر نظرته العميقة ؟. أدارت عجلتها إلى حيث غرفتها قبل أن يرشق فيها سهم نظرة. أو تذبح كرامتها كلمة .

" عبد الحميد" فى موقف عسير. لا يعرف كيف يبدأ. حاول ثم حاول، وفى كل مرة يتردد لسانه ويتعثر الكلام فى حلقه !، ويغرق فى عرقه، وكأنه أمام فوهة موقد، أو يصطلى لفحة الهجير تحت شمس الظهيرة. والرجل يستحثه رحمة به وإشفاقا عليه. وأخيرا همس:

- . "ملك ."
- . ماذا ؟ !
- . "ملك ."
- . "ملك" ؟ !

يبدو أن الرجل لم يصدق أذنيه فسأل مرتابا :

- . لعلك تقصد "ليلى."
- . بل "ملك. ملك "!.

- . ماذا عنها ؟ !

انتزع "عبد الحميد" الكلام انتزاعا:

- . جئت أطلب يدها .

كاد أن يُغشى على الرجل من فرط الذهول، وراحت تجوس عيناه فى وجه الشاب، وكأنه أراد أن يراجعه. أو يصحح مساره حيال "ليلى". ولكنه قرأ يقينه وإصراره. إنه يرمقه ما زال. هل جُن هذا الشاب ؟. كيف يرهن حياته بكسيحة، ستكون عالة عليه، ومصدر قلاقل هو فى غنى عنها ؟. كلا. يجب أن يرفض طلبه رحمة به، ويردّ يده إشفاقا عليه. لم يُمهله "عبد الحميد:"

- . "ملك" يا عم "حامد". "ملك" وليست غيرها .

بان اليأس فى ملامح الرجل. ثم علاه القلق. كانت قد ألمحت إليه أم "ليلى" بما تراه من ميل الفتى نحو ابنتها. ولم يجد مانعا أو غضاضة، بل كان يتمنى ذلك وكذا، لم يخف عليه ما كان يدور وراء ظهره، وما تجرى بينهما من أحاديث. لم يكن قلق الرجل لسبب يتعلق بحاجة فى نفسه، كأن يفضّل ابنته على ابنة أخيه. كلا وألف كلا. بل خوفا عليه، وعلى وديعة أخيه الراحل، وما قد تلقاه من العذاب، فمن يرضى لولده عروسا عاجزة، حتى عن خدمة نفسها؟ وكذا ما يُخلفه من حريق سيندلع فى البيت لا ريب ولن تنطفئ شجرته، وستؤكد حرمه المصون تآمره لصالح ابنة أخيه، ولو أقسم على براءته بشتى الصحف والكتب السماوية. سينقلب البيت إلى جحيم لن تخبو جذوته للأبد .

إنها إرادة الله ولا رادّ لقضائه. تبدّى ما كان بظهر الغيب واختار أسيرة المقعد. تغاضى عن إعاقتها، أو أنه هبة القدر، ورسول العناية الإلهية. كأنه لم يصدف غيرها، وهى وحدها دون ابنته وبنات جنسها، التى نبض لها قلبه. أى بلاء هذا، وأى محنة ؟. إن عيناه لا ترمش، والعزم يتبدّى فى ملامحه، وفى

نظرته وميض الإصرار. ماذا يفعل ؟. أ يرفض ؟. أم يهرب بابنة أخيه ؟. أم يدع الحلبة، ويذهب هو بلا رجعة ؟!. ويسد "عبد الحميد" الطرق:

- . سأغدو إلى قريتنا وأعود بوالدىّ، ونفر من أهلى .

عجبا لأمر الفتى، بل عجبا لعين الحب، التى ترى فى العجز جمالا وسحرا!. وكذا تستهين بالروح من أجل الحب، وتشقى للفراق حتى الموت. وما لبث أن ترك "عبد الحميد" العم "حامد" غارقا فى حيرته. لا يدرى: أ يفرح لابنة أخيه، لتى قهقه لها الحظ بما لا يتصوره عقل. أو يعدّ العُدَة لحرب ضروس. الله وحده يعلم متى يخبو أوارها.

كانت الأم وابنتها تدوران فى الصالة. كل ترمى أذنها لتلتقط كلمة تستشف منها طرفا من الحوار. ولكن طال الأمد ولم يُشف صدر إحداهما. يبدو أنهما يتهامسان. ترى هل اتفقا ؟. أم اختلفا ؟. أم أنهما لم يفتحا الموضوع أصلا ؟. م أخذتهما غفوة ؟!. تبادلا نظرة قلقة. لم يطل انتظارهما. وباغتهما "عبد الحميد"، الذى لم يلتفت إليهما، وأسرع الخطى نحو الباب الخارجى. استغربت الأم حين تسمرت قدما "ليلى" ، ولم تخف إليه لتودّعه. وما لبثت أن هرولت إلى غرفتها. والأم فى إثرها. انكفأت فوق الفراش لتنخرط فى البكاء. حارت الأم. أ تطيّب خاطر ابنتها، أم تستطلع الخبر من زوجها ؟. ويبدو أنها لم تطق النار التى شبت فى صدرها، فانطلقت إلى حيث الزوج. وقفت بالباب كعذرائيل، وبغبغت بصوتها الأجش :

- . ما الحكاية ؟.!

رفع الرجل رأسه فبانت ملامحه وبدا كأنه تقدّم فى السن وبلغ من العمر عتيا! شرد. ماذا يقول لها ؟. أ يراوغها؛ كأن يتذرع بحجة؟، أم يرد ردّا يلفّه الغموض . أم يذكرالحقيقة المروّعة ؟، أم يكذب عليها ؟. الكذب حرام،

والرواغ باطل، والتغميض جُبن. وكلها نقائص تغضب رب العباد. اندفق الدم فى رأسه، وعندئذ هتف باسم ابنة أخيه .

- . ماذا ؟ .

تلفتت من حولها فى دهشة واستغراب، وفحّت كمن تسأل نفسها :

- . "ملك" ؟!. و. وما شأنها ؟ .

وردّ بثبات :

- . من الآخر. "عبد الحميد" طلب يد "ملك". واضح، أم ..

- . ماذا ؟!. أ جُنَ، أم كفّ بصره ؟!.

- . اخرسى !.

تقاذف الشرر من عينيها. وبدت كغوريلا هائجة. عندئذ برقت عيناه بريقا مخيفا وهب واقفا بينما رفع يده .

- . أ ترفع يدك علىّ. اضرب لو كنت رجلا .

وكان قد فرغ صبره، وبلغ الغضبُ مداه، فلم يلبث أن هوى بكفه على وجهها، صرخت على أثرها .

- . أ تضربنى من أجل كسيحة ؟!. لن أبقى دقيقة واحدة .

- . عينُ الطلب. الباب يفوّت جملا .

كان من الطبيعى أن يقع اختيار "عبد الحميد" على "ليلى"، وبالتالى يطلب يدها هى وليست "ملك". هكذا رأت " ليلى " وأمها ، وأبوها حين لفتت الأم نظره، وظنوا أنه يتردد على زيارتهم من أجل عينى "ليلى"؛ حتى "ملك" نفسها؛ كانت تذهب فيما ذهبوا إليه وتُغلّبه. ولم يكن فى ظنها أن يطلب يدها؛ حتى لو لمْ يتحقق الظن ويطلب يد ابنة عمها؛ رغم ما تقوله عيناه حينما يقع عليها بصره. ولكن الحب مارد جبار؛ لا يخضع لطبيعة الأمور، ولا يعترف بالمنطق، وله معايير مغايرة تثير الدهشة، وتفغر لها الأعين !. ولذا. لم يُفاجأ "عبد

الحميد" بذهول العم "حامد". ويعرف بذهول الأم وابنتها. وذهول "ملك". والفرق واضح بين هذا، وذاك، وتلك. الأول: ذهول الدهشة والمفاجأة، والثانى: ذهول الصدمة والخيبة، والثالث : ذهول التعجب والفرحة الغامرة ويعرف أيضا؛ أنه انتزع فتيل القنبلة التى لا بد أن فجّرها رب البيت. أشعل "عبد الحميد" الحريق رغما عنه. وفى الحقيقة أنه برئ، فما ذنبه وقد اختار من سكنت فؤاده، وأنست إليها روحه، وملكت عليه قلبه ومشاعره ؟. ثم، أ ليس هذا هو الطبيعى ؟. إنه الوحيد الذى يحدد من يختار وليس هم، وبالتالى فإنهم مسئولون عن أوهامهم، وما ذهبوا إليه.

انقبض قلب "ملك": إذ أتى إلى سمعها زعيق طرفاه عمها وزوجته. ماذا حدث؟ إنها لم تشعر بخروج "عبد الحميد". أدارت عجلتها نحو الصالة. يبدو أنها وراء هذه الكارثة، فالكسيحة هى. لقد صكت الكلمة سمعها وألهبت أذنها. وهل الكساح سُبّة ؟. لم يكن بيدها، ولكنها إرادة الله وما ذنب عمها المسكين؟ لقد تحمّل من أجلها بما لا يطيق. وماذا فى الأمر هذه المرة ؟. إنها لا ترى ابنة عمها. ترى أين ذهبت ؟. ويبدو أن "عبد الحميد" ودّع البيت. كما أنه لم يطلب يد ابنة عمها، وإلا ملأت البيت صخبا ورقصا، وصمّت زغاريد أمها الأسماع. أو أنه لم يفتح الموضوع بالمرة و.. أين "ليلى" ؟ . وأين ذهب "عبد الحميد" ؟ . الجو قاتم يُنذر بالشر، ولا يبشر بالخير. همّت بالعودة. أو بالفرار. ولكن ضبطتها أمّنا الغولة كالحة الوجه، حمراء العينين. رشقتها بنظرة تقطر السم. فزعت لها "ملك". ثم بصقت نيرانا، لو طالها الرّزاز لحرقها !. وتقاطرت العبرات من عينى عازفة "الكمان."

هدأ "عبد الحميد" بالا. وصفا نفسا، وارتاح خاطرا، إذ استجاب لمناجاة قلبه، ولبّى نداء ضميره، وإن جاء الأمر خاطفا، وعلى غير موعد أو ترتيب. جلس على حافة الفراش. ابتسم حين استرجع حاله، وراح يُطلّ عليه بعين خياله. كانت الزيارة لفترة وجيزة. إنه لا يدرى كيف فاتح العم "حامد". كاد

الرجل أن يُصعق. إذ كان على يقين أنه سيطلب يد ابنته وليست ابنة أخيه الكسيحة. والدلائل كلها تومئ بذلك وتؤكد عليه. الأهم. كيف تتلقى "ملك" الخبر ؟. اتسعت ابتسامته. ضحك حتى أدمعت عيناه. بغتة. زايلته الابتسامة. وحملت ملامحه القلق. لا ريب أن تُفسدَ الأم وابنتها كل شيء. فإمّا "ليلى"، وإما لا أحد !. ابنتها، وليبتلع الطوفان البنات جميعا، أو لتذهبنّ إلى الجحيم. سينحيان منحَى "شمشون": "علىّ وعلى أعدائى". ولا بد أن نشب العراك بينهما ماذا يفعل الرجل ؟. إن " لك" وديعة أخيه الراحل، ومسئوليته أمام الله. إنه يحبها كإبنته. ويزيد إشفاقا عليها. ويتمنى لها السعادة على قدر ظروفها. وفوق كل. فهو يحسها نبع البركة منذ أن حلت عليهم .

المهم أن "عبد الحميد"، فى أوْج سعادته، وكم كان بودّه أن يكون بين أهله ليقاسموه أعز فرحته. سيطير إلى قريته، حالما يردّ عليه العم "حامد"، ليرجع فى صحبة أبويه ونفر من أهله؛ ليطلبوا "ملك". انقبض قلب "عبد الحميد". لا جدال أن يلتقى أهله بالعروس، وليس من بد أن يضعوها فى مقارنة مع "وداد" ابنة عمه. أمه على الأخص، ستضعها أمام "مريم" ابنة أخيها. وقبل ذلك سيقفون على الحقيقة. أنْساه نشوة الفرحة حال "ملك". سيرونها قعيدة، رهينة دراجة تدفعها أينما راحت وغدت. ستجمد أحداقهم، وتعقد الدهشة ألسنتهم. وقد تسقط أمه مغشيا عليها. أ هذه هى التى اختارها وفضلها دونا عن بنات جنسها ؟. أ نهاية المطاف أن يقترن ابنهم: أمل القرية والذى سيغدو طبيبا؛ بكسيحة لا تكاد تخدم نفسها ؟. لن يخال أحدهم رجلا كان أو إمرأة، أن تكون ابنته أو ابنتها كحال "ملك". أطرق. مهما كانت الحقيقة، فهى تخصه وحده. إنه لا يرى بأعينهم، ولا يفكر بعقولهم. وهناك غير الأعين والعقول. وليذهب جده بوصيته، ولتر أمه ما ترى. ابنة أخيها أو ابنة أختها. وليجمّد ألذهول أحداقهم، وتفغر له أفواههم. جعل يدور فى الغرفة. تارة يُطل من النافذة، وتارة يخرج إلى

السطح؛ يتأمل مئذنة المسجد الحسينى. وعاد يسائل نفسه: "الأهم، كيف يكون وقع الخبر على مالكة قلبى"؟.

" ماذا ؟! ". هتفت "ملك" كأنما تسأل نفسها. وراحت تهز رأسها بطريقة هيستيرية. وعمها يرقبها وقد علاه الفزع. هل أصابها الخبال ؟، أم أنها سمعت غير ما قال ؟. ويردد العم "حامد" ضاغطا على الحروف :

- ."عبد الحميد" طلب يدك .

تأملها حين أشارت "ملك" إلى نفسها. ولم تقل شيئا. فرّت عبرة من عينى الرجل، وخرج صوته مخنوقا!:

- . أجل. أنت .

علته الدهشة حين رآها تضحك. وما لبثت أن توقفت، ثم بكت، واشتد نحيبُها. بدت وكأنها ليست هى !. ما الخطب ؟!. أ هى هيستيريا الفرحة ؟. أم. ُم أنها لا تصدق ؟. كاد أن يُقسم لها برأس أبيها ولكن رآها تهز رأسها!. التبس عليه:

- . آ ترفضين. أم أنك لا تصدقين ؟. أم ..

وسرعان ما زايلتها الملامح الغريبة، وعادت سيرتها الأولى: لتهتف فى ثقة:

- . أرفض بالطبع .

وكأنها تريد أن تقول :

- ."كيف تعرض علىّ مثل هذا أصلا ؟ ."!

بمعنى أن ينسى هذا الموضوع. وألا يُعيده على مسمعها .!

- . معقول ؟!.

تيقن الجميع أن مجئ "عبد الحميد" كان من أجل "ليلى"، ولكنه خيّب ظنونهم وطلب "ملك" التى تصرّ على الرفض إصرارا. وها هى تدير عجلتها وظهرها، وتقفل راجعة !. ما كل هذا الخلط الذى يبعث على الحيرة ؟. لكم

دافع العم "حامد" عن نفسه، وأكد أنه بوغت مثلهما، ولكنه لم يُفلح فى تبرئة ساحته، وأن الأمر ليس بيده، مؤكدا أن "ليلى" ابنته، وقرة عينه، وليس فى الدنيا أحب إليه من ابنته. ولكن ضاعت جهوده، ولم يستطع أن يليّن رأس الأم بشتى الطرق، وكاد أن يفقد رشده؛ إذ أنها أصرت على اتهامه بالتآمر مع ابنة أخيه! وكذا لم يقدر أن يُثنيها عن عزمها. وما لبثت أن اصطحبت ابنتها، وودّعا المنزل، بعد أن كالت ما طاب من الشتائم، وتفلت تجاه غرفة "ملك" بملء فمها و.. صفقت الباب !.

العائل فى حال يُرثى له. فى أذنيه طرق وطنين وأزيز. لقد هوى فى بئر الحيرة؛ لا يدرى ماذا يفعل. لقد هجرته صاحبته بعد أن نعتته بالغدر !. وهجرته ابنته. وهذا الفتى المأفون، الذى اختار طريق الشوك الوعر. وابنة أخيه التى صعقته. ثلاثة؛ بل أربعة خطاطيف تتنازعه، وتكاد تمزقه. لمن يركن ويجنح ؟. بل كيف ؟!. كل ركب الصعب، وامتطى صهوة المستحيل. أى كرب يحتويه ويعتصره، وأى غم يكاد أن يقضى عليه ؟ . الله صاحب الأقدار، أجل؛ فهو وحده الملاذ والمنجد، وهو لا غيره مفرّج الكروب .

الساعات تزحف زحف سلحفاة أضنتها السنين. مضى يوما، وبعض يوم. لم تنفتح النافذة التى يُطل منها القمر !. ولا يأتى إلى سمعه أنغام "الكمان". غامت عينا الفتى، أو غشى الدنيا الظلام، أو أن هناك غمامة تحجب عنه القمر لا صوت، ولا صياح، ولا بصيص من الأمل. هل فارقوا الدار ؟. أم قبضوا ؟!. أسراب النمل ترتع تحت جلده. الجَوَى أدمَى القلب، واللوعة ضرام كاد أن يحرقه. لم يحتمل.

طرق الباب. إنها طرقاته، فقد رنّ صداها فى صميم قلبها. توالى الطَّرْق. أهذا الطرْق حقيقى ؟، أم أنه وهم، وأضغاث أحلام ؟، أم هو خداع الأمانى ؟! أصغى الملهوف المسكين. لعله أقبل الفرج !. تراها زوجته، آبت إذ ارتدّ إليها

صوابها ؟. أم ؟. قام يجرّ قدمين ثقيلتين. توقف. لكم يخشى على نفسه من هول الصدمة. مدّ يدا مترددة مرتعشة. استطاع أن يفتح الباب. أتى إلى سمعه تنهيدة الراحة الى انبعثت من أعماق الفتى. شدّه ألق يشعّ من عينيه، وكبرياء يحوطه، وعزم وقور. اندفق الدم فى عروقه. وزايله الرعش والاهتزاز. والتقط أنفاسه المبهورة، ولم يعد يلهث !. كان قد ظن أن الفتى شفى من خرفه، وأفاق من هذيانه، وأنه هجر الحى، ولن يعود إلى الأبد !.

ساقه إلى غرفتها. التفت إليه. إنه كعهده به أبيا واثق الخطى برئ العينين صافى النفس والبال. أضاءت محياه ابتسامة. وانبعثت فى نفسه الطمأنينة. بعث إليه رسالة مطولة عبر نظرة. فضّها الفتى؛ إذ لمع وميض ناظريه. عاد الرجل أدراجه خفيف الخطى، بريئا من أسقامه !. تذكر موقف ابنة أخيه ورأيها فيما أتى "عبد الحميد" من أجله. أطرق. لم يسعفه فكره. المهم أنه بذل على قدره وخالق الكون لا تأخذه سِنة ولا نوم، وكل مُيسّر لما خلق له. وكان الفتى قد مسّ الباب بأنامله، ودلف إلى حيث نبع النور.!

مكث دقائق تعدل عمرين !. بانت مقدمة العجلة. لم تكن تدفعها بيديها كالأمس ومنذ محنتها. إذ كان خلفها فارسا مغوارا عليه مخايل الأنفة والعزة ! واحمرّ وجه القمر حياءا، وشفاءا من علة النفس، وتألقت على ثغره أعذب ابتسامة. للفرحة ذهول أشبه بالصدمة. ولها تصرفات تعدُّ ضربا من الجنون. هكذا كان حال الرجل الذى عادت إليه روحه. على مدى عيشه، ومنذ شب عن الطوق، لم يصدف الحب، ولا يعرف عنه؛ إلا اسمه، وما سمع. لم يجرّبه؛ حتى مع صاحبته؛ التى لم يرها إلا فى غرفة الزوجية. فى هذه اللحظة يراه متجسدا أمام عينيه، ولا يصدّق مظنّه وعقله. راح يضحك ويبكى، ثم يضحك ويبكى !. وجعل يروح هنا وهناك. كمن رأى ملكيْن هبطا من السماء. لكم تمنى أن ترى امرأته وابنته، وأخاه، والناس جميعا ، هذا المشهد الذى لم

ير أحدٌ مثله. إنها آية من آيات الخالق. تشهد على وحدانيته وعظمته. الحمد لله الذى أعانه على الوفاء بالعهد وصيانة أمانة الراحل الحبيب، عجبا لأمر الهوى، ذلك الذى يأتى بالمعجزات. عندئذ بكى الرجل حين افترّ ثغره عن أروع ابتسامة ! وسرعان ما أعدّ "عبد الحميد" للسفر إلى قريته .

استقل القطار. لم يُطل من نافذته على أعمدة التليفونات المتسابقة، إذ كان مشغولا بخطيبته. خطيبته ؟!. نعم وألف نعم. أ لم يخطبها من ولىّ أمرها؟. لقد طرق الباب ولم يقتحمه، وفاتح عمها الذى هو كل ذويها. كان دخولا مشروعا. تذكر أنه لم يلتق بالأم ولا ابنتها !. لم يفكر فى أمرهما إذ أطلّ وجه القمر فى مخيلته ؛ فلم يبدُ وجهٌ وانمحت جميعا. لم تستغرب دخوله عليها ولكنه استغرب تمرد لمحه فى عينيها. لم تطأطئ رأسها خجلا، ولم يتلون محياها بحّمرة الحياء القانية !. والأنف فيه إباء وشمم. إنه لا يذكر أن فاه بكلمة. ويبدو أن عيناه وعبرات انحدرت منها كانت أبلغ وأفصح، وقالت كل شىء.!

داعب النوم أجفانه. أبَى أن تأخذه غفوة حتى لا تحجبها أهدابه. ولكن هيهات إذ غلبه السبات. وأيضا ظلت صورتها فى عينيه. أيقظه أحدهم. كاد أن يثور عليه، ولكنه لمح نخيل قريتهم، فاختفت ملامح الغضب، وحلت ابتسامة على ثغره وأومأ برأسه بمعنى الشكر والاعتذار. وسرعان ما ترجّل. أخيرا عاد إلى أهله وموطنه. لم يضيع الوقت ولم يشعر بثقل الحقيبة وانطلق كالظبى.!

قبعت "غادة بالفيلا"، ولم تغادرها، واعتذرت عن مصاحبة أمها، إلى ما تدأب عليه من الحفلات والليالى. وكذا رفضت ملازمة أصدقائها وصديقاتها إلى النادى وغيره من أماكن اللهو والترف، شعار طبقة الأثرياء، والمتعالين من الهوانم والوجهاء. ولم يكن ذلك عن تعفف أو ترفّع لا سمح الله، ولكن لكى تدبر للنَّيل من "عبد الحميد" ذلك الجلف المخادع، الذى سخر منها، وأذلها،

وأهان جمالها وأنوثتها، وكذا لتثأر لكرامتها وكبرياءها، والسنين التى ضاعت من عمرها عدْوًا خلف السراب و.. عكفت تدبر أمرها .

وذات يوم ، قادت "غادة" سيارتها. كانت سألتها أمها عن وجهتها، ولم تسمع ردّها وإن قالت كلاما مبهما، أو أنها لا تبتغى ردّا. يبدو أنه على سبيل العادة ، أو أنه مجرد تقليد فى عالم الأكابر الغريب !. أمّا "غادة"، فقد يممت بدورها شطر حى "السيدة"، حيث كان يسكن "عبد الحميد". كانت تعلم أنه انتقل إلى حى "الحسين"، ولكم أنزلت بنفسها تأنيبا وتعنيفا، إذ أنها لم تكلف نفسها عناء اصطحابه ذات مرّة. ولكن أنّى لها أن تتوقع غدره، وتخمن فراره على ذلك النحو المباغت ؟، فمن ذا الذى يرتضى عيش الحضيض، ويتأبّى أن يغرق فى نهر السعادة والنعيم، إلا أن أصيب بلوثة، أو مسّ من الجنون.!

سألت عن الحى الذى كانت تبغى. ردّ عليها الكثير فى نفس واحد. تبادلوا نظرة استغراب، فمن على أرض المحروسة سواء من أبنائها أو غريبا؛ لا يعرف"الحسين بن على" شهيد كربلاء ؟!. جابت الشارع الرئيسى: تتأمل المواطنين علها تصدف بغيتها. ولجت الحارات، حارة بعد أخرى. تأففت، وتقززت، وذاقت الأمرّين. رشقتها أعين الحسد، ونظرات الحقد. كادت أن تسأل أحدهم عن ضالتها، ولكنها لم تفعل؛ أ ليسوا من صنفه وعلى شاكلته؟. ولعلهم قرأوا ما يعتمل فى أعماقها فخافوا عليه، ولا ريب أن يضلوها أو.. أو يفتكوا بها. غشيها الخوف. خفق قلبها، وارتعشت أهدابها، واهتزت عجلة القيادة بين يديها ولم تلبث أن ولّت الأدبار. أصبحت فى الأمان. ماذا تفعل ؟، إنها تبحث عن إبرة فى كومة قش !. هل ترفع راية التسليم، وتعود إلى حيث عالمها البراق المضئ. اقتحم مخيلتها حين قذف بالمفاتيح على مدّ ذراعه. والذهول الذى غشيها وأباها. لم تر والدها ذاهلا قط. اندلعت فيها النار. لن تدعه يُفلت. ولتنطلق إلى حيث سكناه القديم. كم تبغض تلك الأحياء

المتدنية المظلمة، ولكم تمقت أناسها. ولكن غل الانتقام يدفعها لأن تواصل مسيرة البحث. كم ودّت بأن تكون هى البادئة، وأن تأمر الخدم بإلقائه فى الشارع، أو تسحقه بقدمها كحشرة. أو.. لم لفظها ؟!، ولم كفر بعالمها ؟. ليست فتاة يقينا ، فمَن على الأرض تفوقها جمالا ومالا ؟!. و ..

بلغت الحارة. توقفت أمام مدخل الزقاق التى تعرفه. البيوت كلها قديمة وذات مشربيات. ترجلت من السيارة. ألقت نظرة. كان البيت فى أعماق الزقاق. خطت فى ترقّب بعض خطوة. توجست خيفة. كانت عينان ترقب السيارة، وصاحبتها. إنه يذكرها. استعاد شريط الذكريات، فهى من الأكابر كما بدا عليها، وهى الوحيدة من تلك الطبقة التى خفت إلى الحارة. لم تتأفف منها وسكانها، وهى أيضا من النوع الذى يتشبث بالذاكرة ردحا طويلا من الزمن. انطلق نحوها. أخبرها بما تعرف، ولكنه كان يجهل ما تبغى أن تعرف !. لم يأت بجديد. كل يعرف أن "عبد الحميد" ودّع الحارة والحى وانتقل إلى حى "الحسين"، لا أكثر ولا أقل. لم يُثمر بذلها. غشيها السأم. رجعت خائبة !. ولكن لم يفتر إصرارها، ولم تخبُ ثورتها، واشتدت نار الغل فى صدرها تأججا واشتعالا .

اتخذ "عبد الحميد" قراره بألا يفاتح أباه إلا بعد ظهور نتيجة الامتحان، وأمضى أيامه فى حالة من الترقب والانتظار. ورغم محاولاته فى شغل ساعات يومه فى الأخذ بيد أبيه فى كافة أعمال الأرض؛ من زراعة وفلاحة. وكذا زيارة أقاربه، وقضاء الساعات مع أقرانه وأصدقائه، يستعرضون أيام الطفولة السعيدة، وذكريات الصبا الجميلة. فعل كل شىء، ولم ينصرم سوى حفنة أيام؛ لتحيق به الملالة !.

لقد فعل كل ما اشتاقت إليه نفسه وعوّض سنين غُربته: تأمل النخيل العملاقة التى لا يملّها بصره، راح وغدا فى الأماكن التى شهدت مرح الطفولة

ولهو الصبا. صلى كل الصلوات بالمسجد الكبير، وأنصت إلى تلاوة آى الذكر الحكيم بصوت الشيخ "عبد العزيز عبادة"، الذى يخشع له القلب والوجدان. ولكم حزّ فى نفسه صلة الرّحِم التى قطعت بين أبيه وعمه، ولم يهمل فى واجبه لإصلاح ما بينهما، إذ يحمّل نفسه مسئولية تلك القطيعة. بذل ما فوق طاقته، ولكن ذهبت جهوده سدى. ولم يكن بسبب تعنت الأخوين، حاش لله، فهما متحابين، وما أيسر التقريب بينهما، وما أسرع أن يصفح الأخ عن أخيه مهما حدث، وذلك أن الداء لا يكمن فيهما، ولكنه يرسخ فى الضرّتين: أمه، وزوجة عمه، ولا سبيل من اصلاح ما بينهما، وإن قرعت الطبل، أو عزفت "مزّيكة" حسب الله !. بل أزاد تدخله الطين بللا وأزال الرماد، فبدت النيران أشد سعيرا، كمن جاء ليُكحلها فعماها. عندئذ آثر أن يتوقف عن سعيه العكسى، وأن يدع ذلك الشأن العسير لصاحب الأمر والتدبير. فربّ أن تنسى الإساءة وتصفو النفوس يوما.!

ما أحب ابن الريف لقريته مسقط رأسه وإن صغرت، وما أشد عشقه لذويه وأهله وإن وهنوا. ومهما جاب البلاد، واغترب فى الأوطان، وعاشر طوائف الناس وشتى ضروب البشر؛ فليس على الأرض وإن سما وارتفع، من يُغنيه عن بلده وأهله. أو يفتّر حنينه لهما وإن بعدت الرحلة، وطال الأمد. إنها القاعدة الأصيلة التى لا تتجزأ، بل هى الروح منذ الأزل. ولقد تأصّلت فى القلب، وفاضت بها المشاعر. ولا عجب أن ينبع كل هذا من الحب، هذه الكلمة ذات الحرفين !.

وفى الحالة بين أيدينا؛ كسرت القاعدة. لم تُكسر عمدا؛ بل رغما وغصبا. وقلنا آنفا أن تضجر صاحبنا وطواه السأم، وأخفق أن يسد الخواء الذى حاق به. ولكم اشتد حنينه إلى المدينة الصاخبة. ولم يكن سوى الحب هذا المارد، الذى لا يعترف بالبعاد، ولا يقرّ الأماد، ولا يفرّق بين الحياة والموت!. لم

يستطع فتانا إلا أن يساير المارد ويمضى فى ركابه، وقد انشقت فى قلبه وكل أعضائه أعين لا ترى إلا "ملك"، و ساعات الليل تمضى ساعة بعد أخرى، لا يفيق من وقع الهوى إلا حين ينطلق النداء الأبدى، وما يلبث أن ينفض كل شىء ويصطحب أباه ليُلبّيا النداء.

ما للأيام تتمهل وتمشى الهوينى ؟!. ما لها تتلكأ وتتلوّى كفتاة لعوب تنتظر عشيقها الذى لن يأتى ؟!. ما أشد قسوة البعاد !. لقد جفاه النوم. رفقا إله الكون !. لكم يتوق سمعه إلى أنغام "الكمان"، ولكم تحنّ عيناه لوجه القمر، ولكم تهفو نفسه إلى حى "الحسين": ناسه الطيبين، حاراته، وبيوته العتيقة ذات المشربيات، ومآذنه السامقة، ومحلات العطارة، التى تذخر به، ويفوح منها عبق البخور. وبائعى العرقسوس والخرّوب، وبائع العسلية و"الآيس كريم". والعم "حامد" صديق الفجر، والأمين على "ملك". ذلك الرجل الورع الذى أحبه دون علمه بأنه عمّها .

والأم لا يعجبها حال وحيدها، الذى لا يتفوه بكلمة، ولا يومئ بإشارة عن الزواج. لقد تزوج كل أقرانه إلا هو. ويبدو أن هناك حديثا خفيا واتفاقا بينها وأخاها بشأن ابنته، التى تراها خير عروس لابنها، وقد تكون وعدت العروس. وليس هذا غريبا، فالجد يوصى، ولا بد من الأخذ بوصيته، وقد تحدث أزمات بسبب تلك الوصية. والأب يَعدُ أخاه على مصاهرته ولا رأى لصاحب أو صاحبة الشأن، باعتبارهما صغيرين لا يخبران الحياة، ولا يعرفان مصلحتهما. وكذا بين الأخت وشقيقتها، وغير ذلك، كان هذا واقعا ملموسا فى مجتمع القرية والتزاما لا ينفكون عنه. وأى غرابة أن تقوم أم "عبد الحميد" بهذا الدور: فهى لا تفعل شيئا من عندها، أو غير مألوف، وهى ليست أقل من جدّه وأبيه. بل تفوقهما شأنا وفضلا؛ فهى أمه التى حملته وهنا على وهن، ثم ولدته وأرضعته، وسهرت على رعايته وراحته؛ إلى أن غدا شابا يافعا، وأول طبيب فى

القرية، بما يعدّ فخرا لها. يحسدنها عليه النسوة جميعا، وكل تتمناه عريسا لابنتها. الأولى ابنة أخيها دونا عن بنات القرية والبنات أجمعين. ولكم حاولت أن تفاتح ولدها. وفى كل مرة يلعب لسانها فى فمها ولا يخرج عنه الكلام. فالوقت غير مناسب. فما أن أرجأته على عينها إلى ما بعد ظهور النتيجة. ولكن حاوره أبوه ذات مرة عن سبب سهده، ولم يشأ "عبد الحميد" أن يذكر الحقيقة، ويبرره بأنه أمر طبيعى لكل طالب علم ينتظر ظهور النتيجة .

وبالفعل تظهر النتيجة. أ تحدسون من الذى أبلغها ؟. لن أثير شغفكم وتشوقكم؛ فهى "غادة" !. تصوروا !. راودتها الفكرة عندما تلألأ اسم "عبد الحميد" على رأس القائمة رغم أنف أبناء الأساتذة. الأول بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى: إذ تكرر امتيازه على مدى سنوات الدراسة. لقد فُرضت إجاباته على المصححين والأساتذة. لم تكن مفاجأة لـ "غادة "، ولا لأحد بالكلية: طلبة وأساتذة. لمحت اسمها فى الوسط. وعندئذ لم تلبث لحظة، وانطلقت بسيارتها الفارهة. عاودتها أحلام الماضى. لقد صدقت عين خيالها. سيغدو "عبد الحميد" معيدا بالكلية نفسها، فمدرّسا بعد نيله إجازة "الماجستير والدكتوراه". إنه مجتهد، بل عبقرى وسيمرق بسرعة الصاروخ!. سيتألق اسمه فى عالم الطب، ويُصبح أشهر من نار على علم. ما أجمله عقدا من الماس حول جيدها. غدا تحوم حوله الأعين أينما ذهب، وحيثما كان. لفتيات على الأخص. أكلت الغيرة قلبها. قدمها تضغط على "المارش". إن لها فيه كل شىء. كان امتيازه من خلالها. ولولاها لما نال كل هذا. هى التى صنعته. لهثت مع أنها لا تعدو، وليست فى سباق.!

انزلقت السيارة داخل "الفيلا"، ترجلت، وتركت باب السيارة مفتوحا، ثم انطلقت. غشيت الدهشة ملامح البواب الذى كان يرقبها. هرولت إلى حيث مكتبها راحت تفتح الأدراج. وتبحث هنا وهناك. إنها ورقة صغيرة. فتشت

داخل الكتب والمراجع. لا بد أن تجد الورقة. قلبت المكتبة رأسا على عقب. لم تعثر على الورقة الصغيرة. ضالتها. بقايا أمنية، وفضلة أمل !. أنهكها البحث واليأس. جلست تنعى حظها. ضاع كل شيء. اسودت الدنيا فى عينيها. أمسكت رأسها بكلتا يديها، وارتكنت بمرفقيها على سطح المكتب، وأطرقت. يا الله !. أبصرت الورقة الصغيرة، وكأنها تطل إليها من تحت الزجاج !. دب فيها النشاط، وانبسطت أساريرها، وعانقها الأمل. أزاحت الزجاج، وسحبت الورقة. فتحتها فى ترقب ورهبة. ابتسامة أضاءت محياها. هرولت إلى البهو. رفعت سماعة الهاتف، وأدارت القرص.

هتف "عبد الحميد" غير مصدّق :

- ."غادة" ؟!

معقول ؟!. أعاد "عبد الحميد" سماعة الهاتف. وما زال مشدوها يحملق فى الفراغ من حوله، كمن فقد وعيه. هو رد فعل الخبر ؟، أم مفاجأته بصوتها ؟. وكان "دسوقى" فتى الحاج "طه خليفة" يرقبه فاغر العينين، يكاد أن يصرخ. ولسان حاله يسأل. ماذا أصابه ؟!. وأى خبر بدّله على هذا النحو المريب ؟!. إنها تلك التى طلبته منذ سنين، نعم. إنه لا يعرف شخصها، ولكنه لا ينسى صوتها، وعرف فى لهجتها أنها من بنات البندر. وقد أبلغتْه خبر نجاحه، وكالعادة لم يبخل عليه "عبد الحميد"، وكافأه بورقة نقدية فئة الخمسة قروش "حتّة بخمسة". كانت لديه بمثابة ثروة !. كان "عبد الحميد" سعيدا، منشرح الصدر، منفرج الأسارير على النقيض مما أصابه. وما يراه !. ترى ماذا قالت له هذه المرة. هل رسب لا قدّر الله ؟. مستحيل !. دنا منه. سأله بصوت غير مألوف، وعيناه مغرورقة بالدموع :

- . ما. ما الخبر يا "دكتور عبد الحميد" ؟!

- أفاق "عبد الحميد" من غشيته، تأمل ملامح الفتى الصغير. انتزع ابتسامة و.. عانقه بعينيه. تبادلا نظرة ملؤها الحب :

- . خيرا يا "دسوقى ."

هتف "دسوقى" بسؤالين متلاحقين :

- .. ماذا قالت لك ؟. هل. هل نجحت ؟

- . الحمد لله. نجحت و..

ارتفع صوت الفتى مرددا :

- . نجحت !.

رقص قلب "دسوقى" ولم ينتظر لحظة، وسرعان ما اطلق ساقيه يسابق الريح؛ قاصدا دار "عبد الحميد"، الذى ما لبث أن أحاطته جموع الأهالى يباركون ويهنئون، ورجع تتنازعه فرحة النجاح التى لا تعدلها فرحة، فما بالك بالتفوق والامتياز والنجاح المشرّف ؟، وصوت "غادة" التى زفت إليه أغلى نبأ، وأعز بشرى. كان صوتها معبّرا، ويحمل رنّة شجن. عاد يسترجع حكايته ومواقف بعينها مع "غادة": منذ التقيا فى المكتبة صدفة على حدّ ظنه. وحتى المشهد الأخير من المسرحية الهزلية، والعرض الرخيص الذى قدمه والدها ثمنا لشرائه. ولحظة إفاقته، وهروبه من الجنة على حدّ زعمها وأبيها. لم اتصلت به ؟!. ولم أبلغته أغلى أنباء عمره ؟!. ماذا تبغى ؟. أ هو ردّ الإساءة بالإحسان ؟. هل أنّها ضميرها لما اقترفته فى حقه، وجاءت تكفر عن ذنبها ؟. أم أنه شرك آخر ؟. عاد يسائل نفسه مرارا. قدح زناد فكره. كادت تنشق رأسه من فرط الألم، ولم يجد ردا عليها. ولم تدعه "ملك" لحيرته، وأقبل طيفها يحوم حوله، لتملأ عليه كيانه، ولتنتزعه من ضباب الحيرة والتساؤلات العقيمة، ولتنساب أنغام "الكمان" لتداعب مشاعره، وتردّ إليه عقله وروحه .

وفى دارهم التى ازدحمت بالمهنئين رجالا ونساءا وأطفالا. تلقفته الأحضان، وكادت تتحطم ضلوعه على أتر العناق، وألهبت محيّاه آلاف القبلات، وصمّت الزغاريد أذنيه. الجو يتألق بالفرحة، فقد أصبح لديهم طبيبا من قريتهم،

وقريبا للأهالى جميعا، وليس مجرد طبيب. إنه متفوق، والأول على كافة زملائه. وظلت الدار مفتوحة على مدى أيام تستقبل المباركين من هنا وهناك، وقد وفّى الحاج "عمر" بما نذر، وأقام الولائم. وأقبلت المعازيم من أهل القرية، وكذا؛ الذين دعاهم الحاج أصدقاءا وأصهارا من القرى والكفور المجاورة. كما سعى إليه الصحافيين والمصورين، ليُجروا معه الأحاديث الصحفية، ويلتقطون له الصور كأنه فى ليلة عرسه. وفى اليوم التالى رأوا صوره تزين صفحات الجرائد، وأغلفة المجلات، وقرأوا ما أدلى به عن اجتهاده وأسباب تفوقه. قصارى القول: أصبح "عبد الحميد" حديث القرية. وفى هذا البحر الخضمّ من الفرحة التى غمرت القرية، كان هناك ذوى النفوس الشريرة والقلوب السوداء، والأعين التى تقطر الشرر، أولئك الذين يُضمرون الحقد، ويتمنون زوال نعمة الله على عباده !. فها هو " شحاتة " ما أن يسمع الزغاريد ليرفرف قلبه، وينطلق نحو الخارج كى يستطلع الخبر، ولكن تستوقفه زوجته :

- . إلى أين يا "شملول". الزغاريد فى دار أخيك .
- . صحيح !. يبدو أن "عبد الحميد" أخذ الشهادة. فلأذهب لتهنئته .
- . تذهب لم ؟!. هل خبلت ؟!.
- . أ خبلت كى أهنئ ابن أخى ؟!
- . ابن من ؟. كان زمان ..
- . أ هى قطيعة للأبد ؟!.
- . أخوك مات يا "شحاتة". انساه وإلا ..
- . وإلا ماذا ؟!.
- . ألا تعرف ؟. ترمى علىّ يمين الطلاق. وهذه المرة خروج بلا رجعة .

راح يتفرس فى صورتها البشعة. وكأنه يرى ذئبة جائعة. حين استطردت تعوى، وتهدد، وتحصره بين أمرين كلاهما أمرّ من العلقم :

- . إما أنا وتلزم دارك، وإما أخوك وداره .

إنه يعرف رأس البقرة العجفاء التى أمامه. لم يتبق إلا أن تنطحه وتودى به، ويعرفها بلا أحاسيس. وقّدَ قلبها من صخر. وزد على ذلك أنها عنيدة حتى الموت. ولن تتوانى عما فاهت به. حار الرجل وأسقط فى يده، فلو أنه آصرّ على أداء واجبه حيال أخيه أعزّ الناس. ونحو ابنه الذى يكنّ له كل الحب والاحترام. وكلاهما لم يخطئ فى حق زوجته ولا أحد من ذويه. فمعنى ذلك أن يُطلق هذه الأفعى، التى ما فتئت تبصبص بلسانها الذى ينفث السم منذ حالت ظروف "عبد الحميد" دون اقترانه "بوداد". عجبا لهذه المرأة الحمقاء !.

أ ليست "وداد" ابنته ؟. أم أنها ولدتها دون أب ؟!. أما كان يتمنى أن يقترن ابن أخيه بابنته، والذى يحبه طبيبا كان. أو سائق قطار، أو حتى "كمسارى". والمصيبة أن "وداد" أصبحت أمّا لبنتين، وتعيش فى رغد مع زوجها الذى يحبها ويخاف عليها من "الهوا الطاير" !. وكيف يُطلقها بعد طول عشرة، فكيف يواجه الناس، وماذا يقولون عنه ؟.

ولو أنه انصاع لإمرتها، وتخلى عن أداء الواجب، وركن إلى الدار ولم يقف مع أخيه فى مثل هذه المناسبة، ويستقبل المهنئين، أيضا، ماذا يقول الناس عنه ؟. دعك من الناس. ماذا يقول أخوه ؟، وماذا يقول "عبد الحميد" ؟. يا له من موقف مخجل يبعث على الرثاء !. المهم. آثر الثانية. خضع مُكرها، وفى المقابل، انتشت امرأته، وارتسمت على ثغرها ابتسامة المنتصر !. وعادت تقلّ فى نفسها، إذ كانت الزغاريد على أشدّها، وعلى كلّ، فليمت أهل الحقد بغيظهم، ولتحرق نارُ البُغضِ قلوبهم !.

قرّت الفرحة فى القلوب، وسكنت النفوس، وعندئذ شحذت أم "عبد الحميد" أسلحة الأمومة الماضية، وأعدّت للجولة الأولى الأهم. كان سامر التهانى قد انفض، وعاد الأهل والصحب كل إلى مسيرته التى كانت. إلا خال "عبد الحميد" وزوجه، وابنتهما؛ إذ تواصلت زيارتهم كل ليلة، والتى تتوغل فى معظم الأيام إلى منتصف الليل !. اشتم الأب رائحة جديدة لا يخفى عليه بواعثها، واتفاق يَعْرِفُ من وراءه، الأمر لا يعوزه الذكاء والألمعية، فلم تكن سوى امرأته، وبالفعل هى التى ألمحت إلى زوجة أخيها، بضرورة توثيق العُرى بين "عبد الحميد" وابنة خاله "مريم". ولن يتحقق هذا إلا بتواصل الزيارة، وهكذا تصيد عصفورين بحصاة واحدة: أشرنا آنفا إلى العصفور الأول، أما الثانى، فإن لم يكن الأهم، فهو لا يقل أهمية عن أخيه، وهو إقامة سياج حول ابنها الطبيب دون من تسوّل إليه نفسه بالاقتراب منه، ويعلم الجميع أنهما لبعضهما. أى "مريم" و "عبد الحميد". ولتنصرف الأنظار بعيدا عن ابنها، ولتبحث كل عن غيره !. ضحك الحاج "عمر" فى نفسه، ولم يشأ أن يومئ لامرأته بشئ حتى لا يسبب لها الحرج، خاصة وأنه يرى فى "مريم" عروسا مناسبا، حين كان "عبد الحميد" فى منأى عما يجرى، إذ كان هائما مع طيف عازفته عما سواه !. لكم تاقت إليها نفسه، ولكم كان بودّه أن يطير إليها، ويزفّ إليها خبر نجاحه، وعكف يفكر كيف يبدأ، ومن يفاتح ؟. وعلى كلّ، يبدو أن ريحا أشرفت على الهبوب، وصراعا أوشك على النشوب.

انبسطت أسارير "غادة". أعادت سماعة الهاتف، وراحت تخطر إلى حيث مرآتها. تأملت نظرة الظفر المتألقة فى لحظها، وابتسامة النصر التى تزيّن شفتيها. سيرجع غدًا أو بعد غدٍ. كان مشغولا عنها طوال سنين الدراسة. إنه معذور، فكان شديد الارتباط بمبتغاه، وما رحل عن بلده من أجله. وكان مشدودا بتحقيق ذاته، ونيْل المراد. ربما لم يكن فى وعيه حين تركها ووالدها

يعانيان من الذهول. لم يعمد إهانتهما؛ فعهدها به رقيقا، ويحمرّ وجهه حياءا وخجلا. أو أرهبته المفارقة، وأرعبته المفاجأة. احتمالات واردة لقروى أقبل من الريف الهادئ الوادع، إلى المدينة الكبيرة ذات الصخب والضجيج.

ساور "عبد الحميد" القلق، وأمسى وأصبح نهبا للمخاوف، إذ لم يخف عليه ما وراء زيارات خاله وامرأته، وتقرّب ابنتهما "مريم"، التى لا تجد ما يحول دون أن تقتحم عليه خلوته، لتحدثه فى جرأة عن حبها الذى تكنّه له منذ صباها، وأن الحياء منعها أن تكاشفه، أو تفصح عنه، وبات سرا دفنته فى صدرها، واحتملت وخزه، ولم تُبح به إلا هذه اللحظة. لم يخفض رأسه، فلم يمس الكلام قلبه، وتوقف عند أذنيه. شرد. اجترّ كلامها. أى سذاجة هذه ؟. ولم هذه اللحظة ؟! وما الذى يدعوها لأن تفرط فى مشاعرها وتعرّى نفسها؟! لم تتحفظ، ومضت تبث إليه لواعجها طوال سنين غيابه، ولكم تأرقت وجفاها النوم، ولم يدع طيفه خيالها و.. وكلاما كثيرا ورغيا محفوظا تهرط به .

عقدت الدهشة لسان "عبد الحميد" وحار فى أمره، ولم يدر ماذا يقول لها! أ ينهرها ؟. أم يلقنها درسا ؟. ولكن بدا أنها مدفوعة من أبويها، بموافقة أمه وأبوه إن لم يكن على علم، فهو على وعى ودراية، فكل يجرى على مَرآه، ولم يُبد تأففا !.

إنها مرفوضة كابنة عمه، وإن لم تكن وصايا من جدّه، أو غيره. ليست لأنه يراها كأخته، ولا لغير ذلك. ولكن لأن فى القلب "ملك"، لقد وعدها وعمها، وإنه أتى ليعود فى صحبة أبيه وأعمامه و.. وخاله أيضا ليطلبوا يدها. وكان يتحين الفرصة منذ أن حط قدمه فى الدار و.. وكان قد قرر أن يفاتح أبيه! الورطة هذه المرة أشد وطأة، ليس من أجل خاله، ولا امرأة خاله. ولا من أجل "مريم" ابنة خاله. ولكن من أجل أمه !. إنه لم يتعب كثيرا فى اقناع أبيه، وهو الذى تلقى وصية أباه الذى هو جده. وجاء رفض ابنة عمه على هواها. وإن تسبب فى قطيعة

الأخوين. ومهما وصل الخلاف وسُدّت منافذُ الصُّلح. الموقف بشع هذه المرة، والعاقبة أشد سوءا وفداحة. أجل فالأمر يتعلق بأمه.

كان عاكفا في غرفته يقلب الأمر من كل الجوانب وكافة الأوجُه ، حين دخلت أمه تحدوها الثقة، ويعلوها البشر، ويجمّل السرورُ عينها وملامحها الطيبة. هرب الدم من وجهه، وتجمد قلبه، وثلجت أطرافه. وفي اللحظات العسيرة هذه، زاره طيف "ملك.!"

كان "عبد الحميد" في موقف عصيب لا يذكر أن تعرض له من قبل. فاتحته أمه ولم يدر بخلدها أن يرفض طلبها، أو يراجعها، أو حتى يُمهلها لحظة. أتى بالأخيرة برغمه. لم يتفوّه بكلمة، ولم يتحرك لسانه. ولم يستطع أن ينظر في عيني أمه، وسحنتها التي اربدّت، والحيرة التي غشيتها، كانت على يقين أنه سيطير فرحا بهذا النبأ. ولقد تسابقت لأن تكون أول من يحمل لوحيدها أسعد نبأ. باغتها تجمد حدقتيه وسكوته وتجهّمه. ورأته يطأطئ رأسه. كانت تتعجل هذا اليوم، وكانت على وشك أن تطلق زغاريدها، لترد عليها زغاريد أم "مريم"، وسرعان ما يطير الخبر كافة الأنحاء، وتحرق قلب "سلفتها". كيف تخرج إليهم ؟، وماذا تقول لهم ؟. المهم أن قلب البُنيّة سينكسر. فهي التي وعدتها بأنها عروس ولدها الطبيب، وكانت "مريم" على يقين من كلام عمتها، وراحت تتخيل نفسها عروسا في بيت ابن عمتها الطبيب، وباتت تحلم بيوم الزفاف السعيد. وهي التي اتفقت مع أخيها وزوجته. أجل، هي التي سعت إليهم ورحّبوا بها وأكرموا وفادتها. يا لها من ورطة !. ما عيب "مريم" ؟، إنها أجمل جميلات القرية. يكفي أنها ابنة أخيها. يعني جمال، ومال، وحسب، ونسب. كما رفضوا طلاب يدها من أجله. ماذا يريد ؟. وما سر تجهمه ؟؛ إلا.. إلا ماذا ؟!. مستحيل !. أو أن الأطباء لا يتزوجون !. ترقرقت عيناها بالدموع.

كانت حيرته أشد وطأة. يا لهذه التقاليد البالية الظالمة !. مرة ابنة عمه، وقد حدث ما حدث. ومرة ابنة خاله !. من هذه لتلك يا قلب لا تحزن. أى محنة وقع فى أتونها، وماذا هو بفاعل ؟. أ يُرضى أمه ؟. وكيف؟. وعلى حساب من؟!. أ يغالط ضميره؟. ويخون عهده؟. ويسدّ أذنيه عن نداء قلبه؟ كيف؟!. وكذا على حساب من ؟!. منتهى الظلم. بل الظلم بعينه!. إنه لم يَعِدْ "مريم" ابنة خاله، ولكنه وعد "ملك" حبيبة قلبه، ومالكة مشاعره. ولم يَعِدْ خاله، ولا امرأته، ولا أمه. ولكنه وعد العمّ "حامد". الأمر مختلف هذه المرة. فليس السكوت علامة الرضا كما يرددون على مدى السنين. أو أنه ضُرب للبنات دون البنين !.

رفض "عبد الحميد" دون أن يقول لا، أو يومئ بمعناها. السكوت علامة الرفض. ليس لأن "مريم" ابنة أخيها، ولكن لأن قلبه وقع على غيرها، وأشهد الله على الوفاء لمن أحبّ.

انتفض الحاج "عمر" هاتفا فى دهشة :

- ."عبد الحميد" رفض "مريم " ؟!، وهل كنت وعدت أخاك و..
- .وعدت ماذا ؟!، بل خطبتها.
- .لا حول ولا قوة إلا بالله !. دون علمى ؟!.
- .وهل كان لديك اعتراض ؟.
- .ولو من باب العلم. ولا سألت "عبد الحميد" ؟.
- .وهل هناك عيب فى "مريم" ابنة أخى ؟.
- .و.. وهل هناك عيب فى "وداد" ابنة أخى ؟.
- .ماذا ؟!. ماذا تقصد يا حاج ؟.

كان الأب قد غمّ عليه، وحسب أن الأم وابنها تحاورا؛ بشأن "مريم" ابنة خاله، وأنه لم يمانع، وكان دليله جو السرور الذى تبدّى له. تنهد الأب :

- . ليست المسألة هكذا . "عبد الحميد" أصبح طبيبا يا حاجة: يعنى متعلما تعليما عاليا، ولا بد أن يؤخذ رأيه فى كل شىء، ومسألة الزواج بالذات. هو صاحب الشأن؛ لا أنا، ولا أنت، حتى ولا جدّه. لقد تعجلت يا أم "الدكتور". . والعمل يا حاج ؟ .
- . تصرفى بحكمة .
- . أتصرف ؟. وحدى ؟!.
- . أنت وأخوك وابنته وشأنكم، يا داخل بين البصلة وقشرتها.

كان هذا الموقف بمثابة عقبة حالت دون أن يفاتح "عبد الحميد" أباه، خاصة، بعد أن صرف النظر عن مفاتحة أمه، وهى الأقرب فى مثل هذه الأمور، لقد وعد "ملك" وعمها، أن يرجع بأهله بعد يوم لكى يطلبوا يدها ولكن توالت الأيام، ولم يتقدم خطوة واحدة، حتى أنه لم يمهّد. ماذا تقول عنه "ملك"، وماذا يقول عمها ؟ وما موقف "ملك" وعمها إزاء امرأته وابنته؟ كانا يُجرّعانها كأس العذاب الذى لا ينضب، ولا تأتى ثمالته !، ولم يكن هناك سببا. فما بالك بعد طلب يدها، وعدّوها "خطافة" ؟. كان عليه أن يعجل بالعودة إليهما، ولكن ما أبصر عينه، وأقصر يده !، وما أصدق حبه ومشاعره!. الظنون تؤرّقه، وكم حزّ كل هذا فى نفسه، ولم يكن بوسعه إلا أن يكبت أحزانه، ويودِعُها فى صدره. خبا فى عينيه ألق النجاح، وانطفأت جذوة الفرحة، ومن الطبيعى أن ينعكس عليه؛ فلم يلذ له طعاما، ولم يستسغ شرابا، وهام على وجهه فى الحقول.

فى اليوم التالى، طالت وقفة "غادة" أمام مرآتها، بين تزينها، وتأملها، ويبدو أن طمأنتها المرآة على جمالها وفتنتها. تباعدت شفتاها عن ابتسامة ما أحلاها، وما لبثت أن انطلقت بسيارتها إلى الكلية. لا بد أن "عبد الحميد" صلى الفجر، واستقل أول قطار إلى حيث المدينة الكبيرة. وهى على يقين أن لزمه الأرق اللذيذ، ولم ينم ليلة البارحة، فكيف ينام ملهوف يفيض قلبه بالسعادة ؟!. الرحلة

تستغرق ساعتين كما ذكر. ما أطولها !. وما أثقلها على نفسه !. وما أبطأ القطار!. وكأن السائق يغيظ له !. سيكون أول من يدخل الكلية، وسيهرول إلى لوحة النتيجة ليرى اسمه متألقا على رأس القائمة. ولا بد أنه لا ينتظر سواها لكى يُثنى عليها، ولو تربَى فى الحضر لما استحى ، وللثم خدّها بقبلة عفوية. أ لا تستحق الثناء وهى التى ألقت على سمعه بأغلى بشرى. ثم يأتى كل شىء تلقائيا .

دخلت الكلية. توقفت حيث اللوحة. ترجّلت. بحثت عيناها بين الواقفين أمامها. لم يكن بينهم !. ذهبت هنا، وهرولت هناك. سألت الزملاء. وراحت تسأل البواب. لم يره أحد !. يبدو أنه لم يأت اليوم. قال إنه سيكون أول طبيب بالقرية، ولابد أنهم احتفلوا به احتفالا كبيرا، ولم يستطع المجىء. سيأتى الغد. ما أقرب الغد !. رجعت يحدوها الأمل.

انقبض قلب الأم خوفا على وحيدها، ولم يكن الأب أقل منها خوفا وقلقا على ابنه. لاحت فى عينيه نظرة لوم وكلام مُرّ ما أيسر أن تقرأه الأم: أنت وراء كل هذا. كل ما حدث جرّاء فعلتك. وهذا ولدنا يذوى أمام عينينا. لقد انهار الجسر، وانقطع حبل الوصال بينك وأخيك. وكل أهلك. والله وحده أعلم متى تلتئم الجراح. بالأمس هوت الرابطة بينى وأخى، وكان وراءها أبى سامحه الله والمصائب تترا ولا تأتى فُرادَى !. بأيدينا نتعذب ونلقى بأنفسنا إلى التهلكة وبألسنتنا نندحر إلى الهاوية. وكان بأيدينا أن نرحم أنفسنا. ولكن الجهل أعمى بصائرنا .

ضربت الأم صدرها لهفا على ولدها. وراحت تسكب الدموع بين يديه. كفكفى دمعك يا أمى ؟!. فداك روحى وعمرى. وفى حضن الأم البراح؛ ما أسرع أن يذيب الدفء جليد القلب، ويَسرى الدم حارا فى العروق، ويلتئم الجرح !. ولا يجد الفتى حرجا أن يهمس لأمه بكلام جلجلت له ضحكاتها. لم يصاحبه السهد هذه الليلة، ونام "عبد الحميد" ملء جفونه. ولعله رأى ملاكه فى أحلامه.

وصاحَبَ "عبد الحميد" أبويه فى رحلته التاريخية. شعر بطول الرحلة ، وثقلها، وبطء القطار. وكأن السائق يغيظ له كما ظنت "غادة" !، ولكن كان منالها بعيدا عن الحسبان. لم يدع الانبساطُ الأساريرَ ، ولم تدعْ الابتسامةُ الشفاهَ، وما أفعمت السعادة قلوبهم مثل هذا اليوم.

المُحبّ كالمؤمن، قلبه دليله، فهما يخرجان من مشكاة واحدة. وكلاهما رقيق القلب، مرهف الحس، نقىّ السريرة، عفّ النفس، لا يخشى إلا الله. رغم قلق العم "حامد" الذى تزايد إلى حدّ اليأس، وأيقن بأن "عبد الحميد" نسى ما كان فى غشية الهوى، إذ استعاد رشده، وصحا من غفوته على الواقع. وعدّ سنين الماضى مجرد ذكرى، ولم يشأ أن يفصح عن مكنونه لابنة أخيه المسكينة، التى تحيا على الوهم، إذ كانت على عكسه، فهى على يقين من عودة طيرها، ولكم كان يخشى عليها مغبّة العيش فى السراب والخيالات، ويبتهل إلى الله أن يهبها النسيان !.

فى هذا اليوم على الأخص، صحا العم "حامد" على أنغام تتدفق بالسعادة، شعر أن العالم كله يغنى نشيد الحب الخالد. علته الدهشة. تحسس الأرض بقدميه. كان البابُ موارِبا. أطلّ عليها. رآها تنام على "الكمان"، كفرخ ينام على صدر أمه. بدت وكأنها فى ملكوت آخر. واللحن السرمدى ينساب عذبا رقراقا، كأنما يأتى من السماء. رقص قلبه، وطربت مشاعرُه. ولم يَدْرِ كم من الوقت مضى.!

أتى إلى سمعه الطرق الخفيف. توقفت الأنغام. أ هو عبث الأمانى، أم خداع الأحلام ؟!. عاد الطرق. معقول !. رأى "ملك" تفتح باب حجرتها، وتدفع عجلتها تسبقها فرحتها. عندئذ فتح الباب. أجل، إنه "عبد الحميد" بمحياه الهادئ وابتسامته الخجول، ومن خلفه أبويه كما وعد. دخلوا لتهتف "ملك :" - ."عبد الحميد "!.

- ."ملك.!"

تبادل الأبوان نظرة ذهول. كانت على طرف لسان الأم زغرودة، ولكنها أبت أن تنطلق. أ هذه القعيدة عروس "عبد الحميد" ؟!. أ هذه التى رفض من أجلها ابنة عمه، وابنة خاله ؟!. أ هو "عبد الحميد" الذى حلمن به بنات القرية عريسا ؟!. يا ويلتى !. ماذا أقول ؟. تمخض الجبلُ فَوَلَدَ فأرا !. أ يصوم كل هذا، ثم يُفطر على بصلة ؟!. ماذا يقول الأهالى ؟. وحيد الحاج "عمر أبو سالم" بجلال قدره، وعظيم منزلته يقترن بعاجزة !. طبيب يتزوج نصف إنسان ؟!. يا للعجب !، ويا لسخرية الأقدار !. الجميع ينتظر جلب الطبيب ويتوقعونها كاملة الأوصاف. كيف تواجه "سلفتها" أم "وداد"؟!. وماذا تقول لابنة أخيها ؟. أ هذه التى اختارها من المدينة التى تضجّ بالبنات؟!. أ كُفَّ بصره دون هذه ؟!. أطلت من عينئ الأم حسرة. يا فرحة ما تمت !. تبدل العرسُ مأتما. وبدت الزغاريد صراخا وعويلا. تأوهت. وانبعث من جوفها أنينا. لله فى خلقه شئون !.

كان "عبد الحميد" فى ثباته كأبى الهول، أو كالطود الأشمّ، وفى وقفته كمحارب عنيد على أهبّة الاستعداد لركوب الصعب، وتحدّى الأهوال !. خشعت أبصار الحضور. استرقت الأم نظرة إلى بعلها. لم يكن معها، إذ كان مشدودا ينظر إلى ولده، كأنما ينظر إلى بطل أسطورى !. رجع بصر الأم وهو حسير: أ هذا بعلى كبير عائلته، ومن يشار إليه بالبنان ؟!. أ هذا ولدى. أم بدّلته المدينة ؟!، أم وقع تحت وطأة السحر ؟!، أم ركبه عفريت من الجن ؟!. لم يكن للأم بُدّ من التسليم، وشبح فعلتها يقف لها بالمرصاد. وعدّها الأب قدر ومكتوب، ولا رادّ لقضاء الله، وربما فيها الخير كله. لم تكن سوى بضع لحظات مرّت بمثابة دهر. كان الصمت أفصح وأبلغ من الكلام. حسم "عبد الحميد"

الموقف. قالت عيناه بيانا، والمقال لوالديه: "قُضِىَ الأمرُ الذى فيه تستفتيان". أشار العم "حامد" بيده، ثم تقدمهم إلى حيث حجرة القعود.

ثلاثة أيام على التوالى وجميلتنا "غادة" تغدو وتروح بين الكلية و"الفيلا" وكانت ترجع كل يوم ممزقة النفس، كسيرة الوجدان. يغمر قلبها الحزن والأسى. هذا الوغد. متى يأتى ؟!. أو أنه جاء مرتديا طاقيّة الإخفاء ؟!. إنه فلاح، ولابد لديه طاقيّة كغيره من الفلاحين. تأوهت. لقد انقطعت شعرة الوصال، وانهدم صرح الأمل. أحسّت بالضياع. وجدت نفسها تتخذ الطريق إلى حيث العيادة المزعومة. فتحت الباب كأنما تفتح مقبرة. المكان كئيب يغشاه الصمت وتعمّه الوحشة. المقاعد مصفوفة فى قاعة الانتظار كالموتى. انتابتها الرهبة. خطت نحو غرفة الكشف التى كانت له. أتت إلى سمعها ضحكة ساخرة. أ ويسخر الموتى، أم أتت الضحكة من أعماقها ؟!. عانقها الرّوع، ولم تلبث أن غادرت المكان. أيضا لم تعد إلى "الفيلا"، وإنما ذهبت إلى النادى. الوقت ظهرا، فلم تصادف أحدا من الأصدقاء والمعارف. انتبذت ركنا هادئا. ورجعت بذاكرتها إلى الوراء، وراحت تحدث نفسها حديثا واقعيا، وتسائلها: كانت البداية لعبة، أو مجرد خاطرة أطلت فى ذهنها. وماذا لو انكسرت اللعبة ؟، أو مرت الخاطرة مرور الكرام ؟ لم لا تبحث عن أخرى لتكسرها، وتقتنى غيرها؟ لم هى مشدودة إلى تلك اللعبة ؟. أ لأنها انكسرت برغمها ؟. أجل. هذه هى؛ فهى التى تطرد الآخرين من جنتها، ولا يخرجون منها بإرادتهم، فهى الملكة المُتوَجة، التى بيدها الأمر، والنهى، والطرد. وكيف لمملوك أن يمرق من تحت سطوتها ؟!. أو أن هناك سبب آخر؟. مستحيل !. وأنّى لملكة أن تقع فى هوى واحدا من عبيدها أو رعاياها؟. ولكنه يقتحم عليها حياتها ويقبع فى خيالها، وتأرق من أجله، وتغفو وتصحو على رسمه. لقد ملك عليها مشاعرها، وفرض عليها سلطانه، وكأنها أسيرته !. أى هراء هذا ؟!، وأى

تخريف وجنون ؟!. حين ألقاه، سأطرده من جنتى. سأطرده شرّ طرْدة. انخرطت فى البكاء. سألقاه يوما .

لم يكن "عبد الحميد" من أولئك الحالمين الذين يطلقون لأخيلتهم العنان، بل كان يزن الأمور بميزان الواقع، فهو يقدّر موقف أبويه، ويعلم مدى صدمتهما حين التقيا بعروس وحيدهما، والتى جاءت على عكس التصور. وما حدسه كل منهما، ولكن يبدو أنهما آثرا السكوت وإن كان على مضض وغير رضا، إذ لا بديل لديهما غير الصبر على البلاء، إرضاءا له، وتفاديا لحرجه وغضبه، وأمه على الأخص. وكان الوجوم هو سيد الموقف فى رحلة العودة. وإن حاول الأب أن يقول كلمة، أو يعلق تعليقا يكسر حاجز الصمت. لم يتوقع "عبد الحميد" أفضل مما حدث. وقد أكبر رباطة جأش أبيه ومروءته. والذى تعامل مع الموقف ببُعد نظر، وحكمة يُحسد عليهما. ومن ناحية الأم، فقد أجبرت أن ترفع شعار: "إكف ع الخبر ماجور"؛ على الأقل فى الوقت الراهن، لعل أن يتبدل الحال، وتأتى الرياح بما تشتهى السفن .

أجبرت زوج العم "حامد" وابنته على العودة. يبدو أن أخاها ضاق بهما، ولم يحتمل وجودهما لأسباب لا تهمنا فى شىء، إذ أنها لا تدخل فى السياق. ولكم شتد ذهولهما حين أخبرهما العم "حامد"، بمجئ "عبد الحميد" ووالديه، لطلب يد "ملك". وراحت كل منهما تضرب كفّا بكف، وفى حوار بين الأم وابنتها، تؤكد الأولى أنها أعمال وشغل جان. وإذا كان الأمر كذلك، فما أيسره ولن يكلفها سوى "مشوار " لغاية الشيخ "بعرور"، لعلمها بسرّه "الباتع"، وخبرته الواسعة فى التعامل مع الجان، ولن من يكسب فى النهاية. وحين لمحت الارتياب فى عينى ابنتها، راحت تحلف برأس أبيها، وسيدى "فلان"، والشيخ "علان"، ولم تتوقف عن الأيمانات حتى قرأت فى عينئ الصغيرة التصديق محل التشكك، وتأكد لها حين انبسطت أساريرها، وافترّ ثغرها، وأطلت من

عينيها نظرة أمل. ونبّهت عليها الأم بأن تكتم السر، حتى يُكلل سعيها بالنجاح. ووعدتها بأن تعجل بالأمر، وتبدأ فى الصباح. كما أوصتها بالضرورة أن تتقرب من "ملك"، وتُحسن معاملتها، وأن تُبدى لها الحب والرضا.

عملت "ليلى" بالوصية، إذ قلبت صفحات الماضى الداكنة، وفتحت مع ابنة عمها صفحة جديدة، وما لبثت أن عانقتها عناقا حارا كأنها تذيب جليد السنين وهنأتها بخطبتها !. وكانت دهشة "ملك"، التى بلغت حدّ الذهول، وراحت تتفرس فى عينيها علها تسبر غورها، أو تلمح سببا لهذا التغيّر المفاجئ. العينان صافيتان لا تقول شيئا، وتبدو برينة من عللها وأسقامها النفسية، وكأنها لم تنغّص عليها عيْشها طيلة السنين الماضية !. ما الحكاية؟. انتابتها الريبة، وتوجست خيفة. وبدت أم "ليلى" على المنوال نفسه والوتيرة عينها. أ هو رواغ الثعالب، وتخطيط الأفاعى، أم ألعوبة من صنف آخر أشد تنكيلا ؟. أم ثابت الأم وابنتها إلى رشدهما، وعرفتا أن الله حق، وما خلاه باطل ؟. لم لا ؟. إذ تغلبت نوازع الخير فى نفسهما. عموما، الأيام مع دورانها كفيلة بكشف الخبىء، وإماطة اللثام عن المجهول. والعم "حامد" لم يكن أقل من ابنة أخيه حيرة وارتيابا.

تباينت المشاعر فى دار الطبيب، فالأم ما زالت تعانى من صدمتها، وخيبة أملها فى وحيدها !. لكم فرحت يوم نجاحه، ولكنها أدخرت فرحتها الكبرى إلى يوم عُرسه، كانت تحصى ما ستفعله فى ذلك اليوم السعيد، كما يحصى الصغار ما سيفعلونه يوم العيد. ولكم ابتهلت إلى الله أن يُطيلَ عُمرها حتى تشهد ليلة الزفاف الموعودة، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وفى حالتها؛ أنها لن تدرك شيئا مما تتمناه !. وكانت أمانيها تتردد بين الموت والتوسل إلى الله، بأن يسترد وحيدها عقله، ويرجع عن ضلاله وغيّه. وفى بعض ساعة كانت تستغفر الله !. والأب وإن غلب عليه الأسى، ولكنه يؤمن بقدر الله ومشيئته، ويراوده الأمل أن

تكون هذه الكسيحة نبع الخير والبركة لابنه، ويطمع في رحمته سبحانه أن يبرئها من سقمها، ويمنّ الله عليها بالشفاء. وكان على يقين أنها جديرة بابنه. كما حدثته نفسه أن يكون لهذه الكسيحة شأنا !. وفي صلاته كان يسأله سبحانه أن يقضي خيرا . أما "عبد الحميد" فقد هدأ بالا، وسكن نفسا، فقد أعانه الله على تحقيق غايته ونيل مبتغاه، ولكم تاقت نفسُه، وفاض حنينُه، إلى يوم أن يضمّه ومليكته عش الزوجية السعيد.

وذات يوم فاض به الشوق، وعندئذ شدّ الرحال إلى المدينة المزدهرة، حيث مرفأ قلبه، وضالة فؤاده، وتوأم روحه. عاودته الذكريات حين كان غضا صغيرا، وجال في شوارع المدينة. لم يهتز، ولم يجد الخوف طريقا إلى قلبه، إذ كان في حصانة أبيه. وفي غُرة رحلته، كان في حصانة نفسه، وكان غِرا بالحياة والناس، لكم أصمّه الصخب، وغشيته الرهبة، وأحاط به الخوف من المجهول. وفي رحلته هذه بدا الصخب معزوفة متناغمة تأتي من السماء، وأمسى الكابوس المزعج حلما جميلا، بودّه لو طال. تبدل الخوف أمنا، وبات الأفقُ صافيا. وهبت النسائم رطيبة محمّلة بعبق والزهر، وشدو الطير، ورسائل الحب.

طار الفتى إلى رحاب الجنة حيث حوريته. يبدو أن "ليلى" لم تنس وقع أنامله، فخفت إلى الباب، وفتحته. علاه مزيج من الدهشة والحرج و.. كاد أن يرجع. ولكن شجعته ابتسامتها. معقول ؟!. أ هذه "ليلى" غريمة "ملك" ؟!. والأغرب أن أقبلت أمها، وما لبثت أن دعته للدخول، ناهرة ابنتها بنظرة. ما الحكاية ؟!، وما سبب هذا التغيّر المفاجئ ؟!. داخله القلق، وخطى بخطى مرتابة بين ترحيبها. ولم يكن العم "حامد" أقل منه قلقا وارتيابا. شدّ على يده، ثم تقدمه إلى غرفة القعود. سأله عن أخباره. أبلغه "عبد الحميد"

بنجاحه، وبأنه الأول على الكلية. عانقه الرجل كما يعانق ابنه، ولمعت عيناه بدموع الفرحة. دخلت الأم بعصير الليمون، وفوجئا بزغرودتها :

- . اتفضل يا عريس. ألف مبروك !.

وما لبث أن هتف العم "حامد" منتهزا الفرصة :

- . وزغرودة أخرى من أجل الشهادة .

- . إلا الشهادة .

وتوالت الزغاريد، بينما تبادلا نظرة دهشة، لم تخف بواعثها على أم "ليلى"، التى واصلت تظاهرها قائلة:

- . ألف ألف مبروك يا "دكتور"!.

وعادت تحدث نفسها :

- ."كلّ من وراء قلبى !. كم يصعب ذلك على نفسى، ولكنها أوامر الشيخ ."

يبدو أنه لم ينطل على الزوج، فجعل يتفحصها بعينيه، وكأنما أراد أن يسبر مكنونها. ضبطته حين التفتت إليه. لم يتحوّل عنها. امتقع وجهها، وما لبثت أن غادرت المكان. يكاد المريب أن يقول خذونى. وراحت تسأل نفسها:

."هل عرف شيئا ؟! و.. ولكن ممن ؟!. هل تبعنى مرة إلى صومعة الشيخ ؟. أو.. أو أنه استدرج "ليلى"، و "دحلب" لها. وضحك عليها ؟!. من تحت السواهى دواهى."!

حين كان العم "حامد" يسأل نفسه فى حيرة :

- ."ما وراء هذه المرأة العنيدة ؟!. إنها بعيدة الأغوار. ترى فيم تفكر ؟، وماذا تدبّر"؟!.

أقبلت "ليلى" تدعو "عبد الحميد"، الذى تشتد حيرته. يتبادل نظرة دهشة مع العم "حامد" ولسان حاله يردد :

- ."أكاد ألا أصدّق !. ما الذى يجرى"؟!.

تبعها إلى "ملك". التى ابتسمت بكل محياها، بينما برقت فى عينها الدموع. التفت إلى "ليلى" التى اتشح وجهها بحمرة الخجل، ولم تلبث أن استآذنتهما !. والتقى زوج اليمام. كانت الوليفة فى انتظار وليفها على جمرالشوق. أذابت الدموع جليد الفراق، وأطفأت نظرات الهوى لهف القلب ولهيب الأشواق. لم يتحاكيا، أو يتناجيا. لم يجرحا أديم الصمت بكلمة، ولم يكونا بحاجة إلى المقال، كفتهما النظرات، فما أفصح ألسن العيون. وما أبلغ نظرات المحبين. قالا كل الكلام !.

ألقت أم "ليلى" بابنتها فى طريق "ملك"، ولم تكن تدرى أنها نسفت جدار الكراهية التى تعبت فى تشييده طوال سنين. كانت تقصد الشر، ولكنها فعلت الخير عن غير عمد !.

قُضِىَ أن تصبح "ملك" وحدها منذ تخلت عنها أمها، واندفعت وراء أهوائها. حرمت وليدتها من الأمومة. لتُشبع فى نفسها رغبة الأنثى. باعت الغالى العزيز بالبخس الرخيص. لم يشأ العم "حامد" أن يفرّط فى لحمه، وما لبث أن انتشلها واحتواها بين يديه، وضمها إلى صدره ورحابه. قُدّر لـ "ملك " أن تصبح يتيمة ومسكينة فى غمضة عين !. وتأبَى عين الله إلا أن ترعاها، فلم تتأفف زوجة عمها، بل تلقفتها فى أحضانها، وهدأت من روعها، وكانت لها بمثابة الأم الرءوم. وهكذا تناءى طيف أمها التى ولدتها، ثم تلاشى من ذاكرتها. وعدّه العم "حامد" دينا فى عنقه لزوجته لن ينساه، وفضلا يؤكد أصالتها ومروءتها، وعندئذ ارتاح نفسا، وهدأ بالا وخاطرا. وقام يصلى ركعتين، شكرا لله الرحمن الرحيم .

تفتحت عينا "ليلى" على "ملك" حسبتها كما أملت عليها مشاعرها. وأيّا ما حسبت، فلم تبصر كل منهما غير الأخرى. كانت "ملك" وكأنها فى انتظار نصفها الأخر، أو توأمها التى تنفست هواء الحياة بعد حولين، واكتمل الكيان. تهللت

"ملك" وغمرتها فرحة كبرى، فالتصقت بها، وراحت تتأمل الصغيرة التى أنست بها، ولم تدعها ليل نهار. كانت كل منهما قدر الأخرى. وكان قد وقع الحب فى قلبيهما. ولا غرو أن يعجز القلم، أن يصف فيض السعادة، الذى غشى قلب كل من الأم، والعم "حامد". والأولى على الأخص.

ودارت أيام السعادة يوما بعد يوم، ولكن هيهات، إذ بدا الخط ينحنى على حين غرة، وبدت تهت الصورة فى عينى المرأة. الصورة لا تكذب، وما أشد مرارة الحقيقة، إذ عوّض الله "ملك" عن فقدها الفادح، وحباها بالحُسْن والجمال. وزادهما بخفة الروح والظل، التى شدت الأعين إلى اليتيمة، ومدّت إليها الأكفّ، فهذا يداعبها، وذاك يلاطفها ويضاحكها. وكلّ لم يصادف هوى فى نفسها، بل أفزعها، فأكلت الغيرة قلبها، وسرعان ما تبدلت حقدا وحسدا!. لم تطق كبتهما على مدار الأيام، إذ غلبا عليها، وباتت تمارسهما جهارا نهارا، إذ كانت تعكسه كل حين على المسكينة تأنيبا، وضربا، وركلا. ولا تبالى !.

جرّعتها صنوف العذاب، وتُحارالصغيرة ويُجهل عليها، ولا تدرى لأى سبب تُنزِلُ بها العقاب بهذه القسوة، وماذا جنت ؟!. أين ما كانت تغدقه عليها من الحب والحنان ؟!. أين عناقها، وأحضانها، وحكاياتها، ومسامرات الليل. كأنها ليست هى !. ومن الطبيعى أن تنعكس المشاعر نفسها على توأمها. والصغيرتان الحائرتان، تُحسان ولا تدركان. وتساؤل يتبدى فى عينيهما البريئتين الذاهلتين. ما الخطب ؟!. لم تفعل كل هذا ؟!، وما الذى بدّلها وغيّر حالها ؟. كانت ملاكا !. وينقبض قلب العم "حامد"، وكان قد حسبها ضربا من تعكر المزاج وانفلات الأعصاب سرعان ما تفيق وتتوقف عنه، إلا أنها تمادت، وبدت أشد غليلا وشراسة. ماذا فعلت هذه الطفلة الوادعة، لكى تلقى كل هذا؟. آنئذ يغشاه مزيج من الهم والغم، وتعتريه الحيرة التى تبلغ حدّ الذهول. ويروح ليسأل نفسه: أى أمر حوّل هذه المرأة ؟!. ولم انتُزعت الرحمة من قلبها، وبدت بهذه

البشاعة ؟!. إلا أنها جُنّت. وبالطبع لا يقف متفرجا، فينهرها، أو يدفعها، ليُخلّص المسكينة من بين مخالبها وأنيابها. وبالطبع ينشب بينهما زعيق يثير سخط الجيران. ليسكت العم "حامد" على مضض، درءا للفضائح. والقيل والقال !.

ولا تكتفى بكل هذا، ومضت تنفث نار الغل، وتزرع الحقد فى صدر الصغيرة. أرضعتها السوء، وأطعمتها الشر وتمعن فى غيّها، فلا تتوانى عن فصل التوأمين، وعزل كل منهما عن الأخرى. ولم تؤثر فيها الكارثة التى ألمّت بالملاك الصغير. بل بانت شماتتها. حتى ظن الرجل أنها وراء هذه المصيبة. أو على الأقل هى أسّها. والسبب المباشر لها. وبدت "ليلى" كغزالة صغيرة لفّتها شبكة صياد، إذ وقعت فى الأسر برغمها، وحين كان السجان أمها .

انكسر القيد وانحلّ العقال. بيده: فتح السجان بوابة السجن. وماذا بعد أن يُفلت الأسير من هول الأسر، ويعبّ نسيم الحرية الرطيب ؟!. ماذا بعد أن يرى السبيل بهيا نيّرا ؟!: إلا أن يفرّ إلى توأم روحه. ولا غرو أن ترتمى "ليلى" فى أحضان ابنة عمها. وتمنت لو طال العناق للأبد. فى بادئ الأمر، توجست "ملك" فى نفسها ريبة. ولكنها استشعرت الدفء وكانت مقرورة. ورأت عيناها تسحّ الدمع. يولد المرء على الفطرة، وقد فُطرت "ليلى" على الحب، والطبع يغلب التطبع. رجعت "ليلى" إلى ما جُبلت عليه، وسرعان ما انمحى عفن الكراهية وانتشر عطر الحب. زالت الريبة من نفس "ملك" وازّينت شفتاها بابتسامة الرضا. انتصر الحب، وعادت "ليلى" تعانقها من جديد !.

كان "عبد الحميد" فى موقف يدعو للحيرة، إذ وجد نفسه بين أمرين: كل يعوز عمره !، وعليه أن يفاضل بينهما، ويختار أحدهما لا غير. كان قد اجتمع مجلس الكلية، ووافق بالإجماع على اختياره معيدا بها. وإن كان متوقعا، أو غير ذلك، فهذا مؤدّاه أن يترك قريته، ويسكن بالمدينة، كما يتحتم عليه

حسب اللوائح المعمول بها، أن يواصل دراسته لسنوات عدّة، للحصول على إجازتى "الماجستير والدكتوراه". وهذا يتعارض مع وفائه بوعده؛ الذى قطعه على نفسه وأسلفناه؛ بمحاربة الأمراض المتوطنة فى قريته والقرى المحيطة، تلك التى تفتك بأكباد الأهالى على أثرها، فتراهم كأشباح، أو كأعجاز نخل خاوية، ليس بمستطاعها إلا أن تستسلم للموت !. إنه يتهيأ لحرب ضروس يعوزها: التحدى، والإصرار، والدءابة، والصمود. ولا غنى عنها مجتمعة. وكل يحتاج إلى الجهد ومواصلة الليل بالنهار. أى تستغرق الوقت كله كلا الأمران يستغرق الوقت كله. وكان عليه الاختيار، بمعنى أن يُغلّب أحدهما على الأخر.

ويعود "عبد الحميد" للمناظرة بينهما. الأول يمكّنه من الدراسة المنظمة، وبلوغ شأوا فى العلم، دون الالتفات إلى المكانة الأدبية والاجتماعية التى لا تدخل فى حساباته. والثانى: لم يمكث طويلا، فلقد داعبه الأول وتأصل فى كيانه منذ نعومة أظفاره، ورأى رأى العين ما يُخلّفه من مآسى، ومن أجله أيضا؛ ودّع قريته ونزح إلى المدينة. والوعد كالنذر كلاهما يتحقق بالوفاء. والوفاء إحدى خصاله الراسخة فى كيانه، ولا يرضى عنه بديلا وإن تكلف عمره وأزهقت روحه !. وسرعان ما حرر اعتذارا رقيقا دعّمه بالأسباب. وأيضا لم تلتق به "غادة"، وكم كان ذهولها، حين وقفت على الخبر، لتهتف: شخصية مختلفة حقا !.

وراحت تسترجع مواقفه التى تؤكد اختلافه، وكلامه عن طموحاته. كانت كلها بعيدة عن الأنا. وكلها للآخر. لم يكن يخطب، ولا يُطلق شعارات، ولا ينتظر تصفيقا وهتافا !. بل يكاد لحم وجهه أن يتساقط خجلا. كانت حكاياته عن أهل قريته، وما يكابدونه من الآلام، وكيف أنهم يصارعون بلا طائل: مرضا عضالا، يصرعهم فى النهاية. لقد تفتحت عينه على الدنيا ليرى الوحش فاغرا فاه، والمأساة واضحة جلية فى كل بيت وكل دار. والخسارة فادحة. وها

هو ذا يضحى بغده المشرق من أجل أيام الآخرين. شخصية مختلفة. والاختلاف إمعانا فى النُبل والسمو الإنسانى. أى عبقرية وعملقة. وراحت تسأل نفسها عن الأرفع والأسمى والأمجد: ذو العلم ؟، أم ذو الثراء ؟، أم ذو المبادئ ؟. أم ذو المكانة المرموقة ذائع الصيت ؟، أم ذو الجاه والنفوذ ؟، أم ذو المروءة والإنسانية ؟. تألق ذو المبادئ، وبرز ذو المروءة والإنسانية !. ورأت رأسه يرتفع مع امتداد عنقه، حتى اندسّت فى السحـب .

عادت تنظر إلى أبيها المقاول الكبير، الذى يقضى سنين عمره رهينا للمال. يجمعه، ثم يبعثره. ثم يجمع ويبعثر. يجمع ليبعثر!. أى أنه يعيش لنفسه ومن أجلها. وليس للآخر حظا لديه. ولا يطرح له مليما واحدا. بل إن الآخر يخشاه ويناى عنه مؤثرا السلامة !، بمبدأ: "يا نحلة لا تقرصينى ولا عايز عسل منك ."

وأمها سليلة الباشوات، العاطلة بالوراثة. كل ما يشغلها الشكل والمظهر كقريناتها من البهائم. لا اهتمام لديهن؛ إلا "الموضة". وآخر صيحة فى كل شىء مهما كانت زائفة !. المهم: البريق واللمعان !. يلتقين بالنوادى: ليس إلا للغيبة والنميمة ولوْك سيَر الأخريات، واستعراض الفضائح وأخبار العاشقات. ويرقدن فى الصباح، ويبدأن يومهن والناس نيام .!

وهى، ليست إلا ثمرة أبويها وبيئتها. فهى تعيش لصرف ما فى جيب أبيها الذى لا ينضب على حدّ زعمها. ليس لديها أحلام. كل فى علمها وحوزتها. تستطيع أن تبتاع كل ما يتبدى فى ذهنها ويخطر فى بالها. حتى أصدقاءها من الجنس الخشن !. تكفى إيماءة بطرفها: إلا هذا المختلف: لا لشىء إلا لأنه مختلف !. فلا يبصر مظاهر الثراء لديهم: الحى الراقى ، و"الفيلا" ذات الطراز الأوربى، وحديقتها الغناء، وأثاثاتها الفاخرة، وسيارتها الفارهة، وفئة الأكابر التى ينتمون إليها. لم يبصر كل هذا، وأبصر ماهو بعيدا عن زينة الحياة الدنيا، لم يأسره ويسحر عينه سوى المكتبة، وذلك لأنه يفتقدها لم يشعر

بافتقاده شيئا سواها !. لم يُلفت نظره جمالها وزينتها، وعساه قرأ فكرها، وحكم على فساد عقلها وحياتها. كانت تراه مجرد حلية، أو "ميدالية" أو عقد فل. لذا، لم يشعر بذاتها وشخصها، ولم يجد فيها ضالته، ومن تساير فكره وطموحه، ومن هى جديرة به. وبعد كل هذا، ماذا ينتظر ؟، ومن ؟. ما أتفه عالمها ! و.. وما أتفه الحياة من غيره !.

كانت الأيام تمضى كما يشتهى العم "حامد" ويتمنى، فالهدوء يعمّ أرجاء البيت، ولم يعد هناك شجارا، أو صراخا. توجس خيفة فى مستهل ذلك التغير المريب، وكان فى ظنه أنه من تدبير زوجته لأمر فى نفسها. وسرعان ما ينجلى المستور، وتتبدّى الأسباب. ولكن توالت الأيام والأسابيع والحال كما هو عليه !. لعلها رجعت عن عنادها، وعرفت أن الله حق ؟. أوجاءها خالها الطيب ؟. المهم لديه: استتباب الأمن، وعودة الروح إلى الفتاتين. ويبدو أنهما أرادا أن يعوّضا ما أكرها عليه من الفرقة. وما خلفته الخصومة من برودة، وجفاء: إذ عادت "ليلى" تلتصق بابنة عمها طوال اليوم كما كانتا صغيرتين. تقوم على خدمتها طيلة ساعات النهار، وفى الليل تتحاكيان، وتتسامران، ثم تنامان متعانقتين حتى الصباح. كان اليوم يمضى كأنه ساعة، أو بعض ساعة.!

ما الخبر ؟!. يقولون أن الشيخ "بعرور" سرّه باتع. وكم حكوْا عن أعماله التى لا تنزل الأرض، لقد عملت بوصاياه، وجاءت له بكل طلباته، واستنزف ما كل ما تستقطعه من شراء حاجيات البيت، حتى أنها لجأت للاقتراض من هذه وتلك، حتى ضججن منها، وضقن بها ذرعا، ولم يخجلن عن ردّ يدها. كل هذا والأمور جامدة فى محلها. لا تتقدم قيد شبر. وأمست فى واد، وابنتها فى واد آخر، وكأنها نسيت ما اتفقا بشأنه، وباتت وابنة عمها قلبا واحدا. ولم تفكر فى تفريقهما وإلا فسد كل شىء حسب توصية الشيخ. كما أن "عبد الحميد" يتردد على البيت كل حين، والعلاقة تشتد توطدا كل مرة عن سابقها، وليس هناك من إشارة تريح فؤادها، وكأنها لم تسع إلى الشيخ صاحب الكرامات والسر الباتع !.

سألته ذات مرة على استحياء، فهبّ فى وجهها كوابور الجاز :

- . وهل أنا مغسّل وضامن جنة ؟!. لقد فعلت ما يُرضى ضميرى وزيادة، وكله على يدك. وعلى قدر فلوسك. أ و تحسبين الجان على مزاجنا ؟!. حى !. كما أن "عبد الحميد" هذا صعب المراس. الصبر يا امرأة هيّجت الجان: فلا أستطيع صرفه. حى..!

وهمست فى دعة، وتردد مشوب بالخوف والحذر.

- . إلى. إلى متى يا سيدى الشيخ ؟ .

- . إلى أن يتعطف علينا الجان، وكله بأوان. وفُكّى الكيس. حى.!

ثم نادى كنادل حاد الصوت فى مقهى فسيحة:

- . التى بعدها. حى.!

وتهبّ أم "ليلى" واقفة، وما تلبث أن تهرول إلى الخارج بعد أن تفُكّ الكيس! . وكأنها عمدت إلى تطبيق المثل: "رزق البيل على المجانين"!.

جاءت نيابة "عبد الحميد". حسب طلبه فى المبرّة: أى المستشفى بقريته. لم يألُ جهدا، أو يهدأ لحظة، وسعى سعيه، ليفى بوعده، ويحقق حلما تمناه غلاما صغيرا، وداعبه فتى يافعا. وعانقه شابا متطلعا. وبات وأصبح بين علاج المرضى، وإلقاء المحاضرات الدورية، والقيام بحملات التوعية الصحية، وكيفية الوقاية من المرض، بقريته والكفور والنجوع المجاورة على السواء. بدا كبطل أبَى إلا أن يخرج ظافرا فى معركة المصير !.

تيقنت أم "ليلى" من خداع الشيخ "بعرور". أو أن الجان لعب به. المهم أنها استسلمت للأمر الواقع بعد أن باء سعيها بالخيبة، وراح تعبها هباءا منثورا، ومع ذلك لم تنطفئ جذوة غلها، ولم يُخدش عنادها، واشتدت أفكار الشر توهجا فى رأسها ، وفحّت كالأفعى :

- يا للنار التى تندلع فى جسدى !. وإن ضاعت الأيام عبثا ولكن، لم تضِع الفرصة، ولن أدعها تُفلت من يدى. هذا الفلاح الأحمق. أ يفضّل قعيدة لا حول لها ولا قوة على ابنتى ؟!. طبيب يهبُ حياته لكسيحة ؟!. عشنا وشفنا. لكم سهرت وجفانى النوم !. ولكم خططت ودبرت !. وبعد كل هذا؛ تلتهمه ابنة الفاجرة وتهنأ به !. كيف ؟!. على جثتى. لن يتم، ولن يحدث على الإطلاق ! إما أن يكون لابنتى. وإما لا زواج. نعم. لا فرح فى البيت إلا فرح ابنتى والا. وإلا سأحرق قلبه أو قلبها. سأحرق الجميع من أجل ابنتى !.

حاولت استمالة "ليلى" وإرجاعها. ولكن كانت كمن ينفخ فى قربة مقطوعة. وذهب جهدها أدراج الرياح. فوجئت بـ "ليلى" أخرى غريبة عنها!. لقد أصابها سهم الهوى الطائش. وإنها مدلهة فى حب ابنة عمها. ومجنونة بها!.

- ."أنا السبب. أنا التى ألقيت بها فى طريقها. كلّ من صُنع يدى. ليت انقطع لسانى، وشُلت يدى !. لا فائدة منها. سأعتمد على نفسى، والله معى"!.

وأعلنت عن خصام أهل البيت. الزوج الذى يغلّب مصلحة ابنة أخيه على حدّ زعمها، وابنتها التى غررت بها العقرباء !. ولم تشاركهم الطعام والشراب والكلام، وانزوت فى حجرتها كحرباء شوهاء. أراحت وأراحت. قالها العم "حامد" فى نفسه، فلا يهمه أن تستريح، المهم أن يسلموا من لسانها "وابور" المدفع. أمّا تدابيرها، فليعينهم الله بالصبر عليها، والأهم: أن ابنته، ووديعة أخيه سمن على عسل !.

طال غياب "عبد الحميد". قلقت "ملك" عليه. وانسلّ شعورالقلق إلى كل من عمها وابنته. ترى ما الخبر ؟، عساه انشغل فى عمله ؟، ولعل أصابته وعكة؟، أم أنه صرف بصره بعيدا عن المدينة، وناسها، و "ملك"؟!. معقول الأول والثانى أمران واردان. وقد جالا فى خاطر الفتاتين، وتحاورا بشأنهما. والهف قلبيهما !. "ملك" تتلهف على حبيبها وخطيبها، و"ليلى" تتلهف على ابنة

عمها. والعم "حامد ": طاف بباله الأول والثانى. ومرّا مرور الكرام. وتوقف عند الثالث. وشُغل به. بل ترسخ فى ذهنه: كأمر يحدث فى العادة لكل أب أو ولىّ أمر. ليس شكا فى "عبد الحميد". حاش لله. فإنه يعرفه شهما، لا يعرف الغدر طريقا إلى قلبه. ويثق به كل الثقة. ويُقسم عليه. وإنما لأسباب تنأى عنه ما بين المشرقين، إذ بدا فى أعين أبويه عدم لرضا، وأمه على الأخص، فلم تستطع أن تكبح جماح مشاعرها، أو تكبتها فى أعماقها !. وإن التمس العذر لظروف ابنة أخيه. لكنه فى الوقت نفسه: لم يضرب ابنهما على يده، ولم يجرّه إلى بيته و.. وإن بوغت مثلهما. إنها الأقدار، والأمر كله لله وحده.

لا يبقى سوى الأم، التى لم تتوقع سوى الثالث. ليس إلا لأن أم "عبدالحميد" لم تدعه. وظلت تطنّ فى أذنيه. حتى انصرف عنها؛ فكيف لطبيب أن ينتحر ويتزوج بكسيحة تحتاج لمن يرعاها. أ يقوم برعايتها أم يرعى المرضى؟!. ولا بد أنها خطبت له إحدى قريباتها. بل لا بد أنها عجلت بزفافهما. فالعجلة مطلوبة فى مثل هذه الأمور. هذه هى !. ولو كانت مكانها لفعلت ذلك؛ بل لأعلنت رفضها منذ أبصرتها أسيرة المقعد المتحرك. اقتنعت أم "ليلى" بما ذهبت إليه ظنونها. لكم تهلل وجهها، وانشرح صدرها، وجعل قلبها يقفز من فرط السرور !. جاء القرار من علٍ، وانتصرت لها السماء !. لن ترهق نفسها فى تخطيط. أو تقدح زناد فكرها فى تدبير. عُفيت من كل هذا. ومن الأرق. ولن يجافيها النوم !.

استقل العم "حامد" القطار إلى حيث مسقط رأس "عبد الحميد" !، وما زال يردد فى نفسه:

- "الأصيل عمره ما يغدر ولا يجيب ورا. وعُمر الدم ما يبقى ميّة."!

كانت "ليلى" تراقب أمها من طرْف خفىّ. وما أن نامت، وسمعت غطيطها؛

لتخفّ إلى حجرة القعود حيث يقضى أبوها جُلّ أوقاته، نائيا بنفسه عن امرأته، وكافيا خيره شره. كانت دهشته حين أغلقت باب الحجرة، ووضعت إصبعها على ثغرها بمعنى أن يسكت. ما الموضوع ؟!. لا بد أنها تحمل أمرا ذا بال. ورآها تهمس إليه بضرورة السفر إلى حيث "عبد الحميد"، للوقوف على أخباره، مؤكدة بأن "ملك" لا تعرف شيئا، وأنها ترى ضرورة الاطمئنان عليه، فقد يكون مريضا، أو شيئا من هذا القبيل. عاد يتأملها غير مصدّق أن تأتى بكل هذا، بينما هتف :

- ابنة أبيك حقا !.

لقد دفعتها أصالتها، وجذورها الضاربة فى أعماق الأرض والزمن، وحبها المنزه لابنة عمها. بانت على حقيقتها بعد أن سقطت الغشاوة عن بصيرتها. ظهر المعدن النفيس بعد أن أزيل عنه الخبث، وراح ينبئ عن أصالته بِأَلَقِهِ. لم يلبث أن ضمها إلى صدره، وانحدرت من عينيه عبرات الفرحة، وعندئذ قرر السفر !.

ترجّل العم "حامد" من القطار. قصد أحدهم، كاد أن يسأله، ولكنه لم يفعل. تباطأت خُطاه. يا للخجل !. أ يسأل عن خطيب ابنة أخيه ؟. ماذا يقول أهله، وأمه بالأخص ؟. يبدو أنه تعجل فى القرار. لقد غلبت عليه عاطفته، وكان عليه أن يتروّى. التهور يجلب الندم، خصوصا فى مسألة النسب. وكان يجب أن يبصر موضع قدمه قبل أن يخطو. الاندفاع ليس من خصاله، ولا يليق بامرئ فى سنّه خَبِر الحياة. توقف. هل يرجع ؟. وماذا يقول لابنته التى لا بد أنها أخبرت ابنة عمها ؟!. التفت ناحية البيوت التى تتطاول فى أفقها النخيل. إنه لا يُقدم على منكر، بل جاء يطمئن على "عبد الحميد" ليس لأنه خطيب ابنة أخيه، ولكن كصديق أو جار. الواجب يُحتّم عليه هذا. كانت أولى لقاءاتهما بمسجد "الحسين" وفى صلاة الفجر التى كانا يحرصا عليها، ودخل بيتهما ليُسعفه. وهكذا توطدت المحبة بينهما. لم يكن يدرى أن يطلب

يد إحدى فتاتيه. خاصة "ملك". ولكنه اختارها دونا عن زميلاته، ودونا عن بنات قريته و.. قدر ومكتوب لا يعلمه إلا سبحانه جلّ فى علاه. ليست مجرد مبررات ولكنها الحقيقة دون تزلف ولا رياء.

جدّ السير. لقد أصابت ابنته، ولم يتعجل، أو يندفع كالغلمان. "ليلى" على حق. اقترب من المنازل. إنها تذكره بقريته التى تركها صبيا، ولم يزرها إلا لماما، فقد أخذه العمل والأسرة من كل شىء حتى من نفسه. دنا منه أحدهم، سأله عن "عبد الحميد"، ليهتف فى فرحة:

- ."الدكتور عبد الحميد"!.

بداية تبشر بالخير وتبعث على التفاؤل. لم يصف له الدار، بل طلب منه أن يصاحبه. عرفه الحاج "عمر" من أول وهلة:

- . الشيخ "حامد."

وما لبث أن أطبق عليه، وضمه إلى صدره. يا له من عناق !، وكأن أخاه لم يمت. لقى ترحيبا وكرما لم يصادف مثلهما. وبالطبع لم يلتق بـ "عبد الحميد"؛ إذ كان فى المبرّة. تلاشت كل الظنون ! ولكم كبرت ابنته فى نظره: ."ربنا يرزقك بابن الحلال يا ليلى يا بنتى."

فات الموعد، ولم يأت الزوج. لقد خرج مبكرا كعادته، ولم يخبرها أنه سيتأخر. مضت ساعات. ترى أين ذهب ؟!. سألت ابنتها، فردّت بلباقة بين ضحكتها الشقية:

- . وهل أبى صغير يا أمى ؟!. أم تخافين عليه من الظلام ؟. لعله يزور مريضا. والغائب حجته معه.

ردّ لا يُشفى نفسها. تفرست فى عينيها، لعلها تعاير مدى صدقها. أو لتستشف ما تخبئه فى دخيلتها. لكن هيهات. تعلم أنها تراوغها، أو تصرف نظرها عن أمر دبّراه بليل واتفقا عليه. ماذا تصنع حيالها كى تبرئ غليلها؟!. أ

تشد شعرها، وتوسعها صفعا وركلا ؟. أو.. ولكنها أصبحت فرعاء، وفاقتها طولا وعرضا. زرع بدرى. طالعة لأبيها. وكيف تضرب عروسا ؟!، وقد تشمت الكسيحة الخبيثة. أسقطت فى يدها. تنهدت. توعدتها بنظرة، ثم انصرفت؛ حين اتسعت ابتسامة "ليلى" وسرعان ما انطلقت إلى ابنة عمها.

لم يستطع العم "حامد" أن يُفلت من أيدى الحاج "عمر"، وجيرانه، وأقاربه. هذا يُقسم، وذاك يقبض على ذراعه ولا يدعه إلا داخل داره. شعر الرجل أنه بين أهله وعشيرته. وجاء دور "عبد الحميد" فى الاحتفاء بصهر المستقبل. كم كانت فرحته !. ورغم تبرّم أمه؛ إلا أنها لم تفرط فى أداء الواجب، إنه ضيفهم، وواجب الضيف إكرامة، هذه نقرة، وهذه نقرة، وما فى القلب فى القلب، وودّعه نفر غير قليل على رأسهم الحاج "عمر" وكان قد ألحّ عليه بالمبيت، واعتذر العم "حامد". وفى الطريق إلى المحطة؛ انفرد به "عبد الحميد"، ليسأله عن أهل بيته، ويطمئنه العم "حامد" على "ملك". وكانوا قد اتفقوا على كل شىء. وعاد الرجل الطيب، وكان بودّه أن يعود طائرا !.

لم تنم الزوجة مبكرا تلك الليلة. دخل الزوج بعد ساعة من منتصفها. كان استقبالا رائعا، إذ بوغت بزوجته، أو أمّنا الغولة حمراء العينين تقف كعشماوى يتلمظ حين أبصر ضحيته. بان فى عينيه التحفز والتحدى. سألت من بين أسنانها، أين كان طوال اليوم محذرة إياه من الكذب. يبدو أنها ضغطت على الجرح، فإنه ما كذب قط؛ فالكذاب فى عقيدته آثم وجبان، وهو لا يطيق أن يُنعت بهذه الصفة البغيضة، ورأته ينفجر فيها قبل أن تعيد سؤلها، وكان صدقه أقوى من احتمالها: "ماذا ؟!. أين كان ؟!، وهل قال أنه تم الاتفاق على كل شىء ؟!، كما تم تحديد موعد الزفاف. أى زفاف ؟!، ومن التى ستزف إليه. بالطبع ليست ابنتها، ولكنها عروس من قريته :"

- . بل ملك ! ملك ! ملك .!

كادت أن تصمَّ أذناها، وكأن الدنيا بأسرها تردد اسم "ملك" ، هذا الاسم الذى تؤثر عليه كلمة الموت !. كان الذهول قد أخرسها، فلم تنبس بكلمة. ولم تطل وقفة الزوج، إذ كانت لديه مهمة أخرى مع فتاتيه، الذى سهر معهما حتى الفجر. وفى الصباح تصرَ الزوجة "هدومها"، وتدع البيت، ولكن هذه المرة دون "ليلى". شيّعها الزوج بعينين حائرتين بينما سأل نفسه :

- ."من أين تأتى هذه المرأة بكل هذا الغل، الذى سيقتلها يوما ؟."!

أقيمت ليلة الزفاف فى الحارة نفسها وفق رغبة العريس الذى أبى إلا أن تكون فى الحارة التى شهدت مولد حبه. جاء من دُعى بمعرفة "ليلى" وأبيها: من الأهل والصحب والجيران، ولم يخجل "عبد الحميد" أن يدعو أساتذته وزملاءه، وكذا جاء كل من علم بالخبر. كما جاء عدد لا بأس به من عائلة العريس، وكبار عائلات القرية. ولم تصحبهم أم العريس !. أتوْا ليروْا بأعينهم ما لم تصدّقه أسماعهم، وما يفوق التصور والخيال. الحدث الجلل ، وأعجوبة الزمان: الطبيب الذى أحب القعيدة رهينة المقعد المتحرك، وآثرها على البنات جميعا. وكأن الدنيا خلت إلا منها، أو أنه لم يبصر غيرها. أتوْا ليروا العاشق الذى فاق "قيس ليلى"، و"كُثيّر عزة "، و"عنتر عبلة"، و"روميو جولييت"!.رأوْا ملاكين على الأرض، ولم يدع الذهول الأعين، ذهول من الصنف النادر الرائع، ولم يدع الابتسام الثغور والشفاه !.

العم "حامد" لا يصدّق ما تراه عيناه. لقد صان أمانة أخيه الراحل. تحقق الحلم، وانزاح كابوس الخوف. جاء الغد أجمل مما كان يحلم. عيناه تفيض بدموع الفرحة. وكانت "ليلى" على شاكلته. لا تهدأ من فرط الفرحة. فى عينيها دموع. وخوف من المجهول. ستفارقها "ملك" وتدعها وحدها لليالى الفراق الطويلة.

والعريس يبدو قلقا. لا يستطيع أن يرفع رأسه ليرى الخلق؛ فالأعين عليه. أعين لا حصر لها. وكأن المدينة خلت من الناس !. لم يَدْعُ العم"حامد" كل هذا الحشد ! . أمه ليست بينهم، عجبا لأمه، ولكل الأمهات. لا واحدة تؤمن بالنصيب، وكل تختار بعينها هى وحسب ما ترى، وكأن لا عين لابنها ولا رأى، واختياره مرفوض على طول الخط !، وإما تنقلب سحناتهن ويقلبن الدنيا على طريقة " شمشون دليلة " !. والله وحده يعلم متى تعود المياه إلى مجاريها، وقد لا تعود للأبد .

ولم تحضر أم "ليلى"، وكيف تحضر عُرس "ضرّة" ابنتها ؟!. وفى عقيدتها أن زوجها وابنة أخيه، اقتنصا "عبد الحميد" من ابنتها. والمفترض أن عُرس الليلة هو عُرس ابنتها وحَبّة قلبها، ولا تستبعد اتصال زوجها بشيخ سره "باتع"، يستطيع أن يسيطر على الجان والعفاريت ليذعنوا لأمره وسلطانه.!

أقبلت "غادة" بسيارتها التى كانت عجلاتها تنهب الأرض، وتصدر صراخ استغاثة كل حين. والمارة يندفعون قبل أن تسحقهم العجلات، ليندفع من أفواههم سيل من البصاق والسباب. النبض يهز صدرها، ويكاد قلبها أن ينخلع من بين ضلوعها. بلغت الحى الشعبى ذا العبق العتيق. ما زالت تُبغضه. الزحام على أشده. ركنت السيارة. سحبت مسدسها، ودسّته داخل حقيبة يدها !. ترجلت وتلوّت بين أكداس الزحام. اصطدمت بالناس. لم تسلم من لسع الألسن، وتشبثت بزمام أعصابها حتى لا تنفلت، وادخرت شحنتها للحظة الحاسمة !. أخيرا بلغت المرام. وقفت على بُعد تتأمل العروسين من بين الأكتاف والأعناق المُشرئبة. ستخرق رأس الوغد بطلقة. بل بالستة طلقات جميعا. لا، بل ستخرق رأس العروس فهى التى سلبته منها. لا بل، جاء إلى سمعها طرف من كلام غريب. أصاخت السمع. العروس قعيدة !. ماذا ؟!.

عن أى عروس يَصِمُون؟!. يقولون "ملك". "ملك" ؟!. أهى التى على يسار "عبد الحميد"؟. أم يتكلمون عن عروس أخرى ؟!. أ لهذا احتشد الناس ؟!.

شقت طريقا متعرجا بين الجمع. أصبحت قريبة من "الكوشة". لا أحد يشعر بوجودها. بعد لحظات ستتحول إليها الأعين بنظرات الذهول الرهيبة. الجو مكفهر، والوجوه من حولها كالحة، ورائحتهم لا تطاق. بعد لحظات ستفوح رائحة الدم، وتطغى على شتى الروائح. وجه "ملك" يتألق كالقمر فى كبد السماء. إنها لم تر وجه ملاك و.. خطت نحو "الكوشة". وقفت. من هنا تُصيب الهدف و.. ولكن من تختار ؟. من ضحيتها ؟!. هو، أو هى ؟!. العريس، أم العروس ؟!. تأملته. حييّا كما عهدته. خافضا رأسه، إذ لا يستطيع مواجهة الأعين والموقف !. تلفتت من حولها. لا أحد يشعر بها. كل منصرف إلى "الكوشة" حيث العروسين. فتحت حقيبتها، وسحبت مسدسها. خطت نحوهما. أبصر بها العريس. لم يهبت. هبّ من فوره، وعلته ابتسامة خجلى وثناء. مدّ إليها يده. نقلت المسدس إلى يدها اليسرى. صافحته. العروس تُرسل إليها نظرة ودودة كأنها تعرفها. احمرّ وجهها بلون الحياء، إذ لا تستطيع أن تهبّ واقفة كعريسها. دنت منها "غادة" لتصافح اليد الممدودة إليها. صافحتها و.. وانحنت عليها تضمها إلى صدرها !. تبدو مأخوذة. عادت تنقل بصرها بينهما. توقفت عند العريس. رأته عملاقا. أو بطلا أسطوريا. مختلفا أيضا. الاختلاف هذه المرة من صنف آخر. إنه متعدد. ولا بد أن لديه اختلافات أخرى. إنه ينبوع لاختلافات لا حصر لها. وجعبته لا تفرغ !. ابتسمت لهما. وانبرت تعبّر عن مشاعرها بطريقة مختلفة. إذ أمسكت بمسدسها، وصوبت نحو الفضاء، وأطلقت الست جميعا فى الهواء. أفرغت المسدس، وأفرغ السوء من نفسها. أفسح لها الناس. عادت تنقل بصرها بينهم. رأت وجوها

طيبة الملامح. شيعتها نظرات الإكبار. وقفت تتأمل مئذنة المسجد الحسينى. غسلت الدموع نفسها، وبرئت من علتها. ويبدو أنها رجعت إنسانة مختلفة.!

كانت ليلة ليلاء ومختلفة أيضا. حمل العريس عروسه حسب "سلو" أى: عادة أهل الريف. فُض الحشد. وانتشروا إلى كل فج. حلّ الرضا محلّ الذهول. وكل دعى بظهر الغيب للعروسين بالرفاء والبنين، وأن يهدّى الله سرهما. وانطلق ركب العروسين إلى القرية حيث عش الزوجية. أقامه الحاج "عمر" فى طرف القرية. كما ألحق به عيادة وفق رغبة العريس .

طاف الخبر أرجاء القرية حتى بلغ الأسماع. خبر أصاب الأهالى بالأسف والدهشة. وجرت الأحاديث فى كل دار، ولم يكن غير هذا الحدث الذى فرض نفسه. كل يتكلم، وكل يُدلى برأيه، ولا ضريبة على الكلام. أ هذا جلبُ المدينة ؟!. تمخض الجبل فولد فأرا. يا خسارة !. زهرة القرية وزينة فتيانها يدفن شبابه مع قعيدة !. والقرية تعجّ بالجميلات ذوات الحسب والنسب أ لم تعجبه إحداهن ؟!. أ من أجل كسيحة يرفض ابنة عمه، وابنة خاله ؟!.

ومن الطبيعى أن تتباين آراء الأهالى بين كثرة من المعارضين، وقلة من المؤيدين، وبعض نفر من الشامتين. فمن يؤكد أنها من أعمال السحر والشعوذة وكلهن من النسوة والعجائز. ومن يرى أنه ضرب من الشفقة لما يعرفونه عن "عبد الحميد" من رقة المشاعر، ورهافة الحس. وهؤلاء من الأقران والزملاء الذين عاشروه شطرا من الزمن: فى الكتاب، والمدرسة، وفى اللعب. ومن أراح نفسه، ووصفه بالجنون !. وقال العقلاء، وفى مقدمتهم الشيخ "أبو الحسن": الذى استهل حديثه بآية من القرآن الكريم: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا " ثم استرسل: إنها نصيبُه فى الدنيا و. وهل كتب على القعيدات العنوسة؟! وعلى شاكلتها الكثيرات، كما أن الابتلاء وارد بعد الزواج. والقليل من الفتيات الحالمات أصبْن، إذ أيقنّ أنه لفحة من لفحات

الهوى والغرام، إذ أصاب "عبد الحميد" سهم الحب؛ فأغشى بصره، ولم ير فيها سوى الجمال والكمال. والناس فيما يعشقون مذاهب. ثم ما شأن أولئك القوم ليدسّوا أنوفهم فى أمور تخصّ الآخرين ؟!. ولا بد أن نذكر، أن كركعت الضحكات فى داركل من عم "عبد الحميد" وخاله.!

وعموما، لا جدوى من الرغى، واللغو، والكلام غير المفيد. والضحكات الساخرة. "العروسة للعريس والجرى والرغى للمتاعيس". وكلّ يدخر الكلام لنفسه. إن الفتى سعيد بفتاته، وكفاكم من الغيبة، والنميمة، والخوض فى سير الناس، وكل يوفر رأيه لنفسه، فلا أحد يسألكم الرأى والمشورة، والأجدى أن يضع كلّ لسانه فى فمه، وليتق الله. دعوا المُلك لمالك. وقد تحدث المأساة لابنتك أو اختك. من أدراك ؟!. المهم أنه أمر وارد، وساعتها ماذا يكون الرأى؟!.

حين كان الأهالى يقترفون المنكر بالرغى، ولوْك الأعراض ؛ كان الوليفان فى أيكهما، يتناجيان دون كلام، ويرتشفان من نهر الحب الذى يفيض حلاوة وعذوبة. لقد تحققت أحلامهما، وضمّهما عش السعادة والهناءة، وسجدا لله حمدا وشكرا. سهرا، وتمنيا أن يطول الليل إلى الأبد. واحتضنت "ملك الكمان" وراحت تعزف رائعتها : "من أجلك أحببت الحياة."!

لم يمكث "عبد الحميد" فى جنته سوى ثلاثة أيام، ليعود إلى مهمته فى علاج المرضى ومتابعتهم، وحملاته لتوعية الأصحّاء بكيفية الوقاية من ذلك المرض الوحشى الذى يفتك بهم ويؤزّهم أزّا. ولم تتوقف جهوده عند هذا الحد، وإنما اتصل بالمسئولين فى مديرية الصحة، وقدّم إليهم دراسة تتضمن إمكانية القضاء على المرض، بحثوها من كافة جوانبها، وتم وضع برنامجا زمنيا محددا للتنفيذ، وأوصوْا بجدية المتابعة .

لم تكن "ملك" كأى بنت تعلمها أمها كل شىء عن شئون الحياة الزوجية، قبل أن تنتقل إلى بيت "العَدَل". وكلنا نعلم أنها فقدت الأمومة وهى طفلة فى

عمر الزهور. كانت تجهل كل هذه الأمور، وقد أحالت ظروفها دون ذلك، وبالطبع لم تفكر امرأة عمها فى تعليمها، لقناعتها الشخصية، وحكمها القاسى بأنها ستقضى عمرها على هذا المنوال، ولن تكون ربة بيت يوما !. وكأنها اطلعت على الغيب. هذا بجانب حقدها، حيث فاقت تلك الكسيحة ابنتها أنوثة وجمالا. وفى مستهل حياتها الزوجية ساورها القلق، أن تُمنى بالفشل كزوجة تخدم زوجها وبيتها، ولكن يبدو أن النسوة من الجيران تحسّبن ما ذهبت إليه، فأشفقن عليها، وكل اعتبرتها ابنتها، كما أنها عروس "الدكتور عبد الحميد" اللاتى يحببنه كأبنائهن، فلم يدعنها نهبا للوساوس التى انتابتها، وما لبثن أن خففن إليها، ليقدمن إليها المساعدة، ويتعهدنها بالتدريب والتعليم بما يؤائم ظروفها. لقد عوضها الله بالخير العميم، فكانت كل منهن بمثابة أم حنون لها! ولكم أحببنها، لدماثة خلقها، ورقتها، وخفة ظلها، وحكاياتها المسلية عن المدينة الكبيرة التى لا تنام.

وكذا؛ لم تدعها "زينب" أخت "عبد الحميد"، فكانت تتردد عليها كل يوم من أجل عينىْ أخيها الوحيد، فتقضى معها بعض ساعة، تعينها فى قضاء حاجيات البيت، وكانت تخف إليها من حين لآخر لتقضى معها شطرا من الليل؛ بينما يكون "عبد الحميد" مشغولا بمرضاه فى عيادته. وقد أنست بها "ملك"، ووجدت نفسها تفضى إليها بما كابدته من زوجة عمها على مدى سنين، وكيف احتملت وعمها صنوف الشقاء والمرارة والأسى، بما لا يطيقه الصناديد. حتى كافأهما الله على صبرهما؛ حين بزغ "عبد الحميد" فى أفق حياتها، ليبدد عنهما ظلام المحنة، ويُزيل من قلبيهما الخوف من غدر الأيام. وكان بمثابة البطل الذى انتشل فتاته من براثن الوحش الذى كاد أن يفتك بها. كان هبة الله ومنحة القدر إليها. وأبدا ما راودتها نفسها أن يقع فى هواها، ويغرم بها، ويحبها كل هذا الحب. أو أن يتشبث بها ويختارها شريكة حياته،

وإنها مدينة له بعمرها، وروحها. ومهما قدّمت لن تستطيع أن تفيه بعض حقه. وتسأل الله أن يُعينها على الوفاء بالدين الكبير. كما أنها لا تغالى حين تؤكد أنها لا تستطيع أن تقدّر مدى حبها له. الذى يعد أضعافا مضاعفة لحبها لنفسها. ولأن الحديث مصدره القلب. فكان مساره إلى قلب "زينب" التى جرّبت تباريح الحب وتعرف معناه. ونسيت أنها فى ضيافة قعيدة، بل فى رحاب ملك من السماء. ورأتها "ملك" أختا لها لم تلدها أمها .!

والحقيقة التى لا مراء فيها أن "ملك" وقعت فى قلب الحاج "عمر" كإبنته. وكان أبا لها بكل ما تحمله الكلمة من معان. ويزيد عليه إشفاقه عليها نظرا لظروفها ويُتمها. ويشهد الله أنها قبعت فى قلبه منذ أبصر بها. كما أنه قرأ سعادة ابنه. وماذا يبغى كل أب لأبنائه وبناته سوى السعادة ؟. وممن يستمد الوالدان راحة البال وسعادة القلب ؟: إلا من فلذات أكبادهما. وحبّات قلوبهما. وكان يجد الراحة فى رحاب عروس ابنه. وكثيرا ما كان يسعى لزيارتها والاطمئنان عليها. ويقضى الساعات فى تبادل الحديث معها. ولقد بادلته "ملك" الحب. وراحت تحمد الله على نعمه وهباته وتبتهل إليه أن يمنحها القدرة على رد المعروف .

دأب "عبد الحميد" على النشاط. وحرصه على أداء واجبه على خير ما يكون. فيصحو كعادته ليؤدى صلاة الفجر بالمسجد. حين تُعد "ملك" الطعام. ويتناول إفطاره على عجالة. وسرعان ما يتوجه إلى عمله بالمبرّة. وما يلبث أن ينبرى فى مهامه. بين الكشف على المرضى. وحقن المصابين بالبلهارسيا. وفحص العينات بالمعمل !. وتدوين النتائج سواء بالسلب أو بالإيجاب. وبعد الظهر يواصل توعيته للأهالى"بالوسعاية" أمام المسجد الكبير. ويعود ليلتقط بعض لقيمات. ويستريح بعض ساعة فى البيت. وإذا ما جنّ الليل. يخرج لاستقبال المرضى فى عيادته. وقد يمتد العمل إلى منتصفه.

ورغم أنه يعود مكدودا، إلا أنه كان يقضى بعض الوقت فى مكتبته بين الكتب والمراجع. وكان يتقاضى أجرا رمزيا يُقصره على الموسرين. ولا يسأم طوال ساعات عمله سواء بالمبرّة أو العيادة، ويعامل الأهالى بالحسنى، ولا تدع الابتسامة شفتيه.

إلا أن الملل زحف إلى مشاعر "ملك" !، رغم انشغالها طوال ساعات النهار، وتزايُد عدد الزاحفين إليها، والمحبين لها، والملتفين حولها؛ بما أنسوا فيها من خفة الروح، وحلو اللسان، وعذوبة الكلام، ليغفلوا مصابها، ويغضوا الطرف عما ألمّ بها، وكان قد تكفل دوران الأيام وانصرامها: بتخفيف حدة الصدمة التى منيت بها أم "عبد الحميد"، وتهدئة لوعتها، واستسلامها للنصيب؛ خاصة وأنها استشعرت سعادة وحيدها، وما سمعته عن "ملك" من أنباء طيبت خاطرها وأماطت عنها أسباب الهم، وأزالت من نفسها الكرب والغم، كما فكرت فى حال المسكينة، وما أحاطها من بلاء. ويبدو أن غلبت عليها عاطفة الأمومة، أسمى العواطف والمعانى. وذات صباح تفاجئ صنو حياتها بما جلب إليه السرور، إذ تعلن عن اشتياقها للعزيزة "ملك"، وتطلب رفقته إليها.

والحقيقة أنها لم تكن مفاجأة للرجل، إذ كان على يقين من سماحتها وطيبة قلبها، وأنها سترجع يوما. ورأوْه الأهالى يصطحبها شطر بيت "عبد الحميد"، وبديا كعروسين فى مستهل شهر العسل !. لم تصدّق "ملك" عينيها التى غشيتها الدموع، وانطلقت إليها بدراجتها، لتنحنى الحماة عليها وتضمها إلى صدرها. شعرت بقلب "ملك" الذى يتواثب، كما يتواثب الحَمَل حين يُبصر أمه! لتشهق هاتفة:

- . حبيبتى يا بنتى !.

ويضحك الحاج "عمر" ضحكة خفيفة، بينما يمسح الدموع التى تقاطرت من عينيه، وتنفس فى راحة، ثم تمتم داعيا الله وشاكرا:

- . اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على الحق. اللهم أعنّا على ذكرك، وشكرك وحسن عبادتك.

وكانت أسعد مفاجآت "عبد الحميد". وأى فرحة غمرته !. ويا لها من خطوة عزيزة !، وإن تأخرت بعض الوقت. ولكن كل بأوان. وقد باركها الجميع. إلا أم "وداد". التى لم يدع الغل قلبها منذ رفض "عبد الحميد" ابنتها، بل كان يتنامى كل يوم ويشتد سعارا. ويكدر صفوها كل ما يُسعد خصومها، وتتمنى لهم التعاسة والشقاء. وكان خال "عبد الحميد" وزوجته وابنتهما على الوتيرة عينها، واعتبروا زيارة الأم لابنها تأييدا، بما يزيد اللدد فى العداوة والبغضاء. وليعدّه لأخ مبررا لحرمان أخته من ميراثها الذى كان فى حوزته: أرضا وحُجّة.!

ربى !. وأى ملل يتسلل إلى "ملك" بعد ما اكتملت حولها كل أسباب الراحة وإثبات الذات ؟!. ماذا تبتغى بعد كل هذا ؟! وفيم تطمع ؟!. وأى سبب للملل؟! الحقيقة أنها سئمت بُعدها عن الحبيب !. فهى تراه كطيف. يصحو لينطلق إلى العمل، ويعود مرهقا ليرتاح قليلا، وما يلبث أن يخرج إلى العيادة، ويرجع مكدودا، ويتناول عشاءه: كعكة، بينما يطالع بحثا أو كتابا، وقد لا يتمّها !. ثم يهرول إلى الفراش وسرعان ما يروح فى السبات !. تراه متعبا، أو مشغولا عنها. كأنها لا تراه !.

وتسترجع الماضى. كان يطل عليها من النافذة. يتناجيان دون كلام، ويتفاهمان بالنظرات. بضع دقائق، كانا يختلسانها من الزمن والناس !. كان لها بكل قلبه وعقله وكيانه، وكانت الدقائق معه: زادا يكفيها عمرا. وإنه فى حاله هذا؛ معها وليس معها !. ليست بهذا تودّ أن تستحوذ عليه دون أداء رسالته، وإثبات ذاته. وليس معناه أن تهيمن عليه، وتستفرد به، بل إن انغماسه فى عمله يزيد الحب حبا، ويُضفى عليه التقديس والإجلال. كل ما فى الأمر أنها تفتقده ردحا من اليوم، ولا ترى فيه عيبا، أو تقصيرا. بل إن حبها

إليه متناميا مع كل لحظة، ولا سقف له، ولا نهاية. التقصير منها، والعيب فيها إنها لا تبرّئ نفسها، وإنها مسئولة عن الخواء والملل الذى أصابها. وأبت "ليلى" إلا أن تطل من فرجة الذكريات. كانتا ملتصقتان، ويمضى اليوم كأنه ساعة !.

الملل يزداد كل يوم عن سابقه، حتى طواها. غلبها وبان عليها، رغم بذلها فى دفعه وكبته. سألتها "زينب" أقرب الناس إليها بعد "ليلى". زاغت منها، ولم تقل شيئا. لم ينطل على "زينب" ، وانتابها مزيج من الدهشة والحيرة. فى انشغاله لم يلحظ "عبد الحميد"، ولكم خافت أن يلمح خطوط الملل فى محياها، وليس الخوف إلا عليه. يجب أن تفتش عن حل. عكفت تفكر علها تجد الحل. لم تمكث طويلا. وسرعان ما انبسطت أساريرها، واختفت خطوط الملل، وعاد إلى محياها البهاء !.

انتظرت عودته على هجير الشوق. طالعته ابتسامة على ثغرها، ونظرة تحبس كلاما. ما الخبر ؟!. الحبيب لا يملّ حبيبه، ورهن الإشارة دوما. وأفصحت عن بغيتها. استعاد كلامها. تأمله بعقله. سمع دقات قلبها تنبئ عن الخوف. خشى عليها. اتسعت ابتسامته، مع نظرة عتاب، وقالت عيناه :

- ."تخشين أن أردّ سؤلك وأنت روحى !. فداك حياتى وكل عمرى."

وما لبث "عبد الحميد" أن بدأ الدرس. وحصة وراء حصة، ودرس بعد درس، استوعبت "ملك" كل كلمة نبس بها الأستاذ، ذلك الذى انبهر بذكائها وسرعة فهمها. عقد لها الامتحان. نجحت التلميذة النجيبة بامتياز. وشاهد المرضى "ملك" السكرتيرة والممرضة؛ تدوّن أسماء المرضى فى دفتر الاستقبال، أو الاستشارات. يدها خفيفة فى الحقن، ورقيقة فى الغيار. وفوق كل؛ تعلوها ابتسامة شيقة تنشرح لها القلوب !. وبدت العيادة كأنها جنة يجوب فى رحابها ملكان، أحدهما ينطلق على عجل، ويبث فيها الوُد، والدفء. تمنت "ملك"؛ أن تكون قريبة من حبيبها، وزوجها، وأستاذها. واستطاعت أن تحقق مأربها

بالعزيمة والإصرار، فلا عقبة تعترض العاشقين، ولا مستحيل لديهم. وكل يهون طالما من أجل الحبيب.!

كانت "ملك" كالنحلة الشغالة، تلثم هذه الزهرة، وتعانق تلك الوردة. دائبة لا تكل، ولا تتوقف عن عملها. لقد أكدت ذاتها، وأثبتت جدارتها فى الحب والحياة، ورأى فيها "عبد الحميد" خير عوْن فى أداء رسالته، وما أحب إليه أن تكون روحه على مقربة منه، ومحط عينيه !. وهكذا ذهب عنها لفح الشوق، وارتد عنها الملل إلى غير رجعة، وحينئذ زالت عن "زينب" الدهشة والحيرة، وبدت "ملك" فى عينيها أطول وأكبر وأبهى، وكأنها وافدة من السماء.!

تألق نجم "ملك" فى سماء القرية، وجابت أخبارها القرى والكفور المحيطة، فوفد الناس إلى العيادة من كل فج، يسبقهم الشوق للقاء "ملك". ولقاء زوجها الذى لا بد أنه ملاك أو بطل، غلب عليهم حب الاستطلاع، وكان أكثر أهمية من الكشف على المرضى !. واشتد الزحام فى العيادة، وذاع صيتُ "عبد الحميد" ، وبلغت شهرته الآفاق. وهكذا تحققت نبوءة الأب، وثبت فيه حديث الصادق الأمين سيد الخلق: "اتقوا فراسة المؤمن: فإنه يرى بنور الله."

ومن الأخبار ما يزلزل، ويفزع، ويكاد أن يقتل !، إذ سرت، بل طارت، وما أسرع طيرانها إلى جب الحقد، وما أشد لهيبها فى قلوب الحاقدين !. لم يغمض جفن أم "وداد"، وحاق بها السهد، وكأنها تفترش الشوك، تتضاغط ضروسها، وتفحّ فحيح الأفاعى، عيناها ذاهلتان تقطر الشرر، وراحت تفتش فى جعبة السهام المسمومة، ثم عكفت تدبر مكيدتها.

وذات ليلة باردة معتمة، والريح عاصفة، والناس نيام كالموتى !. اشتعلت النيران فى العيادة، وسرعان ما امتد لهيبها واستطال وكأنه ألسنة الشياطين! كان بعض الفلاحين عائدين من غيطانهم بعد سقيها، وما أن شاهدوا النيران، لتنطلق سيقانهم نحو بيوت القرية، وهم يصيحون ويزعقون :

- . حريق !. حريق !. حريق !.

هبّ الأهالى من نومهم فزعين، وما لبثوا أن خرجوا من ديارهم، وانطلقوا نحو النيران، بينما ترددت أصوات :

- . فى دار من هذا الحريق ؟.
- . فى عيادة الدكتور عبد الحميد.!
- . الدكتور عبد الحميد ؟!. لا حول ولا قوة إلا بالله.!
- . منهم لله أولاد الحرام !. منهم لله.!

صحت القرية ويمّم الجميع شطر العيادة، وفى ركابهم العمدة وشيوخ الكفر. ليس هناك من يتكاسل، أو يتناوم، الأهالى على قلب رجل واحد، فالكارثة على البلدة كلها، والكأس دوّار. وكان قد هبّ "عبد الحميد" و"ملك" من نومهما، وقد تملكهما الذعر. فتُحت الأبواب على مصاريعها، وبدا الأهالى كخلية نحل: فريق يشغّل المضخات، وفريق يتناوب أفراده أسطال المياه؛ فى صف ينتهى عند العيادة، حيث الفريق الذى يسكب المياه على النيران. والكبار يوجّهون. خبرة أجبرتهم عليها ظروف الحياة. تعددت الصفوف، وتوالت الأسطال، حتى خبت النيران وأخمد الحريق. وافترش الأهالى الأرض هنا وهناك لاهثين واجمين. وكالعادة، جاء ضابط النقطة بعد فوات الأوان، وبعد إلقاء نظرة على العيادة التى أكلتها النيران عن آخرها، وتأكد له أنها بفعل فاعل، وتم سؤال "عبد الحميد" الأسئلة الروتينية، وبالطبع لم يتهم أحدا، مؤكدا علاقته الطيبة بالأهالى، بل إنه يستغرب وقوع الحادث، ويكاد ألا يصدق عينيه !. كما سئلت "ملك"، واستبعدت أن يكون أحدا من الأهالى وراء الحادث. وبررت بأن "عبد الحميد" ابنهم، والعيادة ملكهم، فكيف يدمرون أشياءهم ؟!.

حاول الحاج "شحاتة" أن يخرج إلى حيث الحريق، ليقف بجوار أخيه، كعادة أهل الريف فى التكاتف فى شتى الأمور، والملمّات على الأخص :

- . حتى هذه أيضا !.

- . وماذا ستصنع ؟. أ تشغّل المضخة، أم تحمل الجردل ؟ .

- . ولم لا، المشاركة واجبة، وكلنا معرّض لمثل هذا. الناس لبعضها. لا تعطليني يا امرأة. دعيني !. ستأتى النار على العيادة.!

- . وما شأننا ؟!، فلتحترق العيادة والدار، وكل ديار"أبو سالم ."

ولم يُفلح أن يتخلص من يدها التى ماتت على يده، ومع ذلك خشيت أن تفتر عزيمتها، وتصاب بالوهن، فمضت فى تهديدها:

- . والله فى سماه يا شحاتة يا ابن وصيفة، لو خرجت، سأصرخ، وألمّ الدنيا، وأفرّج الناس عليك .

يعرف "شحاتة" أنها متهورة، ولا تتوانى، أو تستحى أن تفعل ما تقول، آنئذ هتف فى تراخ وفتور :

- . و.. وماذا يقول أخى ؟!. وماذا يقول الناس عنى ؟!.

بمعنى: أنه رضخ، ورفع الراية البيضاء، عندئذ حررته، ومازالت تنظر إليه شزرا، فقد تسوّل إليه نفسه بالعصيان !.

كلّ يضرب كفا بكف، وكل يتساءل: من وراء هذه الفعلة الشنعة ؟!، ومن ذا الذى يُقدم على حرق ماله على حدّ رأى "ملك" ؟!. من يفقأ عينه بإصبعه ؟!. هناك فاعل دون جدال؛ فالشياطين لا تحرق البيوت، ولم تنزل النار من السماء !. يا الله !، فمن الفاسق الذى مات ضميره وفعلها ؟. من له مصلحة فى أذى الناس ؟!. أصابع الإتهام لا تشير نحو أحد، والشك لا يخامر نفسا، فمن الذى يُبغض "عبد الحميد" ؟!، ومن ذا الذى لا يحب "ملك". أو حتى لا يُشفق عليها ؟!. من ذا الذى يمقت هذين الملاكين، اللذين أضفيا على ربوع

القرية الدفء والبهاء ؟!. وكذا، طافت هذه التساؤلات فى ذهن الحاج "شحاتة". استرق نظرة إلى امرأته. يعلم أنها تكره دار أخيه بمن فيها: أشخاصهم، وأسماءهم؛ حتى الطيور !. فإذا طارت بطة أو دجاجة، وحطت فى دارها، فلا تُعيدها، وتضمها إلى طيورها تحت شعار: "كل ما يأتى من عندهم فائدة، ثم إن الطيور هى التى أتت بإرادتها"!.إنه لا يفترى عليها، فإنها أم أولاده على الأقل، وهى تجاهر بكراهيتها تحت عينه وسمعه منذ الخصام الكبير. وتشتد كراهيتها لـ "عبد الحميد" وكسيحته وهذا مفروغ منه. ولكن لا يجول بخاطر الحاج "شحاتة"، أن يصل المقت لحدّ اقترافها هذه الفعلة الشنعاء. مستحيل بالطبع. ولا غرابة فى شماتتها، وانشراح صدرها. وبشأن الحاج "عمر"، فقد تماسك، ولم يفقد صبره وإيمانه، أو يصبّ لعناته على أحد، وكل ما فعله أن استغفر الله، وحوقل ، ثم رفع يديه إلى السماء، وهتف بملء فمه ومن أعماقه قائلا: "اللهم صبّرنا على ما بلانا. حسبنا الله ونعم الوكيل، وأفوّض أمرى إلى الله، إنه نعم المولى ونعم النصير ."

لم تدع "ملك" زوجها نهبا للحزن والهم، وراحت تبث فيه العزم. ليست العيادة كل شىء. نعم خسرناها. الخسارة ليست فادحة، فلم نخسر أنفسنا. إنه محرد ابتلاء، ويجب ألا نستسلم لليأس. يبنى العصفور عشه: قشة من هنا، وقشة من هناك، وما أن يكتمل العش، لتغدر به الريح وتبعثره أشلاءا !. ولا ييأس العصفور، ولا يستكين ليندب حظه، ولكنه ينهض ليجمع القش من جديد؛ قشة من هنا، وقشة من هناك، بينما يشدو أنشودة الأمل. إنها ليست رواية من بدع الخيال وبنات الأفكار، أو حكاية من حكايا التراث، ولكنها حقيقة تحدث كل يوم، وأنّى للأحزان أن تحل المشاكل، أو ترجع الذى راح. الحور العتيق لا يؤثر فيه العواصف والأعاصير، ويظل منتصبا يصارع الزمن .

وفى الصباح، خف الشيوخ إلى الدوار، وكان العمدة فى انتظارهم، وما لبثوا أن سعوا إلى بيت "عبد الحميد"، الذى رحّب بهم. وفى حضور "ملك"

عرض عليه العمدة ما قرروه بشأن إقامة العيادة فى البيت الملحق بالدوار. لحين قيامهم بإزالة آثار الحريق من عيادته، وإعادة تأثيثها إلى افضل ما كانت عليه. وأدلى الشيوخ كل بدلوه، مؤكدين أنها كارثة على القرية والأهالى. كانت "ملك" تتابعهم فى دهشة، وكأنها لا تصدق أذنيها. لقد بدوا فى طيبتهم وصدقهم وكأنهم ملائكة هبطوا من السماء، أو أنهم وفدوا من كوكب آخر. وحانت منها التفاتة إلى زوجها، وهى على يقين أنه لن يقبل العرض، ويمنعه الحياء من البوح. ولم يخف ذلك على الضيوف الذين تلاقت أعينهم. ثم التفتوا إلى "ملك". ويبدو أنها لم تقف على مغزى نظرتهم. فما لبثت أن أدارت عجلتها، لتعلوهم الدهشة، وليستوقفها العمدة:

- على فين يا ملك ؟!. هوّ انتى غريبة . دانتى بنتنا واكتر. ومنوّرة البلد ده دى!.

وعاد يوجّه كلامه إلى "عبد الحميد :"

- شوف يا عبد الحميد يا ابنى، اللى قبلنا قالوا: اللى ما بيشوفش م الغربال يبقى أعمى. صح القول يا رجالة ؟ .
- صحّ يا جناب العمدة .
- هوّ صحّ وبس، دا عين العقل .

ويستطرد العمدة:

- واللى بيزمّر ما بيخبّيش دقنه، وانت يا ابنى، عملت اللى عليك وزيادة. ذاكرت، وتعبت، وحققت أملنا فيك، وبقيت دكتور قدّ الدنيا، دا غير ما ضحيت بالأستاذية اللى بيقولوا عليها دى، عشان ولاد بلدك، وادينا شايفينك انت وملك بتتعبوا قدّ إيه وما بتناموش الليل يا ولداه. الدور علينا احنا بقى.
- واللا هتكسر كلامى .

عندئذ رفع "عبد الحميد" رأسه ، وقد أخذ. وما لبث أن اندفع يلثم يد العمدة، هاتفا فى حرارة وصدق :

- . وحدّ يكسر كلام أبوه !.

- . هوّ دا الكلام. يسلم فمّك يادكتور.!

الأمر مختلف فى القرية. فكل عائلاتها: أقارب، وأصهار، وأنساب. وهم كالجسد الواحد، إذا أصابت أحدهم ملمّة، فقد أصابت الجميع. وهم يد واحدة، وعلى قلب رجل واحد. فهم متقاربون ملتصقون فى السراء والضراء، والأفراح والأتراح. لا أحد يقف وحده، ولا أحد يشعر بالبرد. مجتمع القرية متضافر، وفى التضافر قوة ومنعة، وفى الالتحام حب ودفء. وفى القرية أصالة، وشهامة، واحترام للكبير. هذا ما شهدته "ملك"، و"عبد الحميد" لبنة فى الجدار الهائل، وفرد من هذا المجتمع. نشأ بين أهله، وتربى فى ربوعه، وأخذ منه كل شىء؛ فسرعان ما امتثل لكلام الكبار، وفتحت العيادة فى إحدى ديار العمدة. وأقبل الناس من كل مكان. ولعلهم كانوا يتلقون العلاج، ويلتمسون البركة. وبلغت شهرة "ملك" و"عبد الحميد" الآفاق، وبدت العيادة مبرّة ومزارا !. وخلال بضعة أيام، أزيلت آثار الحريق، وبدت العيادة أجمل مما كانت عليه. ورجع "عبد الحميد" إلى عيادته، ووليفته.

وبشأن الحادث، فقد تم تحويل محضر الشرطة للنيابة، التى أمرت بالتحريات والبحث عن الجانى، وبالطبع، لم تُسفر التحريات عن شىء، أو أنها لم تُجْرَ أصلا، وحفظت القضية، بعد أن قيّدت ضد مجهول.

على مدى أيام طويلة، لم تتوقف الأحاديث فى كل البيوت والدور حول حرق العيادة، واستبعدوا أن يكون مرتكب الجريمة من الأهالى، أو من الأجراء الذين لا تخلو منهم دارا. ولا بد أن يكون من خارج القرية. ويعودون فى اللحظة نفسها إلى نقطة الصفر، فأى مصلحة لمن يقترف هذا الإثم ؟!، ولا ضغائن لـ

"عبد الحميد" أو "ملك" فى القرية أو خارجها: إلا أن يكون حقدا وحسدا و.. وهل يبلغ الانتقام هذا المبلغ البشع ؟!. وتنتابهم الحيرة، ولا يملكون إلا أن يسكتوا على مضض.

إلا أم "عبد الحميد"؛ إذ كان لها رأى آخر. تمليه أحاسيسها، وعقلها. وتجزم بأن "سلفتها" وراء تلك الفعلة، ولا تستطيع بالطبع أن تُقيم حُجتها على الأحاسيس. ولكن على حدّ قولها: "ربنا عرفوه بالعقل". فهى التى دعتها فى حنّة ابنتها، ثم طردتها بأسلوب غاية فى الإهانة، وبشكل منقطع النظير. ولم يحدث، أو حتى سُمع به. وإن تناساه الجميع، فهى لن تنساه، وسيبقى أثره فى أعماقها، ولن يندمل جرح كرامتها، وسيظل ينزف حتى الموت !.

وتؤكد أم "عبد الحميد" أنها حاقدة على ابنها، وأن الحقد لا يغادر قلبها. وتدلل بأنه مضى على زواج ابنتها "وداد" سنين، وقد ولدت مرتين، و"سقطت " أخرى، وحامل للمرة الثالثة، وبطنها أمامها "كالزلعة" !. وما زالت تلك المرأة فى خصومة وعداء، وقد حرّمت على نفسها وكل من يمت لها بِصلة؛ دخول دار الحاج "عمر" وبيت ابنه، وابنته؛ فى كافة المناسبات الدينية والاجتماعية. كما فرّقت بين الأخوين. حتى أن أحدا لم ير زوجها مع الأهالى يوم الحادثة. ولا بعدها. ومن فى قلبه كل هذا الحقد والغل، لا يتوانى عن حرق العيادة. أ لا بد أن نرى الفاعل، وهل يرى القاضى الفاعل ؟ ولو كان هناك من يرى الجانى، فلن يدعه؛ حتى يرتكب جنايته، وما تمت الجناية من الأصل. ثم ما فائدة القرائن ؟!.

إن أم "عبد الحميد" على يقين أن "سلفتها" هى التى دبّرت حرق العيادة بدافع الانتقام. وبالطبع كنّته فى نفسها، ولم تشأ أن تظهره على أحد، أو تلمّح به لقريب أو بعيد وإلا شبّ حريق فى البلد كلها لن تنطفئ جذوته للأبد.

وذات ليلة من ليالى الشتاء القارصة، كانت الرياح هائجة تثير الأتربة، والرعد لا يهدأ عن القصف. وكان الأهالى قد وقوا أنفسهم شر الصقيع، وناموا مبكرا؛ بعد أن نالوا قسطا من دفء النيران التى يضرموها كل ليلة، إلا بيت "وداد" فلم يطأ الكرى أجفانهم، إذ شعرت الزوجة الشابة بآلام الولادة. وسرعان ما أخبر الزوج أمه؛ التى أرسلت بدورها للقابلة، وما لبث أن طار إلى حيث حماته التى تأففت، ولم يسلم من لسع لسانها :

- . فى هذا الجو البارد ؟!، أ لن يأتى الصباح؟!.

- ."ماذا أقول لها ؟!. وماذا بيد المسكينة ؟!. كل بميعاد"!.

بالقطع، لم يجاهر بالقول، ولكنه جرى على لسان حاله !. لتعود لبذاءتها: . وأين "الدّلعدى" أمك. نائمة فى العسل؟!.

- . كلا، بل أيقظتها قبل ان .

- . أمّال عايزها تنام ؟!. اسبقنى .

وأطلق الفتى ساقيه للريح قبل أن تغير رأيها، أو تواصل تعليقاتها الموجعة. ثم عادت إلى حيث زوجها وجعلت تهزه كما تخضّ قربة اللبن !، ليهبّ من نومه مذعورا، وفاجأته بالخبر قبل أن يصب عليها جام غضبه، فأمسك الرجل بزمام أعصابه، وراح يستغفر الله. ثم اصطحبها على مضض .!

كان الثالوث الحريمى حول فراش "وداد" كل منهن تقوم بدورها، وخارج الحجرة، كان زوجها يروح هنا، ويغدو هناك، كالتائه الذى ضلّ الطريق. والحاج "شحاتة" لا يملك إلا أن يرفع كفّى الضراعة نحو السماء، ويتمتم بما يحفظ من الدعاء. ولم يكن الأب أو الجد كلاهما يدرى بالصغير المنكمش، الذى يغط فى نومه، وقد انحسر عنه الغطاء. جاءت صرخة حادة؛ انشق لها قلب الأب والزوج. وصرخة أخرى، وثالثة. كلها محشرجة؛ كأنهم يشنقوها !. ثم أعقبت بصيحة من الأعماق :

- . الحقونى ..!

ليعلو صوت الأب :

- . استر يا رب ..!

ثم فتح الباب على عجل ، وخرجت الأم والقابلة فزعتان، لتهتف الأم :

- . الحقنا يا شحاتة. البت هتموت !.

بهت الرجل وامتقع لونه وعملت يدى الزوج لطما على خديه، لتضيف القابلة :

- . المولود نازل برجليه. لازم دكتور .

- . دكتور !. من ؟.!

- . الدكتور عبد الحميد وهوّ فيه غيره.!

انقلبت سحنة الأم، وكأنها رأت ملك الموت:

- . إلا عبد الحميد ..

وكان الدم قد اندفع فى رأس "شحاتة"، فلم يتوان، ليهوى بكفه على صفحة وجهها، قائلا :

- . ولا كلمة. الدور علىّ المرة دى. مرّة من نفسى. إنتى طالق يا جميلة يا بنت ستبوها .

همست الأم كأنما تكذب أذنيها:

- . طالق ؟.!

- . وبالتلاتة .

لعب لسانها، وكادت أن تفتح فمها، ولكن كمن أصابها البكم، إذ رأته صارما حانقا، والشرر يتطاير من عينيه. رأته رجلا آخر غير "شحاتة" الذى تعرفه كانت هى التى تتدلل عليه وتستفزه، وتهدده بطلب الطلاق. مجرد تهديد. وكان يخضع ويخشع. هو الذى حلف هذه المرة. ويبدو جادا، ويعنى ما نطق به. يا للكارثة !. فى هذه السن ؟!. فى أرذل العمر، وعلى أعتاب القبر !. ما

زالت ملامحه تنطق بالصرامة. يبدو كأسد. كان كالحمل الوديع. ما باله انقلب ويبدو كوحش متحفز ؟!. عندئذ لم تتوقف لحظة، وانسحبت كالفأر الذى يولى هربا قبل أن يهجم عليه القط. فرت من أمامه، ولم تشعر بالبرد! وتنفس "شحاتة" فى حرية، بعد أن أزاح الكابوس الذى جثم على صدره السنين !. ويمم "شحاتة" شطر العيادة .

هرول "عبد الحميد" إلى الداخل تاركا عمه بالباب، وسرعان ما أيقظ "ملك"، التى هبت من نومها فزعة، وأخبرها بالحالة، وطلب منها أن تجهز لاستقبالها. ثم هرول إلى الخارج. وما لبث أن أدار سيارته ، وانطلقا إلى حيث دار "وداد". أدارت "ملك" دراجتها، وراحت تحدث نفسها :

- . حالة ولادة متعسرة !. "وداد" ابنة عمه ؟ .

لقد سمعت عنها من النسوة، وعرفت أنها كانت مخطوبة لـ "عبد الحميد" منذ كانا صغيرين. وقد رغبْن، وبالغن، وأضفن من لدنّهم الكثير، كل حسب هواها، ورؤيتها ودرجة الحقد فى فؤادها. لا ضابط عندهن، ولا رابط لألسنتهن، ولا رادع، ولا رقيب. إذ أن "ملك" غريبة، ولا يُخشى جانبها .

وبشأن "ملك"، فلم تكن على شاكلة معظم النساء اللاتى تتملكهن الوساوس، وتأكل الغيرة قلوبهن، فيمرّرن العيش، ويقلبن الحياة على رءوس بعولتهن. كانت صنفا مختلفا، وكانت تحكم عقلها، ولم تشأ أن تكدر صفو زوجها وتوأم روحها، ولا أن تضيع وقته بأمور تستخفها، وتعدّها بمثابة حكايات للتسلية. وكان كل ما يدعو لقلقها، أنها لم تصادف حالة ولادة، إذ كان الأهالى يعتمدون على القابلة. فما بالك بولادة متعسرة ؟!، وفى هذا الجو العاصف. كما أن الأمر بالغ الحساسية، لذلك السبب الذى أسلفنا. وراحت تشغل نفسها بإعداد الأدوات وتطهيرها. ولسانها لا يكف عن الدعاء بالستر. وأتى إلى سمعها نفير السيارة التى أخالته صياحا: "استريا رب"!.

أسقط "عبد الحميد" في يده، وأحاطت به مشاعر من الهم، والقلق، والخوف. إنه لم يتعرض لمثل هذا الموقف. لم يسبق له أن قام بالتوليد. كانت مجرد دراسة نظرية، وساعد أستاذه في بعض حالة، وكانت متعسرة. إنه يتذكر كل الخطوات كأنه قام بها اللحظة و.. ولكنه كان مساعدا ليس إلا.. ماذا يفعل ؟!. إنه في ورطة، أو محنة بالأحرى. وإنها مسئولية كبيرة. كانت "ملك" ترقبه، وتلحظ ما اعتراه. ولم تدعه لوساوسه ومخاوفه، وراحت تقوّى عزمه وتبث فيه الثقة، مؤكدة أن الله لن يخذله. فهو في موقفه منقذا. وطبيبا في الوقت نفسه. وما عليه إلا أن يستعين بالله. راح ينظر في عينيها. وكأنما يستمد منهما العزم والأمل، ثم تمتم: على بركة الله !.

أغلق الباب دون الأب وزوج ابنته، التي حشرت طرف فوطة في حلقها، ومع ذلك لم تفلح في كبت آلامها. جعلت "ملك" تتأملها وقد بدا محياها وكأنه قُدَّ من العذاب، ولم تدر "ملك" بالدموع التي تنزلق عى وجنتيها وتعبيرات التأثر والرهبة التي أطلت من عينيها .

لم يسكت لسان "عبد الحميد" عن ذكر الله وقراءة سور من القرآن الكريم. تأمل عيني "ملك" . طالت بينهما النظرة. ندت صرخة استجارة. عندئذ ناولته "ملك" المبضع ، وما زالت تحثه بنظرتها. خشى عواقب حقنها بالمخدر توالت صرخات الاستغاثة :

- . الحقنى يا عبد الحميد !. الحقينى يا ملك !.

أمسكت "ملك" بيد "وداد"، وكأنما تشد من أزرها. أو أرادت أن تقاسمها الألم. الله أقرب وأرحم. وعندئذ امتدت يد "عبد الحميد". لم ترتعش، وكان رابط الجأش، ثابت الجنان. ثم عمل المبضع، وبدا الصراخ حشرجة كحشرجات الموت. لم تتوقف "وداد" و.. لم تحتمل "ملك"، وارتمت رأسها على صدرها حين ارتخت يدها، لتصرخ "وداد :"

- . "ملك، ملك ."

التفت "عبد الحميد" إلى "ملك". كان قد غشيه العرق كما غشى الأم. المهم الآن، الأم التى لا تهدأ عن الصراخ، والجنين المشاغب، الذى أرهق من بداخل الغرفة وخارجها، وتكاد أن تزهق روحه !. لعله استشعر مساوئ البشر، وأبَى أن يخرج إلى الدنيا البشعة، وألا يدع بطن أمه الدفيئ البراح!.

ويبدو أن الجنين استشعر الخطر على أمه، أو آن الأوان، فلكل ميعاد لا يُخطئه ومع صرخة "وداد" الأخيرة، أصبح الوليد بين يدى "عبد الحميد"، وانطلق صياحه. كان صداه بالخارج دموعا، وراحة، وفرحة. وكانت الأم قد ارتمت رأسها، وبدت بلا حراك !.

تنفس "عبد الحميد" الصعداء، فلقد أنجز المهمة. أرقد الوليد بجانب أمه. ما أيسر أن يُفيق أم الوليد. فحصها. قلبها يعمل. ولكن هدّها الألم وشدة الإرهاق فليقم بإفاقة "ملك". أمسك بيدها، كانت مرتخية !. دب قلبه. وضع يده على صدرها، لا نبض، إذ فارقت الحياة !.

شيَعت "ملك" الجموعُ. وكان من بينهم العم "شحاتة"، و"ليلى"، و"غادة" أخرى. بلا زينة، وقد اكتسى محياها بالشجن!. بكاها النساء والولدان، وحلقت حول نعشها الأطيار. وجاء إلى سمع "عبد الحميد" معزوفة "الكمان". لم يسمعها من قبل، لعلها معزوفة الوداع، ادخرتها "ملك" للمشهد الأخير. ورآها تخرج من النعش دون دراجة الأسر. وتصعد إلى السماء، ثم رجع ليواصل "مشواره"، ويستكمل مسيرته. ولم يكن وحده، إذ كان بصحبته طيف "ملك"!.

تمت